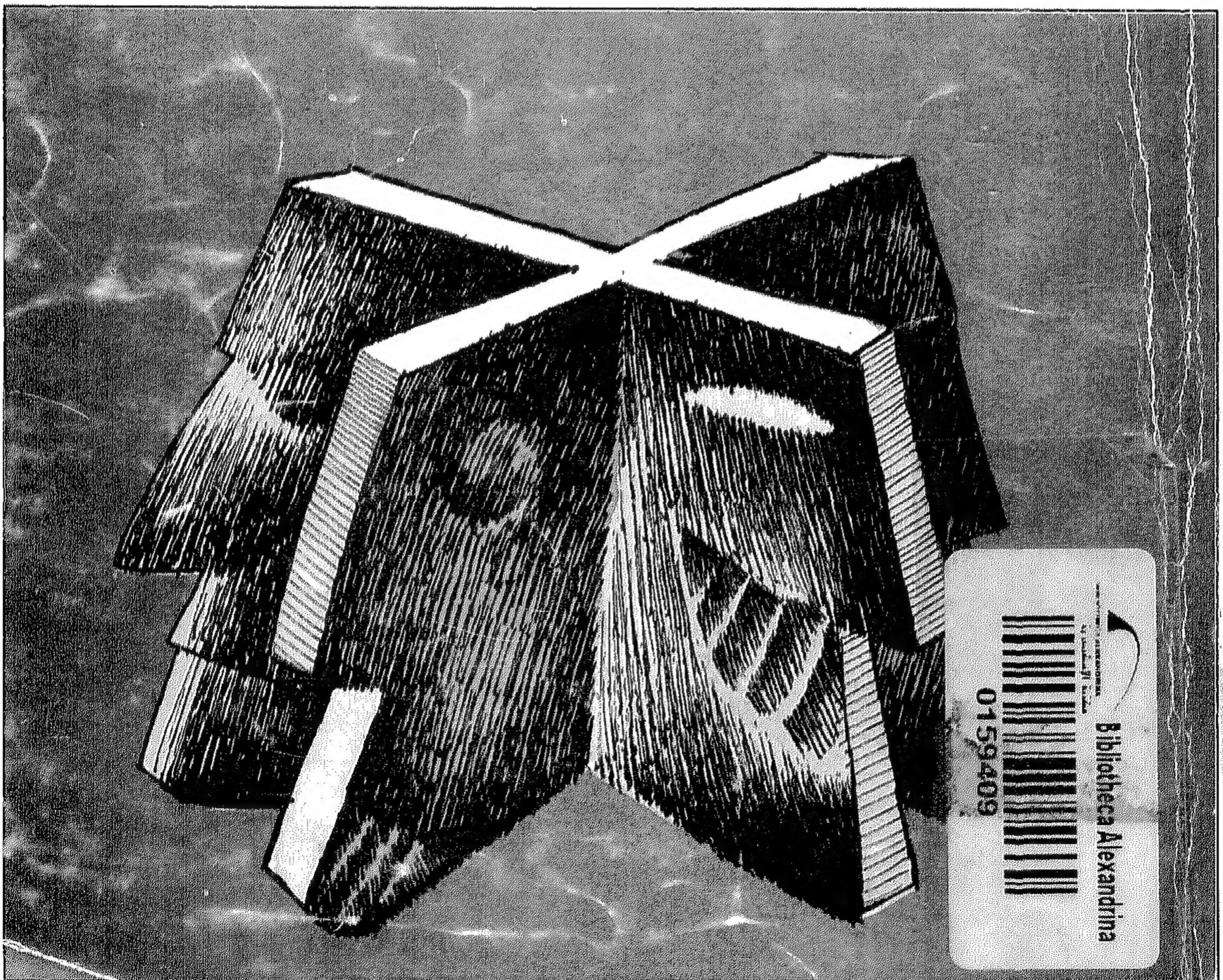


مصرات

٤

# مَنْ يَكُونُ مِصْرِيًّا؟ الدولة . النخبة . الكنيسة

د. رفيق حبيب







# من يبيع مصر ؟ !

المسولة ، النخبة ، الكنيسة

د. رفيق حبيب

١٩٩٤

- \* تكوين غلاف السلسلة وتصميم شعارها للفنان حجازى
- \* رسم الغلاف : جميل شفيق
- \* سلسلة مصريات : ٤
- \* الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع
- القاهرة ص . ب : ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب
- تليفون وفاكس : ٢٥٦٢٢٦٨
- ١٩ ش إسلام حمامات القبة - القاهرة - مصر
- \* عدد النسخ : ٢١٠٠ نسخة
- \* جميع الحقوق محفوظة للناشر
- \* الصف : مصر العربية للنشر والتوزيع
- \* الطبعة الأولى ١٩٩٤

## المحتويات

### صفحة

٦	المقدمة
١٠	المشهد الأول
٢٤	المشهد الثاني
٣٧	المشهد الثالث
٦٤	المشهد الرابع
٧٩	المشهد الخامس
٩٤	المشهد السادس
١٢٠	المشهد السابع
١٣٨	المشهد الثامن
١٤٨	الهوامش



إلى جمال حصار ... والحب العلم  
الذي مات ، فعرفنا أنه الحي ، ونحو الأموات ...  
الذي علمنا ، أن الجسد يموت ، والضمير خالد ...  
إلى الرمز الشامخ ، والدليل الحي ، لخلود القيم ...  
إلى عاشق مصر ، ..... هو أجل مصر

رفيق حبيب





## مقدمة

**في تلك** اللحظات التي تعيشها الأمة العربية ، ومع تغيرات الكون السياسى المتسارعة ، وتلاحق الاحداث المباغتة ، أصبح من الضروري أن نبطئ الخطى ونتوقف قليلا . ونفكر كثيرا . ففعل المشهد العربى ، ومنذ ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، يبدو لنا جميعا ، وكأنه مجرد فصل من مسرحية كوميدية سوداء . فمع غزو العراق للكويت ، ثم حرب تحرير الكويت ، ثم حرب تدمير العراق ، مع هذا كله ، وما جاء بعده ، يبدو كعرب كأننا قشة فى موج السياسة العالمية الهادر .

ففى اللحظة التى سفك فيها الدم العربى ، بيد عربية ، وتشرد الآلاف من العرب الذين هاجروا للعمل بالكويت والعراق ، فى هذه اللحظة توقف العقل العربى عن التفكير ، وأصبح سلوكنا ليس الا إندفاعا وراء أى تيار يحملنا ، الى أى مصير نجعله . ولم تعد الكلمات التى عشناها ، وعاشت معنا ، ذات دلالة فى حياتنا . فقد أصبح من الصعب علينا ، أن نؤكد أن هناك أمة للعرب ، أمة تجمع من يتحدثون العربية .

ليس حدث غزو العراق للكويت ، هو المسئول عن كل آلامنا ، ولا هو جوهر أزمنا ، بقدر ما كان - ولا يزال - الدليل الحى على ضياع وجودنا من الحياة ، ومن خريطة العالم . فكل المشاهد المتتالية بعد ذلك تؤكد اننا اصبحنا ، بمجرد أشياء تتحرك طبقا لرغبة الآخرين ومن أجل مصالحهم .

وبعد حادثة الغزو ، تلاحقت الصور ، بدءا من الحماية الامريكية للخليج ، وتوقيع مصر لخطابات النوايا مع صندوق النقد الدولى ، وحتى اتفاق غزة - أريحا أولا ، أو ربما أخيرا . وكلها مشاهد تؤكد ان العقل العربى ، فقد تصوره عن المستقبل ، وفقد ارادة صنع المستقبل . ثم تتوالى الصور ، وتوضع دول عربية على قائمة الدول المساندة للارهاب ، وتعلق عضوية دول أخرى فى نادى الارهاب الدولى . وتتوالى مطالب الغرب ، مقدما لنا حزمة جاهزة من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والمطلوب الاسراع بالتنفيذ ، والتمن المعروف هو المنح والقروض ، وخفض الديون وجدولتها ثم تطل علينا فكرة السوق الشرق أوسطية . بمباركات

عربية ، واسهام من علماء ومفكرين عرب . ويصبح علينا أن نسأل انفسنا ، الآن وليس غدا . هل نحن أمة عربية . أم أننا " أشياء " فى سوق الشرق الاوسط ، والتي تمثل إمتدادا وفرعا من السوق الرأسمالى العالمى .

إن ما يحدث اليوم ، يفترض اننا أمة بلا ذاكرة ، أمة بلا ماض ، فأقل القليل مما يحدث اليوم، كان يعد بالامس القريب جريمة وخيانة عظمى . أما الان ، فكل الامور تجري بسرعة وبساطة ، ودون أن تغير فينا أى قدر من الغضب . وفى هذا الظرف ، أصبحت القلة الغاضبة فى موقف يجعلها ضمن مخلفات الحرب ، ولا يجوز عليها الا الرحمة . وباتت الكلمات التى كانت بالامس شعارا على علم ، تبدو اليوم وكأنها بلاهة ، أو هى فى أجسن الاحوال جزء مما يسمى الان بالظاهرة الصوتية العربية ، أى ظاهرة الكلام الاحوف والشعارات العمياء .

فى ذلك الخضم ، لم يبق للأجيال العربية الجديدة ، الا ان تنوّه فى زحمة اللا معقول ، وتخرج فى النهاية مجرد جموع تجرى كى تعيش ، والطموح منها يجرى كى يحقق الثراء ، والكل يمكن قياس إتجاهه بمقياس الحاجات الاساسية والحاجات الاستفزازية الترفيحية . أما اذا بحثنا عن العقل العربى السياسى ، لدى شباب اليوم ، فلن نجد إلا فراغا وخواء ، أو غضبا وتمردا . وبعد أن كان الشباب جزءا من فاعليات التغيير السياسى ، أصبح جزءا من مأساتنا ، وجزءا من المستقبل الذى يضيع منا . فالأجيال الجديدة ، هى فى التحليل الاخير ، نتاج اليوم والامس القريب ، وأكبر شاهد أدانة ضد الجيل الذى يحكم (١) .

نصور - اذن - اننا امام مشهد حزين . وهو مشهد الجيش المهزوم ، عندما يباع اسراه فى سوق العبيد ، وتؤخذ نساؤه جوارى ، وتعد ثرواته من المغنم التى توزع على الاسياد والمنتصرين . ذلكم حال امتنا العربية ، وفى قلبها الذى لم يعد ينبض ، أمتنا المصرية .

ربما تبدو الصورة فى أغلب العيون ، سوداء وتشاؤمية ، أو تبدو غير واقعية . ففى زحمة ما يحدث تكيف الجميع ، أو معظمهم مع ملامح اليوم . وأصبح التكيف أفضل وسيلة للهروب من أى وقفة نقدية ، قد تفتح خزائن الاحزان . فالسياسى العربى ، تكيف مع واقعية سياسية ، تجعله قادرا على التعايش مع أى ظرف عالمى ، حتى وان كان ظرفا مهينا . والانسان العربى تكيف مع نظرة محدودة لواقعة ، قد لا تتجاوز حدود جسده ، وبات لا يبالى بما يحدث . وكذلك فالإنسان المصرى المطحون ، بات يلهث وراء الحياة ، حتى يعيش وحتى يظل موجودا فى الحياة . فلقد أصبح مجرد الوجود ، واستمرار الحياة اليومية ، معركة مستمرة ، تنسينا كل شئ ،

عن حالنا وأسبابها ، ولماذا ضاقت بنا الحياة ، وضيقنا بها . فشعار اليوم ، وهو الشعار الوحيد المقبول ، ليس الا " عش ودع غيرك يعيش " ، وليس الا " الرخاء قادم ، والاموال قادمة " . ببساطة أذن ، نحن امام حالة تؤكد تدهورنا الشديد على كل المستويات ، خاصة الاجتماعية والحضارية ، وكذلك السياسية والاقتصادية . ورغم صعوبة ما نعاينه اليوم ، الا ان حالنا قد اقتصر على السعى الدؤوب للحصول على المال ، فى محاولة للبقاء على الحياة ، بجرّد البقاء ، ايا كان شكل الحياة ودلالاتها .

وأمام ذلك الطوفان ، من الواقعية كما يسميها البعض ، والنفعية كما نفضل تسميتها ، علينا أن نتوقف ونراجع أنفسنا ، أو نسمح لبعضنا بهذه الوقفة . تلك هى صفحات الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارئ ، وقفة فى خضم الموج الهادر ، والانهيال السريع لامة العرب . وتلك الصفحات . هى خروج من دائرة النفعية اللحظية ، هى سباحة ضد التيار ، ترفض مبدأ تحقيق الفائدة العاجلة ، وتتجاوز النظرة الضيقة لمعالجة مشاكل الحاضر ، وتصرخ من أجل المستقبل . إن الفيض الغامر من الهزائم ، التى نعيشها اليوم ، ولا نشعر بها ، ولا نصرخ من الالم لدليل على فقدان احساسنا بالمرض ، فالالم ينذر بالخطر ، أما المريض الذى سكن احساسه بالالم ، فليس له الا انتظار الهجوم الاخير للمرض . قد نختلف ، فيرى البعض أننا لمام سائرون ، وأن الرخاء قادم ، أو يرى البعض أن دخولنا فى العصر هو الحل ، والعصر حددته معطيات الغرب وأفكاره .

قد نختلف والاختلاف ثراء ، ولكن يبقى علينا أن نجرب كل الاحتمالات ، ونفتح امام كل البدائل ، ونقيم تصورنا للمستقبل ، بحس لانتقصه التضحية والنضال ، وعلينا فى النهايه الا نضحى . بمستقبل أمتنا ، ولا أحيالنا القادمة ، ايا ما كان الثمن .

تلك هى المحاولة ، وهى صفحات هذا الكتاب ، انها تخرج من الحاضر ، لتعلم من الماضى ، ولا تهدف الا للمستقبل ، الذى يظل المعيار الاول ، والمنظور الذى يشكل وعينا بالحاضر والماضى معا . وان كان هاجس الشعور بالخطر هو المحرك ، وان كانت النظرة الصارمة هى المنهج ، فليس ذلك الا نتاجا لالاف الاشياء ، التى تعد اجزاء صغيرة لم تتجمع بعد ، وتشير بوضوح الى المأساة التى تنتظرنا فى المستقبل .

أن كل الخيوط تتجمع لتؤكد أن المنظومة الحضارية العربية تأخذ طريقها للافوال ، وتمحى من على خريطة العالم ، وتواجه تخطيطا محكما لتدميرها ، ولن يبقى لنا الا ان نعيش على



منظومة الغرب . ولا نتصور أن أحداً يمكن أن ينكر هذا التحول الحضارى الخطير ، ولكن البعض قد يرى فى التحول وسيلة لدخول المستقبل ، ونحن نرى فيه خروجاً من التاريخ ، وضياءاً من الجغرافيا (٢) .

والان ، وقبل أن تقرأ - عزيزى القارئ - عليك أن تعطى للصفحات مساحة فى العقل ، وتحاول وتجرب الافكار والرؤى ، فالكتاب محاولة لرؤية جديدة ، وهى قديمة فى جذورها ، فعمقها التاريخ ، وجديده فى زمانها ، فالحاضر يقتل كل ما تبقى من ذلك التاريخ .  
هى رؤية ، وهى عشق للتاريخ ، وإيمان بالجغرافيا ، وهى محاولة للخروج الى المستقبل ، والخروج بالماضى ، وتجاوز أزمة الحاضر . وكل محاولة دعوة ، وهى ليست دعوة للتفكير فقط ، بل هى دعوة للجماهير نفسها ، كى تصنع مستقبلها ، وتحدد اختيارها المصيرى ، وتحقق وجودها فى الزمان والمكان معا .

رفيق حبيب

يناير ١٩٩٤

## المشهد الأول

### " ارض المعركة "

في لحظات معينة من التاريخ . نكون امام مفترق طرق ، أى أمام لحظة اختيار صعب . وفى تلك اللحظة التاريخية ، يكون على الأمة أن تحدد اختيارها التاريخي ، الذى يشكل لها مستقبلها القريب والبعيد . وأزعم اننا الان نعيش تلك اللحظة ، وأن اختيارات اليوم وغدا ، ستحدد مستقبل الامة العربية فى القرن الحادى والعشرين .

واللحظة التاريخية تعنى - بالنسبة لنا - تلك اللحظة السابقة على حدوث تغييرات كبرى فى مسار التاريخ (١) . أى أننا نتصور أن حالنا الراهن - أيا كان تقييمنا له - لن يستمر ولن نستطيع الارتكان الى ذلك الرهان حول استمرار الاوضاع كما هى ، وبالتالي لانيجوز أن نختزل مواقفنا اليوم من الحياة ، فى قبول الحاضر بكل سلبياته وإيجابياته .

وأتصور أن المستقبل القريب ، ومع الدخول فى القرن الحادى والعشرين ، يحمل لنا إما تدهور يقربنا من حالة الموت التاريخي والحضارى كأمة للعرب ، أو يحمل لنا بداية نهضتنا والخروج من مأزق الانهيار الذى استمر لعهده قرون ، بعد أفول عصر الامبراطورية العربية الاسلامية العظمى (٢) .

والحديث هنا ليس حديثا فى السياسة قصرا ، ولكنه حديث فى الحياة وعنهما أساسا . فالنهضة ، أو التخلف ، ليست حالة سياسية فقط ، بقدر ما هى حالة مجتمعية عامة . والاهم من ذلك أن الشعب هو الذى يحقق النهضة ، لا النظام السياسى ، أما الاخير فهو إما أن يكون حافزا للنهضة أو معيقا لها . ولكن عندما تظهر شرارة النهضة ، فإن التاريخ يعلمنا أن نهضة الشعوب أقوى من كل العقبات ، وأنها قادرة على تجاوز كل المصاعب .

إذن نحن بصدد قضية اجتماعية سياسية ، بكل ابعادها الحياتية ، وهى قضية تهم كل فرد ، بل والاهم من ذلك ، هى فى الواقع حديث عن انجاز تمناه ، لن يحدث الا بعرق ملايين

الشعب المصرى ، والعربى ، الذى يحمل بداخله تراثه وتاريخه وحضارته ، أى الذى يحمل الامل الحقيقى .

إن صبح ذلك ، وكنا بصدد لحظة اختيار تاريخى ، بين الوصول بالتخلف الى أقصى مدى له ، وبين تحقيق النهضة ، إن صبح ذلك ، فأول ما نحتاجه فى تصورى ، هو رؤية جديدة ، تعيد تأصيل أحوالنا وظروفنا ، فى بناء فكرى اجتماعى وسياسى . أى أن البداية هى أن نرى الاماكن المظلمة ، وتلك المضيئة . والبداية هى أن نطرح رؤى جديدة تخرج عن وضعنا الراهن وتتجاوز مفاهيمنا التى تواكبت مع تخلفنا .

إن تشخيص الحالة الراهنة عمل شديد الاهمية ، حتى نكتشف أفاق المستقبل . ومن هذا التشخيص ، تصورنا ان اهم مشكلة نواجهها هى " الرؤية " ، وهى بتعبير أدق " البصيرة " . نعم ، لقد فقدنا البصيرة ، وفقدنا القدرة على رؤية أسباب تخلفنا ، بل أزعم اننا غالبا ما نشعر بتدهور حالنا ، ولكننا نعالج ذلك بوسائل من شأنها أن تزيد حالة تخلفنا ، لأن تحقق لنا النهضة.

إن العقل العربى ، خاصة فى مجال الرؤية الاجتماعية ، والسياسية ، يعاني كثيرا ، ليس من عجزه أمام المشكلات الحادة التى نمر بها ، بل من فقدانه لذاته التاريخية والحضارية (٣) ، أى أنه لم يعد عقلا عربيا ، بقدر ما أصبح عقلا " للايجار " ، تستأجره او تستعبده ، أفكار ليست منه ، ولا تعبر عنه ، ولا تحرره أو تنهضه ، بقدر ما تقضى عليه ، وتحاول مسح هويته . وأكثر من ذلك ، أتصور اننا امام محاولة مخططة ومنظمة للقضاء على صفة " العربى " حتى لا يكون لها دور بعد الان . وهو ما يتواكب مع الحرب على صفة " الاسلامى " ايضا ، وهى حرب واحدة ، وهدفها واحد ، أن لا تكون هناك فى منطقتنا أمة قادرة على أن تقول كلمتها ، وعلى أن تقول للآخرين " لا " .

واذا كنا نتكلم عن المحيط " العربى " ، وعن الامة " العربية الاسلامية " ، فنحن نتكلم عن تاريخ وحضارة ، وعن أمة متماسكة ومترابطة ، لايفك عراها الخلاف بين القوميين وغيرهم ، أو الاسلاميين والعلمانيين ، فتلك الامة ، هى أحد مشاهد التاريخ العظمى ، وهى ماض وحاضر ، وستكون المستقبل . أما الخلافات الاخرى ، فيجب أن تظل خلافا بين التعدد ، ولكن داخل انتماء واحد ، ومشارك واحد ، هو ذات هذه الامة ، وهو فى التحليل الاخير ، قيم هذه الامة . فمن حق أى جماعة أن تختلف حول رؤيتها السياسية والفكرية ، مع الجماعات



الآخري ، ومن حق كل تيار أن يحدد رؤيته للنظام الامثل فى امة عربية ناهضة ، ولكن لا تصور أن نختلف على أهمية " النهضة " ، او على كوننا " أمة " .

## الآزمة وتوابعها

يقلق زلزال ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ ، مجرد ثميمة جديدة ، أو تعبير خاص ، يضاف الى قاموس أهالى مصر المحروسة ، وقد اتخذ الكثيرين من حادث الزلزال علامة على حالة الآزمة ، وكأننا أستبدلنا تعبير " الآزمة " ، بتعبير " الزلزال " . ويصيح العقل المصرى لنا ، رؤية لا تخلو من السخرية ، ولا تخلو ايضا من البصيرة . فالصورة فى النهاية تؤكد اننا نمر بزلزال عنيف يحرق أوصال المجتمع ، ويحطم حاضره ، ويدمر مستقبله .

والآزمة ، أو الزلزال ، هو الذى يدفعنا للشعور باننا امام لحظة تاريخية ، وأن المستقبل ليس لنا ، وعلينا أن نكافح ليكون لنا . ومصر من أمة العرب ، هى القلب الذى ينبض ، فتصل ضرباته الى كل ارجاء الامة العربية ، وعندما يتوقف هذا القلب عن النبض ، ويستكين للموت ، تحمل مصر فى صفحات التاريخ العربى ، ذنبا ليس بحجمها ، ولكن بحجم أمتها .

ودون تكرار لكلمات محفوظة ، فالامر فى النهاية ، هو أن موقع مصر وتكوينها ، جعلها بمثابة المحرك ، الذى اذا نهض ، لايمكن ان ينهض بمفرده ، فنهضته تجعل نهضة الامة بأسرها أكثر احتمالا ، من حدوث النهضة فى أى بلد عربى آخر ، وفى هذا ليس لمصر فخرا ، بل عليها واجب ، ففى تأخرها ، يحمل شعبها وزر نفسه ، ووزر الامة العربية كلها .

اما الحديث عن الآزمة ، وتوابعها ، فهو حديث سهل ، فكل وسائل الاعلام والتواصل ، تخبرنا كل يوم ، عن أزمئنا ، وكل فئات الصفوة والنخبة فى المجتمع ، يتحدثون عن الآزمات التى نعيشها ، فمن نظام الحكم فى مصر ، حتى بسطاتها فى القرى والاحياء الشعبية ، الكل يتحدث عن الآزمات والمشكلات التى نمر بها . والاستنتاج البسيط ، اننا امام ازمة شاملة . وبتعبير الاقتصاديين ، فنحن امام ازمة هيكلية . والافضل ان نقول ، اننا امام ازمة حضارية شاملة (٤) ، هى فى واقعها تعنى حدوث تراجع فى مختلف أحوالنا وظروفنا ، جعلتنا امام حياة نعيشها دون ان نرضى عنها ، ودون ان نتكيف معها . وغالبا ، ما نرفضها جميعا ، ولكن

باساليب مختلفة . فهناك رفض يعبر عن نفسه بالصمت والسلبية ، وثانى بالاعتراض ، وثالث بالمطالبة بالاصلاح ، وعلى النقيض منهم من يعبر عن نفسه بحمل السلاح .

إذن ، نستنتج من حالة الرفض العام ، ومن شعورنا المستمر بوجود أزمات ، أن هناك خطأ جوهرياً فى حياتنا . وأتصور أن ذلك الخطأ هو حضارى بالدرجة الاولى . فقد حدث انقطاع حضارى ، فتراجعت العناصر الفاعلة فى حضارتنا الى هامش الحياة (٥) . ولم تعد القيم والمبادئ والافكار الاساسية ، المعبرة عن حضارتنا ، تقوم بدور رئيسى فى حياتنا . وبمعنى آخر ، لم تعد الاسلحة التى تملكها بحكم التاريخ والجغرافيا معا ، توظف من أجل حل المشاكل الحياتية اليومية ، او المشاكل المجتمعية العامة . فنحن الان لا نستخدم رصيدنا التراثى فى صناعة المستقبل . كما ان نمط حياتنا ونظامها الخاص ، ومصدر قوتنا وتماسكنا ، كلها اصبحت اشياء كانت توجد ، وهى الان على هامش حياتنا ، فلم يعد لها دور فى حماية هذه الحياة وصناعة مستقبلها . اننا اصبحتنا كالمريض ، الذى يطلب معونة طبيب من دولة أخرى ، وفى الواقع لن نجد احدا يفنى نفسه من اجلك ، حتى تحقق النهضة . ان كل شعوب العالم تحقق نهضتها ، وترتفع بين الشعوب الاخرى ، من خلال تطوير تراثها القديم ، بابداع جديد ، محققة تميزها . والتميز ليس أى معنى قومى عنصرى ، ولكنه يعنى ببساطة ان نصيغ حياتنا باكثر الطرق الملائمة لنا ، والتى تمكننا من تحقيق الافضل ، مستخدمة فى ذلك ، اهم عناصر القوة التى تميزنا ، فالشعوب تختلف فى مصادر قوتها الحضارية ، وتختلف فى معنى النهضة والتقدم ، بالنسبة لها . ولكن فى غمار هذه الازمة ، نجد من يؤكد اننا على طريق التقدم ، وان المستقبل افضل . وهذا الاتجاه ، وعلى رأسه نظام الحكم فى مصر ، يؤكد ان الرخاء قادم ، وانه قادم بسبب اتباعنا الحرفى للاسلوب الغربى فى تحقيق التنمية الاقتصادية ، وهو فى جزء هام منه الاسلوب الذى يطالبنا الغرب باتباعه ، وليس دائماً هو الاسلوب الذى اتبعه الغرب ، خاصة عندما نضع صوب اعيننا مراحل التطور التاريخى للتقدم الغربى ، وفتراته الزمنية (٦) .

والدراسة الحالية ، تناقش باسلوب مباشر ، حلم الرخاء على النمط الغربى ، وحلم النهضة على النمط العربى ، من خلال تطبيق ذلك على بعض جوانب حياتنا المصرية . وتلك ليست مناقشة اكايدمية ، بل هى مناقشة تاريخية . فإى اختيار نختار ، يصنع لنا مستقبلاً نعيشه ، والمستقبل لا يمكن ان نهرب منه . اذن الخلاف ليس خلافاً ترفيهاً ، ولكنه خلاف حول مصير الامة ومستقبلها . وهو قضية يجب على الشعب المصرى كله أن يشترك فيها بالفكر والعمل .

## علامات الموت

**نعني بذلك** الموت الحضارى ، وعلاماته هى المؤشرات التى تدلنا على مدى الانهيار الحضارى الذى نعيشه بالتالى ، فإن قراءة الواقع ، لايجب ان تقتصر على المؤشرات الظاهرية ، مثل عدد الذين يقعون تحت خط الفقر (٧) ، ولكن يجب ان نتناول جملة المؤشرات الدالة على سلامة بناء المجتمع ، أو على تفككة وتحلله .

فى هذا المجال ، يمكن أن نسجل بعض المؤشرات التى نظن انها تشير الى تدهور وضعنا الحضارى ، أى التى تشير الى غياب البناء الحضارى المميز لنا والمنظم لحياتنا . ومن ذلك نلاحظ أن احوال المثقفين فى مصر ، تعد احد تلك المؤشرات الهامة . ليس فقط لاهميه المثقفين ، باعتبارهم صفوة تقود رأى العام ، ولكن لان عقل الامة هو اول ما يشير الى مستقبلها ، فالفكر والفن وغيرهما ، اول ما يحمل فى طياته ارهاصات المستقبل وملاحمه .

والمتابع للكلمات التى تفرزها المطابع كل يوم ، يشهد بوضوح حيرة المثقف المصرى ، تلك الحيرة التى جعلته يتكلم دون أن يكون قادرا على التحكم فى المعانى ، أى دون أن يحدد ارادته وتوجهه نحو الحاضر والمستقبل . ان المثقف المصرى ، اصبح مجرد معلق على احداث تدور من حوله ، وعلى افكار ينتجها غيره . والاهم من ذلك ، يعترى المثقف المصرى حالة رفض ، فهو يرفض واقعنا ، وقد يرفض هيمنة الغرب علينا ، وربما ينزعج من تبعيتنا الثقافية ، ولكنه حيال ذلك كله ، لا يقدم الا افكارا تنتمى لذلك الواقع الذى يرفضه (٨) .

فالكثير من الذين يرفضون الهيمنة الغربية ، يقدمون فى النهاية رؤى غريبة . بل ان البعض ، وفى معرض حديثه عن تلك " الهيمنة " يقدم بعض المبررات التى تجعل منها " هيمنة حتمية " ، وانها فى النهاية مجرد مظهر من مظاهر العصر .

لقد بات واضحا ، فى معظم ما يكتب ان هناك مفاهيم غريبة ، اصبح لها من القدسية ، درجة تفوق ما لثراثنا من قدسية ، وكأنها نوع جديد من الاصوليه ، أى التمسك الجامد بالاصول ، ولكم هذه المرة أصبح التمسك والجمود ، رهنا باصول " الآخر " .

والمشكلة لا تظهر بوضوح فى من تغربوا تماما ، وأصبح وعائهم الحضارى يأتى من الخارج ، ولكن المشكلة الاهم فيمن يرفض هيمنة الآخر ، ولا يستطيع الا ان يفكر مثله . وربما تظهر الازمة اكبر فى بعض التيارات الزافضة بعنف للغرب ، ومنها التيار الاسلامى ، حيث نجد ان



البعض يقدم الفكر الاسلامى ، مؤكدا انه الحل الامثل ، من خلال عرض هذا الفكر على المعيار الغربى ، فإذا توافق معه ، أصبح ذلك دليلا على ملائمة الفكر الاسلامى للعصر (٩) . وأكثر من ذلك ، فان الصراع بين العلمانيين والاسلاميين ، يتجه احيانا لمناقشه درجة ملائمة كل منهما للعصر ، والعصر بالنسبة لنا ليس الا الغرب ، وفى ذلك استيراد مباشر للمعايير ، وكأننا لانتمى لحضارة لها معاييرها وقيمها .

على الجانب الاخر ، نلمح فى معظم النخب والفئات التى تستفيد من نظامنا السياسى الحالى ، موقفا شديدا سلبية تجاه هذا النظام . وهى سلبية من يرفض أن يكون شريكا لنظام الحكم فى المسئولية ، ولكنه يحصر علاقته مع النظام الحاكم فى محاولة الحصول على اكبر قدر ممكن من الاستفادة .

فالتحالف الحاكم ، وهو تحالف مصالح ، وهو امر مقبول فى السياسة ، تحالف هزيل ، فكل فئة تحسب منافعتها ، دون ان تتحمل وزر السياسات الحالية . فنجد معظم المستفيدين يتعاملون مع نظام الحكم ، من خلال قبول مشروط ، يسمح لهم بتحقيق المنفعة ، ويسمح لهم- فى النهاية - بترك حمل المسئولية على الحكام . فنجد ان معظم رجال الاعمال على سبيل المثال، من الذين يؤيدون الحكم ، ولكن يرفضون اسلوبه واخطائه ، ويقفون فى انتظار نجاح نظام الحكم فى تحقيق الرخاء (١٠) .

اما الطبقات الفقيرة فهى فئات رافضة ، وصامتة ، وترك الحكم يستمر ، وربما تؤيده بالاصوات احيانا ، وتركه يمر بالامتحان حتى النهاية ، أى تركه اما ينتصر فتصفق له ، واما لينهار فتقلب عليه ، أو على بقاياه . وهو نموذج متكرر تاريخيا ، ويمثل اسلوبا نمطيا غالبا للشعب المصرى (١١) .

ولن نتكلم عن الجماعات المسلحة ، التى تحولت فى الرؤية العامة لقلّة منحرفة ، وجماعة ارهابية ، وهى فى الواقع العرض الاوضح لمظاهر الاختلال الحادثة فى حياتنا . ولكن الاعلام الرسمى يصر على اخفاء العرض ، وكأنه بذلك ينجو من المرض ، مع ان خفض درجة حرارة المريض بالادوية والعقاقير ، لايعنى شفاؤه . وكأن نظام الحكم يركز على اهمية استمراره فى المستقبل القريب ، ويترك امر المستقبل البعيد لمن سيعيشه .

أن تلك المظاهر ، مجرد مفاتيح اوليه ، يمكن ان نضيف عليها مظاهر التفكك التى تعمل فى المجتمع المصرى . وانهيار اينيته الاساسية التاريخية . مثل تفكك الاسرة ، وتحلل المجتمع الى

جماعات فرعية ، وفقدانه للاطار الجامع للجماعة / الامة . وكل هذه الدلائل تبعث على الاعتقاد بان مظاهر الضيق والرفض ، ليست الا نتاج لخروج المجتمع عن " ذاته " ، وكذلك لتأخر المجتمع وتراجعة بين الامم . والامة التي تفقد ذاتها ، لن تكون امة قوية ناهضة ، من خلال تبنيها لمسخ من المفاهيم والممارسات التي تمارسها الامم الاخرى . بمعنى آخر ، فإن الامة التي لاتبدع ، ولكن تقلد فقط ، أمة ليس لها مكان فى تاريخ البشرية ، وليس لها اسهام يستفيد منه الآخرون . انها امة تعيش على انجاد الماضي ، هربا من مأساة الحاضر .

أن قوى المعارضة تمثل مساحة كبيرة فى حياتنا الثقافية والسياسية ، ولكنها معارضة ترفض نظام الحكم ، دون ان تحدد بالضرورة الطريق الذى تتصوره . ولعل كفاءة المعارضة الاساسية تظهر فى قدرتها على نقد نظام الحكم واظهار عيوبه ، أى أن الرفض يكشف عن نفسه فى تصور جيد . واصبح من السهل ان تعرف كل ما نرفضه فى حياتنا . ولكن الرفض يبقى باعتبارة خطوه اولى نحو تصور مستقبل جديد .

وهذا التصور الجديد ، يحتاج بعد ذلك لقوى اجتماعية تعبر عنه ، وتنادى به ، وايضا تنشره وتفرضه ، فتغير واقعنا ، وتخرجنا من أزمتنا (١٢) .

ولكن مع قوة ما نجده فى حجج المعارضين ، نلمح ضعفاً فى التصورات الجديدة ، التى تكتفى بالشعارات احيانا ، والتى تقدم تصورات ليست الا جزءا من واقعنا المرفوض . ومجمل الصورة تؤكد أن عقل الامة قد وقع اسير الواقع الذى يرفضه ، وأسير تصورات جاهزة ، لا يستطيع الخروج منها ، ولا يتصور غيرها بديلا . واذا كان الفكر هو الخطوة الاولى نحو مستقبل جديد ، فإن عجز الفكر عن الابداع ، يهدر أى فرص جديدة ، ويبقى الرفض فى النهاية دليلا على الازمة .

## الاستعجاب بالكلمات

**أنا كنا** نتصور ان عقلنا وفكرنا الاجتماعى والسياسى ، لم يعد الا تعبيراً عن التقليد، دون ان يكون تعبيراً عن الابداع ، فلهذا اسباب ، اهمها دور الكلمات فى حياتنا (١٣) . ان بعض الكلمات التى نردها اليوم ، أصبحت تمثل اسواراً تقف امام اى محاولة للابداع ، و اى محاولة لاكتشاف الذات . بل اكثر من هذا ، فنستطيع أن نؤكد اننا اسرى بعض الكلمات ، التى انبهرنا بها ، وصدقناها ، فاصبحت اهم وسيلة لاستعمار عقلنا . ومن هذه الكلمات ، بعض المصطلحات التى لايجرؤ احد على معارضتها ، أو رفضها ، لان ذلك سيؤدى الى اتهامه بالتخلف والرجعية وغيرها من الاتهامات .

فى تلك اللحظة ، سجد المجتمع المصرى ، ومثقفيه يتحدثون عن التحديث والتقدم ، والليبرالية ، والديمقراطية ، والاصلاح الاقتصادى ، والتثنية . وهذه الكلمات تمثل معيار الحكم على الافكار ، وتمثل ايضا ميدان السباق بين المتنافسين . بل ان الجدل الدائر مع الاسلام السياسى ، يتركز حول رفضه او قبوله للديمقراطية ، ومن الجانب الاخر ، اصبح الكتاب الاسلاميين المعتدلين ، يقدموا افكارهم على نفس المعيار ، مؤكدين العلاقة القوية بين الاسلام والديمقراطية (١٤) .

اما الاكثر طرافة من ذلك ، ان جماعات الرفض المسلح ، باتت تحدد موقفها من المجتمع وعلى نفس المعيار ايضا ، وبما انها تنادى بالثورة الشاملة ، والانقلاب المسلح ، لذا فهى تؤكد على ان الديمقراطية كفر . ووجه الطرافة هنا ، ان تلك الجماعات ، وكى تؤكد رفضها القطاع لاحوالنا ، اصبحت تبالغ فى رفض تلك الكلمات ووصفها بالكفر .

بهذا قسمت الحكومة المجتمع ، الى نظام يحكم ، وجماعات اريائية ، ومن يقبل الديمقراطية ينتمى للفئة الاولى ، ومن يرفضها ينتمى للفئة الثانية . اما الاحتمال الثالث ، فهو ان تقبل الديمقراطية وترفض نظام الحكم ، بسبب الايمان بالديمقراطية الكاملة وغير المنقوصة . ولكن الاحتمال الضائع هنا ، هو ان ترفض الديمقراطية ، ولا تنتمى لاي فئة سابقة . ورفض الديمقراطية ، لايعنى انها كفر ، او انها فاسدة ، ولكن قد يعنى ببساطة ، انها فكرة تلاءم من صنعها وقد لاتصلح معنا . والمعنى الابسط ، لرفض تلك الكلمات ، هو الاعتقاد بوجود بدائل عديدة ، وافكار اخرى يمكن ابداعها ، وان الابداع هو خروج على القوالب ، لخلق قوالب



جديدة . والابداع يأتي عندما يخرج المفكر عن قوالب الماضي ، ثم يعيد احياء عناصر الماضي في قوالب جديدة ، وبعناصر جديدة ايضا ، ولكن مشكلتنا الان ، ان البعض وقع اسير قوالب الماضي ، اما الاغلبية فوقعت اسيرة قوالب الآخرين .

وفي مجال الفكر السياسى ، يمكن ان نناقش قضايا التضامن الاجتماعى ، وتوسيع نطاق فاعليته المجتمع الأهلى ، وتوسيع دائرة المشاركة من أسفل الى أعلى ، وتعظيم مدى فاعليه الجماعات ، والجماعة / الأمة بالتالى ، فى خلق روح المجتمع ونظامه . والاهم من ذلك ، يمكن أن نناقش التنظيم الاجتماعى ، وعلاقته بالدولة ، وكيف يأتي هذا التنظيم تعبيرا عن جماع الامة ، وكيف يكون على الدولة أن تعبر عنه افضل تعبير . وعندما نناقش كل هذه الامور ، نكون بصدد مناقشه نفس المجال الذى يختص بمصطلح " الديمقراطية " ، ولكن من خلال عناصر وأشكال وأساليب أخرى ، لها علاقة موضوعية بأحوالنا ، وذواتنا الحضارية .

ببساطة ، ان خبرة احتكاكنا بالغرب ، تعلمنا أهمية تقنين مجال الفاعلية والحرية السياسية ، ولكن خبرتنا الخاصة ، تكشف لنا عن مجالات متعددة لاحداث هذا التقنين . فالحياة المعاصرة من التعقيد بحيث لا يصلح معها الاساليب القديمة فى محاسبة " الحاكم الظالم " ، أو الاساليب القديمة فى التعبير عن رأى الأمة . لذلك يصبح التحديث هنا ، ليس تقليدا للديمقراطية الغربية ، بل اجتهدا وجهدا جديدا للوصول لاشكال تحقق قيمنا ، وتحقق ما تعلمناه من تجربة الآخرين ، ولكن فى الصورة التى تحقق لنا النهضة .

أن التحديث ، هو الاجتهاد الجديد ، هو الثورة الفكرية ، ولكنه ليس اتباعا للنمط الغربى . بل أن مفهوم التحديث والحداثة ، وفى القرنين الماضيين ، أصبح من أهم الاسوار التى حطمت قدرتنا على الابداع ، وحطمت ذاتنا التاريخية . إن الغرب متقدم وناجح بمعياره هو ، وبمعيار الاسهام البشرى التاريخى ، وهذا يدفعنا كى نتعلم منه ، ثم نرجع لثرائنا فخرجة من متحف التاريخ ، وهو موجود بداخلنا ، حيننا وميلا وتفضيلا ، وسنجد فيه قيما وافكارا ، يمكن أن نخرج منها بابداع جديد ننظم به شؤون حياتنا ، فنخرج من قالب ماضينا ، وقالب الآخر .

وأذا كانت الصورة غير واضحة ، فعلينا أذا أن نتأمل الطبقة الشعبية المصرية ، فسنجد فيها الكثير من دروس التاريخ . فهذه الفئة المطحونة ، والتى تتمزق تحت انياب التحديث والتغريب والاصلاح الاقتصادى ، تقدم الكثير من الابداعات الحضارية الاصلية . ولكنها ابداعات هشة لم تصل لدرجة النضج ولم تصل لدرجة الانتشار الكامل فى المجتمع ، بل هى محصورة داخل

هذه الفئة ، وتمثل في حد ذاتها رفضا اجتماعيا ، للنماذج التي اصبحت سائدة في المجتمع المصري .

ومن داخل الطبقة الشعبية ، نلاحظ ان الاحداث الغريبة ، والتي تعبر عن " العصر " ، تمثل بالنسبة لهذه الفئة ، زلزال مدمر ، يصعق وجدانها . فالحديث عن الشهامة ، والقواعد الاجتماعية ، أصبح يجد طريقه بين الفئات الاقفر ، وحتى الفن المصري ، يعبر عن هذه القيم من خلال شخوص تنتمى للطبقات الاقفر ( ١٥ ) . وفي داخل هذه الفئات ، يُجد أن الصراع والتنافس والجريمة ، وغيرها من ملامح العصر ، تمثل صدمة حضارية عنيفة .

والمقصود هنا ، أن هذه الفئات تملك التراث ، وتستخدمه بأسلوب شعبي ، ولكنها تواجه قوى تحاول محو هذا التراث ، واخراج هذه الفئات الى حالة من التضرر ، والذي ليس الا التغرب . وعند هذه النقطة ، يمكن أن نلاحظ أعنف صور الصراع والتحول في المجتمع المصري، وعند الحد الفاصل بين التراث بفقرائه ، وبين التغريب بأثريائه ، سنجد اعنف موجات الرفض ، ومنها جماعات العنف المسلح . التي تمثل ، ضمن ما تمثل ، لحظات الصراخ لذات حضارية تحتضر ، وهي تموت قتلا ، ويبقى الصراخ دفاعا من المقتول تجاه القاتل . نعم ، علينا ان نرفض العنف ، ونحقن الدماء في وطننا الأمن ، ولكن علينا ايضا أن نفهم ونعى ، معنى تلك الرصاصات وسببها ، فالألم الذي يحقق بالوطن ، هو إنذار مما سيحدث للوطن . ولكن سياسات الحكم في مصر ، أدمنت المسكنات ، وتركت المرض ينهش العظام .

## النصاع الموضوعي

**حتى نستطيع** أن نتحرر من القوالب ، ونعطى لعقولنا فرصة جديدة ، وحتى نصل الى رؤى جديدة ، يصبح من المهم أن نحرر أنفسنا من اعنف حصار ضرب عليها ، ألا وهو العلم . ان من يتجرء اليوم ، ليهاجم العلم ، كمن يناطح طواحين الهواء . ولكن الحقيقة غير ذلك . إن العلم الموضوعي ، يعنى تقنين وسائل المعرفة للوصول الى تصورات ترتبط " بالموضوع " ، ولا ترتبط " بالذات " العارفة ، اى الوصول الى حقائق ترتبط بموضوع البحث ، أكثر من ارتباطها بالباحث الذي يجرى الدراسة . وهو ايضا ، اى العلم الموضوعي ، تقنين الوسائل التي تحقق عند استخدامها من قبل العديد من الباحثين ، الى الوصول لنفس الحقائق " الموضوعية " .

ذلك العلم لا نرفضه ، ولا يرفضه احد . بل ان اهم ما يمكن ان نتعلمه من الغرب ، هو الوسائل والمناهج المختلفة لتطوير الوسائل العلمية ، والطرائق المنهجية . ولكن العلم الموضوعى ليس بحال من الاحوال ، ظاهرة عالمية ، بل هو ظاهرة حضارية ، ووظيفة مجتمعية (١٦) . ومن هنا يأتى الخداع الاعظم الذى وقعنا فى أسره ، واضاع فرص الابداع امام العقل العربى فأولا ، العلم ظاهرة حضارية . فالموضوعية العلمية ليست موضوعية عالمية ، خاصة عندما نتكلم عن العلوم الاجتماعية ، وحتى اذا تكلمنا عن العلوم الطبيعية . فالعلم هو مؤسسة اجتماعية ، تتشكل من اهل الاختصاص ، أى الجماعة العلمية ، وهذه المؤسسة تقوم بتقنين الوسائل التى تستخدم فى مجالات المعرفة المنظمة . والمؤسسة العلمية الاجتماعية ، أو جماعة العلماء ، تنتمى الى السياق الحضارى الذى تعمل بداخله . وهذا الانتماء الحضارى هو التحيز العلمى الاول ، أى المبدأ والاساس . فالعلم لا يعمل خارج اطار الحضارة ، ولا يعمل على اسس علمية عالمية ، بل يعمل من خلال تحيزه الى مجموعة القيم والمبادئ التى تتشكل منها الحضارة . وبالتالي فهو ينتمى الى الحضارة ، ويعتبر قيمها بديهيات لا تقبل المناقشة .

وثانيا ، فالعلم يقوم بوظيفة اجتماعية ، تخص المجتمع الذى نشأ فيه وتتشكل من خلاله . فالمؤسسة العلمية ليست مؤسسة علمية عالمية محايدة ، ولكنها مؤسسة اجتماعية ، ترتبط بمجتمع ما ، وتلتزم بالرؤية المستقبلية لهذا المجتمع .

والعلم الغربى ، نموذج لما تقدم فالعلم الغربى يخدم آله التصنيع ، وآله الرفاهية ، أى انه يخدم القيم الأساسية للحضارة الغربية . لذلك نجد علم الاقتصاد - على سبيل المثال - يودى بنا اما الى الرأسمالية الغربية ، او الاشتراكية الغربية . فالعلم نفسه ، آله من اجل تطوير تلك الآليات الغربية ، واذا استخدمنا مفاهيمه ونظرياته ، سنصل الى بدائل غربية فى النهاية ، وبمعنى ادق سنصل الى نتائج يودى تطبيقها الى تحقيق قيم الحضارة الغربية ، دون غيرها من القيم الحضارية الاخرى .

ومثال علم الاقتصاد ، نجده فى علم النفس ، وكلاهما يمثلان أشد صور التحيز الحضارى العلمى . فعلم النفس يركز اساسا على مقولة الانسان / الفرد ، ولا يعترف بوجود الانسان / الجماعة . ولذلك فان اسس علم النفس الأمريكى (١٧) ، واسس علم النفس الروسى ، تعتمد على دراسة الفرد باعتبار كائن بيولوجى متميز ، ينشأ ويتحدد بالعوامل البيولوجية اساسا . وعلم النفس فى النهاية يخدم الحضارة الفردية ، التى تعتمد على الفرد كعنصر وحيد ، يتشكل

منه جموع من الافراد المتفرقين ، ومن خلالهم يتحقق التقدم الآلى ، ويتحقق لهم الرفاهية الاستهلاكية .

ان ما قدمه الغرب من " علم " ، يمثل احد المجالات التى نتعلم منها ، وستعلم منها ، ولكن عندما نمارس " العلم " ، يجب ان نعيد اكتشاف قيمنا اولا ، ثم نؤسس عليها مفاهيم وتصورات علمية ، نستخدمها فى دراسة واقعنا . واذا عدنا لمثل علم الاقتصاد ، فاذا كان جوهره هو تراكم رأس المال ، فأتصور أن جوهره فى حضارتنا سيكون التوازن بين الجهد والعائد . واذا كان علم النفس يركز على وجود افراد فى مواجهة نظام المجتمع " الدولة " ، فإنه بالنسبة لنا يجب ان يركز على وجود جماعات تفاعلية داخل اطار الجماعة / الامة .

إن هذا المجال ، يعنى اننا نحتاج الى علم عربى (١٨) ، وان العلم بمجال للتفاعل بين منجزات البشر ، ولكنه - كغيره - ليس مجالاً لمحاكات شعب لآخر . وهذه القضية تحتاج الى مزيد من الجهد ، ويمكن أن تكون الخطوة الأولى ، هى إكتشاف الحضارات ، واكتشاف جوهرها القيمي ، وهو ما يساعد على " فك " التحيز الحضارى الغربى للعلم ، و " تكوين " التحيز الحضارى العربى ، لممارستنا العلمية .

### وبعد \*\*\*

سنحاول فى الصفحات القليلة القادمة ، الابحار فى تلك القضية الشائكة ، ألا وهى إعادة انتاج الإنسان الغربى فى البيئة المصرية ، باعتبارها الاسلوب المتبع لاعاده استعمار مصر ، العقل والوجدان والشعب . فنحن بصدد عملية منظمة لخلق أشكال ممسوخة ومقلدة للإنسان الغربى ، على مستوى عالمى ، حتى يصبح العالم المتخلف ، مجرد أشكال مقلدة تابعة للعالم المتقدم . إن جوهر هذه العملية ، يفوق كل ما حدث فى الماضى ، فهى ليست استعمارا عسكريا ، وليست استعمارا اقتصاديا ، ولكنها عملية كبرى " لغسيل المخ " ، تهدف الى إستعمار العقل، وإعادة زرع القيم الغربية ، حتى تنتهى صراعات المصالح ، وصراعات الأيديولوجية ، وصراعات القيم ، ولا يبقى فى العالم غير الغربى ، الانماذج هشه ضعيفة تتجه بسبب ضعفها الى الانبهار باللامحدود بالغرب القوى ، فتتلقى منه النماذج الحياتية ، والقيم والمعايير ، وتتبع ارادته ، بعد أن سلبت ارادتها بالكامل .



أتصور ، ان عملية تغريب العالم (١٩) ، التى تحدث الان ، سوف تسجل فى التاريخ ، باعتبارها أكبر عملية للتطهير الحضارى ، حيث ستؤدى فى النهاية ، اذا نجحت ، الى سحق النماذج الحضارية لمختلف الجماعات البشرية ، ابقاء للنموذج الحضارى الغربى . اننا بصدد الإستعمار فى أعلى درجاته ، وهواستعمار حضارى ، أى استعمار قيم حضارة لقيم كل الحضارات . حتى يصبح العالم قرية صغيرة ، مشكله على النموذج الغربى ، وكل أطرافها من النماذج المقلدة الهشة ، ومركزها هو النموذج الاصيل ، والنموذج الاصل .

ولكن التاريخ يؤكد ، أن مثل هذه المحاولات تفشل . فالكل يحلم بحكم العالم ، ولكن حكم العالم ، لا يحدث الا ك لحظة تشهد أكبر درجات القوة ، ويعقبها لحظة الانهيار . والغرب الذى يعمل على تكوين نظام عالمى جديد ، من خلال المركز الأمريكى ، والقوة الاوربية ، يعانى اليوم من لحظات ضعفه الداخلى ممزوجة بأكثر لحظات النشوة والانتصار . ولكن اذا كانت عملية التطهير الحضارى ، لايمكن أن تتحقق بالكامل ، ومن خلال منظور تاريخى ، إلا اننا لايجب ان نقف فى انتظار انهيار الغرب . بل ان قضيتنا الاساسية لايجب ان تدور حول احتمال إستمرار القوة الامريكية ، أو احتمال انهيارها . فالرهان الحقيقى ، هو ان ننهض مؤكدين على عالم التعدد الحضارى ، والندية الحضارية ، فى مواجهة قوى التطهير الحضارى . فقضيتنا بداخلنا اساسا ، فهل نقبل ان نكون نماذج مقلدة وممسوخة للانسان الغربى ، أم نرفض ذلك ؟ وهل نقبل ذلك فى سبيل فئات الموائد ، أو الرخاء النسبى ، مع استمرارنا كشريحة لفقراء العالم ؟ !

إن التقسيم الطبقي ، كان جزء من عملية التصنيع الغربى ، فهو ليس أمرا حتميا فى صورته التقليدية ، ولكنه مواكب لعملية التصنيع والتحديث كما حدث فى الغرب (٢٠) ، وهذا النموذج صراعى فى جوهره ، والرأسمالية العالمية تجدد نفسها ، بتصدير صراعتها ، فهى استعمارية بالضرورة . وهى الان تصدر نموذجها ، وصراعاتها ، وفقرها ، لتعيد تشكيل العالم ، وكأنه محمية أمريكية ، تمثل فيه أمريكا وأوروبا أغنياء العالم ، وتمثل التوابع المميزة مثل اليابان (٢١) ، جزء من أغنياءه ، أو تمثل الطبقة الوسطى ، اذا كان المعيار هو الغنى والقوة معا ، ونبقى نحن ممثلين لطبقة الفقراء . وأذا تصور أحد أن النهاية ستكون عالم من الدول المتقدمة الغنية ، فهذا وهم . فالرأسمالية تجدد نفسها بوجود فئات جديدة تستغلها ، وهى تبدأ بالاستغلال الداخلى ، ثم الإستغلال الخارجى ، ثم تتوسع فى حيز المستغلين دولاً وشعوباً .

فماذا نريد لانفسنا ؟ سيظل السؤال معنا سنوات قادمة . وسيظل كل المعارضين على أحوالنا ، موصومين بالتخلف والغوغائية ، وسيحمل لنا المستقبل إجابته فى النهاية ، عندما يخرج الجميع بلا غنائم ، وعندما يعرف المتنازلين دائما ، أن التنازل بلا ثمن ، وعندها إما سيبقى لنا جيل أو فئة حاربت من أجل المستقبل ، أو سنبقى جميعا مدانين بحكم التاريخ .

هى بالفعل قضية شائكة ، ومعركة لها ثمنها ، ولكن علينا أن نضبط إيقاع التفكير ، فنحدد معيار الحكم . فمن وجهة نظرنا ، لن يكون المعيار إلا المستقبل ، فأى طريق يحقق للمجتمع ، وللأمة بأسرها ، المكانة والرضا والسلامة الإجتماعية ، وحب الشعب لحياته ، ورضاءه عن مصيره ، وتكيفة مع ظروفه ، وغيرها من العلامات ، التى يمكن إيجازها فى أمة سليمة العقل والوجدان ، أى طريق يحقق هذا هو معيار إختيارنا . وفى أمة مثل أمتنا ، يصبح تحقيق الرضا والسلام الإجتماعى ، وتحقيق التضامن والتماسك ، وغيرها من قيم أمتنا ، هو معيار النهضة ، ومعيار التقدم . ولن يكون المعيار هو إجمالى الدخل القومى .

أعلم أن المستقبل هو الحكم الأخير على تصورنا وتصورات غيرنا ، وأن الرهان فى إختياراتنا الحالية ، رهان حول مستقبل أمة ، ولكن تبقى المحاولة هى الوسيلة ، والجهد هو الثمن ، والرشد هو الطريق . فالقضية ليست حول من يحكم ، بل حول وجودنا نفسه ، فهل لنا أن نعطي ذلك المساحة اللازمة للتفكير والحوار ؟ وهل يمكن للقارئ أن يجد فى عقله المساحة اللازمة ليقرأ ويناقش الصفحات القادمة ؟

## المشهور الثانى

### الإله الغربى ... محاولة للكفر

إبراهيم " الإله " هنا ليست مجازيا فقط ، بل هو اشارة الى حقيقة تقديس الغرب ، وتقديس الفكر الغربى ، أى اعتباره غير قابل للنقاش ، وانه يعبر عن " العصر " حصرا . ففى ذهن المصرى المعاصر ، سنجد أن المصطلح الغربى ، والتصورات الغربية ، والحلم الغربى ، أصبحت من العناصر السائدة لدى شرائح واسعة من المجتمع . مما يعنى سيادة المفاهيم الغربية على غيرها من المفاهيم ، وخاصة على المفاهيم المصرية . والأهم من ذلك ، صعوبة الفصل بين المفاهيم الاصلية وتلك الوافدة ، لدرجة ان التوجه العام للعديد من الكتابات ، أصبح يؤكد على مدى تخلف تلك الرؤية التى تفصل بين الوافد والاصيل . لقد أصبح البعض يرى اننا عالم واحد، يعيش حضارة واحدة .

فإذا كانت تلك هى حالنا ، فكيف وصلنا لها ؟ الحقيقة تكمن من عدة عناصر لايمكن إغفالها . فإى حضارة متقدمة ، تمثل بريق يجذب شعوب الحضارات الاخرى . فالانبهار بالانجاز سمة عامة . وكل الحضارات والامبراطوريات العظمى فى التاريخ ، كان لها هذا التأثير على الدول المحيطة بها ، والتى تكون فى حالة أقل منها ، أى حالة تخلف .

والاتجاه نحو معرفة الانجازات البشرية ، وتقليدها ، وترجمتها ، اتجاه طبيعى يعرفه تاريخ البشر . وكل الحضارات العظمى فى تاريخ البشرية ، قامت على دراسة الحضارات العظمى السابقة عليها ، وعلى نقل المعارف وترجمتها . ببساطة ، فإن الأضعف ينبهر بالأقوى ويتعلم منه، ثم يتجاوزه ويقدم إبداعه الجديد ، حتى يصير هو الأقوى . وهو نموذج للتطور الحضارى البشرى عبر التاريخ ، الذى يحكى قصة قيام وسقوط الحضارات . وتلك الدورة التاريخية الحضارية ، كانت تستغرق فى الماضى آلاف السنين ، وأصبحت تستغرق مئات السنين . ويبدو أنها تقصر مع مرور الزمن ، ومع تطور أساليب الحياة (١) .

إن تلك الاستجابات الطبيعية بين مختلف التكوينات الحضارية ليست هي القضية ، ولكن القضية تكمن فى تحول موقف التعلم الى موقف تبعية . فالشعوب تتعلم وتحتاج لخبرات طويلة، ثم تنهض من جديد . ولكن الواقع المعاصر ، أصبح ينبئ بتحرك عنيف يقاوم حدوث النهوض الطبيعى للشعوب . فهناك من العوامل ، ما يجعلنا نعتقد فى وجود قوى منظمة تعمل على إجهاض محاولة النهوض لشعوب العالم الثالث .

أما الاختلاف بين زماننا والازمنة الماضية ، فيكمن فى أساليب السيطرة بين القوى على الضعيف على المستوى الدولى . ففي القديم كانت السيطرة عسكرية ، وكانت الحرب عسكرية، رغم أن تقدم الشعوب كان ومازال رهنا بابداع العقل ، والنهوض الاجتماعى . فكانت المعارك تحسم لصالح القوى ، ولكن الضعيف كان يظل محتفظا بإمكانياته الاجتماعية والحضارية ، فلا تؤثر الهزيمة الا على جيوشه ، دون عقله ووجدانه . بذلك تظل الفرصة قائمة حتى ينهض من جديد ، من خلال حراك اجتماعى حضارى ، يحمل رؤى جديدة ، تنبهاها قوى جديدة (٢). وهكذا ينهض مجتمع ، ويهبط آخر ، وتظل المعركة بين القوى والضعيف ، معركة جيوش ، تقف وراءها عقول ، ولكن المعركة تنال من قوة الجيش دون قوة العقل .

الامر الآن تغير ، لقد حدث ما لم يكن مقصودا على ما نعتقد . فالتطور الصناعى الهائل ، والذى يمثل جوهر الحضارة الغربية ، أدى الى نمو عسكرى واسع المجال ، أظهر نفسه فى الحرب العالمية الاولى والثانية ، ولكن منذ بداية الحرب الباردة ، بات واضحا أن السلاح لن يحسم معركة ، أولا بسبب أنتشار القوة العسكرية لدى العديد من بلدان العالم ، وثانيا لان المعركة التى يحسمها السلاح سوف لا تكون إلا حرب دمار شامل .

من هنا بدأ الامتداد من الفكرة العسكرية الى الفكرة الاقتصادية . وهو امتداد تواكب مع تحول التركيز على التصنيع الى التركيز على الادارة العالمية لسوق المال . فعندما كان التصنيع هو المحك الرئيسى للتقدم ، كانت الجيوش هى التى تحسم المعركة . ثم أصبحت القوة الاقتصادية هى محك التقدم ، وأصبحت السيطرة الاقتصادية هى التى تحسم المعركة .

أما التحول الا تى ، وهو ما يسمى بما بعد التحديث ، فهو نمط جديد لنفس الفكر والقيم . وليس كما يظن البعض ، أنه حضارة جديدة (٣) . فالمرحلة الحالية تشهد بروزا واضحا لتفوق نمط الحياة كمعيار للتقدم ، ومع هذا المعيار الجديد ، أصبح سيادة نمط الحياة ، هو السلاح الذى



يكسب المعركة ، انه نمط الحياة الامريكية ، الذى يحاول كسب المعركة مع الدول المنافسة له اقتصاديا ، وتلك المتأخرة عنه .

إن جوهر الحضارة الغربية يدور حول الفرد ، باعتباره آله ، تحقق التصنيع والتقدم والتكنولوجيا ، ويتحقق لها الرفاهية والاستهلاك ومجتمع الوفرة ، والدولة الغربية ، هى المنظم الاكبر للأفراد ، والمعبر عن جماعات المصالح والشركات ، أى مراكز تكون وتراكم رأس المال ، وهى تمثل الحدود القومية الاقتصادية (٤) . والان تمر الدول الغربية ، بمرحلة تدويل الحدود الاقتصادية ، مع الحفاظ على إبقاء الحدود فى نطاق تعظيم المصالح الاقتصادية . أى تحرير حدود الاقتصاد دون تحرير حدود مراكز هذا الاقتصاد والمسيطرة عليه (٥) .

إن هذا التصور للملامح تطور الحضارة الغربية ليس بعيدا عنا . ففي المرحلة التصنيعية / العسكرية ، كان نصيبنا الاستعمار العسكرى ، وفى المرحلة المالية / الاقتصادية ، كان نصيبنا السيطرة الاقتصادية . وفى المرحلة التى بدأت وتستمر الان ، وهى مرحلة نمط الحياة / التبعية القيمة ، سوف يكون نصيبنا منها التطهير الحضارى .

وكل هذه المراحل تدور حول فكرة استغلال الطبيعة ، وتقدم التصنيع ، وتحقيق الرفاهية والوفرة ، وهى تحدث من خلال إستغلال الانسان نفسه ، باعتباره آله تحقق العائد المادى ، ويصبح قبول الانسان للفكرة رهنا بقبوله للقيم المادية الإستهلاكية بإعتبارها العائد الأفضل من الحياة .

ومع هذه المراحل ، تغير موقف الغرب منا ، نحن شعوب العالم الثالث . فمع الاستعمار ظهرت النظرة العنصرية ، التى ترى فى الشعوب غير الغربية ، شعوب متخلفة بالفطرة (٦) ، وهذا ما برر الاحتلال العسكرى والاستغلال المباشر . ولكن النظرة تغيرت ، بعدما تغيرت القوة العسكرية ومكانتها ، فأصبحنا شعوب متخلفة ، يمكنها أن تحسن أحوالها بالاعتماد على المساعدات الاقتصادية الغربية . ولكن مع تدويل نمط الحياة الغربى ، تغيرت النظرة لنا ، فأصبحنا مشروع بشرى ، يمكن أن يجد مكانه من خلال إتباع نظام الحياة الغربى .

وكل تلك المراحل ، تعبر عن حالات التجدد داخل الفكر الرأسمالى الغربى (٧) ، وكيف يتطور من خلال تجاوز مشكلاته ، وحتى يستوعب احتمالات جديدة للاستمرار . وهو - باختصار - ينتقل من سيادة الآله الى سيادة الفكرة ، أى ينتقل من تصنيع الآله ، الى فكرة الآله بإعتبارها نموذج حياة . وهذه الفكرة تشمل أن الجهد المبذول ، هو تحويل الطاقة الى أشياء ،

وان استهلاك الاشياء هو مصدر السعادة وسبب الحياة ، واستمرار هذه العملية يصبح متاحا من خلال ميكنة الحياة والانسان والافكار ، حتى تنتظم بشكل يجعلها تستمر فى خط واحد ، وتصل دائما لنفس الاشياء ونفس القيم . ويصبح تطوير فكرة الآله ، لتستوعب متغيرات جديدة، ولتشمل عناصر جديدة وشعوب جديدة ، هو الوسيلة الأمثل لتجديد الفكرة . وأصبح استمرار الحضارة الغربية المعاصرة ، رهنا بسيادة هذا النموذج فى كل ارجاء العالم ولكن الواقع يؤكد أن تدويل النمط الغربى يواجه عقبات من داخل المعسكر الغربى نفسه ( مثل فرنسا ) (٨) ، ومن النزعات الفاشيه والنازية .

## المكون الغربى

**إن التمييز** عن النظام العالمى الجديد ، والسلام العالمى ، والكونية الحضارية ، وغيرها من المصطلحات ، يعد من ابرز علامات السيطرة والهيمنة الغربية فى آخر مراحلها . وكى نوجز القول اولا ، وباعتبار ان المستقبل سيكون انجك الوحيد لكل الافكار ، فإن النظرة الكونية ستنتجح فى حالة واحدة ، وهى سيادة نموذج فكرى / حياتى عالمى ، يحقق آمال وطموح كل شعوب العالم ، وبهذا ينتهى التاريخ وتنتهى الايديولوجيات ، كما يرى البعض (٩) . ولكن التاريخ لايعطينا دليلا على إمكانية حدوث ذلك ، ناهينا عن المنطق ، وعن طبيعة الصراع المستمر بين القوى والضعيف .

فإذا وجد نمط للحياة يرضى جميع البشر ، فستكون هناك حياة كونية ، ولكن لان البشر هم حضارات متعددة ، لها قيم وآمال متباينة ، ولان السعادة تختلف فى مفهومها من شعب لآخر ، ولان تكيفهم مع الحياة يحدث لاسباب وظروف مختلفة ، لذلك فإن ما يحدث الان ليس الا اجبار الضعفاء على اتباع نمط ونظام للحياة ، يحطم حضارتهم ، ويقضى على امالهم ، ويفرق بينهم وبين السعادة والتكيف مع الحياة .

فما يحدث الآن ، هو محاولة لفرض أمية الحضارة الغربية ، رغم انها بالتعريف غربية ، أى تنتمى لميراث حضارى تاريخى معين ، وبالتالي فهى نابعة من شعوب بعينها ، وتعبر عن انجازها الذى ارادوه لانفسهم . واذا كانت الدول الغربية والصفوة الحاكمة فى الغرب ، تريد فرض أمتيتها الغربية ، فإن النزعة العنصرية ، والنازية ، والهجوم على الاجانب (١٠) ، وحركات

العنف والجريمة ، كلها تشير الى اضطرابات داخل الغرب نفسه ، ترفض التخطيط الآلى للحياة ، وتعبر عن بوادر ازمة حقيقية داخل المنظومة الغربية نفسها .

والازمات التى يمر بها الغرب تتعدد ومنها انهيار الشركات الكبرى، والتحول الى شركات صغرى ، ثم اعادة دمج الشركات. كذلك صورة المنافسة بين الشركات عابرة القومية، والانهيارات الناتجة عن ذلك. ثم تجاوز الشركات لحدود الدول ، وتجاوز الدول لحدود مصلحة شعوبها، وتجاوز الافراد لحدود مصلحة الجماعة. كل ذلك يخلق صفوة غربية فى اوربا وامريكا، ومعها صفوة متغربة فى دول أخرى ، تحاول متحالفة مع اصحاب المصالح ، ومع الشركات العملاقة ، تدويل الفكرة الغربية ، وكأنها نظام عالمى ، يحكم العالم . وتبقى اشكالية القومية ، التى تتحول الى قومية عالمية ، ولكنها تتخطى بعض مصالح القوميات التى تنبع منها ، وتتجاوز بالكامل مصلحة القوميات التابعة ، فتعرض للخطر الداخلى والخارجى معا ، فتصبح مهددة بالانهيار . أما الخطر الداخلى فيأتى من ضعف فكرة الآله كنموذج وحيد للحياة ، ومن كثرة ضحايا الآله خاصة بسبب البطالة . والخطر الخارجى يأتى من شدة سحق الحضارات الاخرى ، التى ستقاوم فى النهاية ، وتطرح نفسها وبنفسها بدائل أخرى ، ونماذج جديدة للحياة.

والكونية الغربية تعالج التعدد الحضارى بأسلوب متحفى ، وبأسلوب الحوار ، الذى يقبل فكرة وجود الخلاف ، ولكن مع توحيد القيم العليا ، بإعتبارها قيم العصر (١١) . ومن التحضر أن تقبل " العصر " ، وتقبل " الحوار " ، وعليك أن تنتمى لقيم التحديث والتقدم والتنمية والديمقراطية وغيرها ، وما عدا ذلك ، فيمكننا أن نتميز بما نشاء . وفى الواقع لا يبقى بعد ذلك إلا بعض الملامح الحضارية المتحفية . فإذا قبلنا فكرة " العصر " ، واننا ننتمى جميعا له ، قبلنا فكرة أممية المنجز الحضارى الغربى . فبعد الاممية الشيوعية ، نجد انفسنا أمام الأممية الرأسمالية ، وكلاهما يتجه نحو تدويل فكرة الآله ، باعتبار أن التقدم هو التصنيع والوفرة والرفاهية .

إن بعض المثقفين خلطوا بين الكونية ، وبين وسائل الاتصال . فالتقدم فى وسائل الاتصال يختصر الزمان ولا يختصر المكان . والقرية الصغيرة كفكرة ، تعنى سرعة التواصل ، وسرعة التغير ، كما انها تختزل الزمن فى الحروب والمعارك ، وفى التقدم والتطور . وكل هذا يتواءم مع الصغر المتتالى لدورة الحياة الحضارية ، أى دورة حياة الشعوب (١٢) . فثورة الاتصال تؤدي الى إختزال دورة حياة كل شعب ، كذلك فإن تراكم المعرفة البشرية ، جعل التغير والانتقال من مرحلة الى أخرى يتم فى فترات زمنية قصيرة للغاية ، إذا ما قورنت بالماضى البعيد .

ولكن ثورة الاتصال لا تختصر المكان ، ولا تختزل الجغرافيا . والفكرة الكونية تتعارض بشدة مع الفكرة الجغرافية . كما أن أى فكرة حول إمكانية تماثل كل البشر تماما فى الشكل مثلا ، ستتعارض مع الفكرة البيولوجية . فإذا كان التركيب البيولوجى يحدد خصائص الانسان / الفرد، ويحدد خصائص الانسان عامة فى مواجهة الكائنات الحية الاخرى ، فإن الجغرافيا تحدد خصائص الجماعة / المجتمع ، وتحدد خصائص الحضارات (١٣) ، فى مواجهة بعضها البعض . وثورة الاتصال لن توحد حالة الجغرافيا للشعوب ، ولن تستطيع أن تفرض نمط حياة واحد ، يكون أكثر تأثيرا من العوامل الجغرافية ، الارض والماء والمناخ . فهل يمكن أن نعيد إنتاج المناخ الجغرافى العالمى ، ونوحده ، حتى نتوحد معه فى نموذج بشرى كونى ١٤

إن المناخ العنيف ، والبرد القارس ، والغابات ، والجبال ، كلها عناصر تساهم فى تشكيل الحضارات العدوانية المفرطة فى النشاط سريعة الايقاع والاميل للصراع ، ومنها النمط الغربى . ولكن المناخ الهادئ والوادي المنبسط والصحراء المترامية الاطراف ، تساهم فى تشكيل الحضارات المسالمة الهادئة التى تعمل وكأنها تتأمل والاميل للتوازن ، ومنها النمط المصرى خاصة ، والعربى عامة . ودون الدخول فى تفصيل العلاقة بين الجغرافيا والحضارات ، إلا ان القضية تطرح سؤالا هاما لاصحاب فكرة الكونية ، فكيف يمكن أن نعيد تنميط العالم ، من خلال نمط لا يلاءم أغلبية العالم ، دون أن نكون بصدد عملية كبرى للتطهير الحضارى ١٥

## **التبعية والتغريب**

**كثيرا ما** يتحدث عن التبعية والتغريب ، ولكن القضية تحتاج إلى ضبط المفاهيم ، وتحديد الوقائع المقصودة . فمن ناحية الدول الغربية ، فقد بدأت فجر نهضتها الصناعية بالاستعمار ، وهو وسيلة للسيطرة على مقدرات الشعوب ومصادر المادة الخام . ولكم مع التطور التاريخى ، وظهور حركات الاستقلال ، أصبح الغرب أميل لسياسة التبعية تجاه العالم الثالث . والمقصود هنا تبعية القرار السياسى للتحالفات بين الغرب والحكومة فى العالم الثالث . ولذا تحالف الغرب مع حكومات عسكرية تختلف فى نظامها وأسلوبها السياسى ، عما هو سائد فى الغرب نفسه . أما سياسة التغريب ، فهى محاولة تنميط نظم الحياة فى العالم الثالث ، حتى تتماثل وتتكامل مع النظام الغربى ، الأمر الذى من شأنه تسهيل عمليه تعميم النظام الرأسمالى على مختلف دول العالم .



والتغريب يحدث في دول جنوب شرق آسيا ، أى في دول النمرور وعلى قمته اليابان (١٤) . ويتضمن ذلك تغير في المفاهيم الغربية تجاه السياسة الدولية . وهو تغير ينتج من موقف دول العالم الثالث ، وتوجهات الدول الغربية في آن واحد . فمن جهة العالم الثالث ، فإن ما يظهر من مقاومة يدفع بالتدريج الى استخدام أساليب أقل عسكرية ، وأكثر أنسانية ، وتبدو وكأنها اختيارية ، أى أن موقف العالم الثالث يدفع الى التحرك من السيطرة العسكرية المباشرة ، إلى التبشير بالفكرة الغربية ودعم ذلك بكل وسائل الضغط والاغراء ، حتى تختار الشعوب بنفسها نمط الحياة الغربي ، وتنضم كأعضاء فرعيين لنادى الرأسمالية العالمية .

أما من جهة الدول الغربية نفسها ، فإن التوسع الرأسمالى يتطلب دائما أرض جديدة حتى يستمر الإنتعاش الإقتصادى ، ويخف التضخم والكساد وغيرها من الامراض الشائعة فى النظام الرأسمالى . وعندما إحتاج الغرب للعالم الثالث كمورد للمادة الخام ، إستخدم الجيوش ، وعندما إحتاج لتدوير فوائض رأس المال ، إستخدم الديون والقروض ، ولكنه الآن إحتاج للعمالة الرخيصة ، والاسواق لبيع فوائض الإنتاج ، أى أنه إحتاج لمزيد من البشر ، ويريد استغلال سكان العالم غير الغربى ، ولذلك فهو إحتاج لنمط حياة يسود هذه الدول يضمن استمرار عملية تجديد الرأسمالية . ومن جانب آخر ، فإن النظم العسكرية التى تبعت الدول الغربية ، أصبحت غير مقبولة من شعوبها ، وأصبح الغرب مهددا بفقد مصالحه مع سقوط هذه الحكومات .

من هنا جاء الرهان الغربى الاخير ، بأن يكسب الشعوب نفسها ، ويعيد تعليمها وتنشئتها اجتماعيا ، ويجعلها تختار بنفسها أن تتبع نظام حياته ، فيسيطر مباشرة على الشعوب لاعلى حكامها فقط ، ومن هنا يضمن استمرار قوته وهيمنته ويحمى حضارته من السقوط .

لهذا نتصور أن الاستعمار والتبعية والتغريب كلها مراحل فى تاريخ إستغلال الغرب لدول العالم غير الغربى . أما إتجاه الغرب الحالى ، فهذا يهدف الى خلق نماذج من حياته فى كل دول العالم ، لذلك فنحن بصدد التطهير الحضارى .

وفكرة الاممية لدى الغرب بدأت بالفكر الاشتراكى والنظم الشيوعية . والحقيقة أن موقفنا فى العالم الثالث من النظم الشيوعية يعتريه الكثير من الالتباس خاصة بعد سقوط هذه النظم . والاقرب الى الواقع الغربى ، أن النموذج الغربى نشأ من خلال تصورين ، الاول هو الرأسمالية الفردية ، والثانى هو الدولة الشيوعية . وكلاهما يتجه نحو التصنيع وفكرة الآله ، وكلاهما يهدف الى تحقيق الرفاهية ، بمفرداتها المادية (١٥) . ولكن الرأسمالية تقوم على التنافس الصراعى

كوسيلة لتحقيق التقدم ، أما الشيوعية فتقوم على الدولة المنظمة كوسيلة . والاختلاف بينهما ليس فى الهدف النهائى بل فى الوسيلة . فالرأسمالية قبلت فكرة وجود ضحايا للتطور ، والشيوعية رفضت فكرة وجود ضحايا للتطور ، وأكدت على أهمية العدالة . ولذلك كانت الشيوعية هى تيار المعارضة داخل حضارة التصنيع ، لان التصنيع بمعايير الوفرة والرفاهية والاستهلاك لا يتحقق الا بالاستغلال وهو ما رفضته الشيوعية . ورغم سقوط الشيوعية ، الا ان التيارات اليسارية والاشتراكية مازالت تمثل المعارضة داخل المنظومة الرأسمالية . وتبقى أوروبا نموذجاً لحالة التوازن النسبى بين دور الدولة ودور الفرد ، فى حين تمثل روسيا دور الدولة ، وأمريكا تمثل النموذج الاقرب لدور الفرد . ويظل الجدل فى الغرب محتماً حول دور الدولة . وهو فى النهاية يدور حول حجم الاستغلال والصراع المسموح به فى عملية التطور التصنيعى ، أو بمعنى أدق التطور الألى المادى .

لذلك فإن الشيوعية حاولت نشر أمية حضارة الغرب ، أو الآلة المادية ، ولكن من خلال المحافظة على قدر من العدالة داخليا وخارجيا ، أى كانت تحاول تدويل النموذج الغربى ، دون ممارسة أو تدويل الاستغلال ، وجاء فشل الشيوعية بسبب أزمة الفكرة نفسها ، فالتراكم المستمر والاستهلاك المستمر ، واستغلال الطبيعة ، لا يحدث ويتحقق الا باستغلال الانسان نفسه. لذلك نتصور أن سقوط الشيوعية هو العلامة الاولى على انهيار النظام الغربى ، لانه سقوط رأسمالية الدولة الرشيدة ، والذي استمر هو الرأسمالية المستغلة لانها الاقدر على تحقيق الشره المادى اللامتناهى فى الفكرة الغربية . ولكن استمرار الاستغلال يؤدى فى النهاية الى تحطيم الطبيعة والانسان معا ، وعندها سيبحث الانسان الغربى عن معنى جديد للحياة ، معنى بعيد عن الاقتصاد والمادة والآلة ، وعندها سوف تنتهى الحضارة الغربية ، ككل الحضارات السابقة عليها، لتأتى حضارات جديدة تحقق انجاز جديد لتاريخ البشرية .

والان يحاول الغرب نشر أمية الفكر الرأسمالى ، والحضارة الغربية ، ومن خلال الصورة السافرة لذلك المشروع وهى " السوق الحرة " و " الانسان الاقتصادى " . ولذلك أصبحت هناك العديد من الشروط فى تعاملات الغرب مع العالم الثالث ، من خلال صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى ، والامم المتحدة ، وتقارير الخارجية الامريكية عن الارهاب وحقوق الانسان . وكل هذه الادوات تستخدم لفرض قوانين ونظم معينه على دول العالم الثالث . وفى مقابل تنفيذ هذه الشروط يقدم الغرب لنا حلم الرخاء ، أى حلم الانسان / الآلة .

## تأديب العالم

**الحق** أو محاولة الغرب للسيطرة على مقدراتنا ، ليست نتاج استغلاله لنا من أجل مصالحه الخاصة فقط ، بل هى نتاج فكرنا المهزوم ايضا . وكما سبق وأشرنا ، فإن الانبهار بالقوى ، والتعلم منه وتقليده ، كلها امور طبيعية ، وكلها مراحل تسبق نهضة أى حضارة تعانى من التراجع والجمود . وعصر النهضة الذى عشناه فى بدايات القرن العشرين ، هو ليس الا مرحلة نقل الحضارة الغربية ، فهو ليس نهضة ، ولكنه مرحلة من مراحل الانبهار بالآخر . وفى تلك الفترة ، لمعت أسماء فى عالم الفكر والفن والادب ، كان انجازها الحقيقى انها نقلت المعارف الغربية ، وقدمتها بابداع لايقف عند حدود التقليد الجامد . ولكن فى هذه المرحلة الهامة ، تحدث صدمة بين حضارة قوية ، وبناء حضارى متراجع وجامد ، وبعد هذه المرحلة يبدأ الابداع الاصيل ، والنهضة الحقيقية . كما أن الغرب بدأ بالانبهار بابن سينا ، وابن رشد ، والفارابى ، وابن خلدون ( ١٦ ) ، وغيرهم ، ثم قدم أفكاره وفلاسفته وانشأ حضارته . ولكن الذى حدث معنا ، أننا انحصرنا فى دائرة النقل والتقليد ، وقل تقديم الفكر الوافد بابداع ، بل ظل التقليد مسيطرا ، والنقل السريع ، والتباهى بين بعض العلماء لمن ينقل الفكرة أولا . وهذا التعثر نتج من ظروف دولية ومحلية ، أى نتج من نظام سياسى خارجى يفرض علينا عدم النهوض ، ومحاربه ، ونظام سياسى داخلى أضعف من أن يقود نهضة ، لذا يرتكن على الحل العاجل والتحالفات الدولية .

أن الغرب فى كتابات بعض مثقفينا هو الحلم الليبرالى ، الديمقراطى ، المتقدم ، التكنولوجى ، العلمى .... وهكذا . وهو ايضا وفى كتابات نفس الاقلام ، هو الخطر الاستعمارى ، الامبريالى ، وهو ايضا الانحلال والتفكك وضياع القيم ( ١٧ ) . ومن هنا تكمن الازمة التى يستغلها الغرب الآن فى محو حضارتنا ، او فى تطهيرنا من حضارتنا المتخلفة ، التى كثيرا ما كتبنا عنها بأنفسنا ، ملصقين بها صفات التخلف والبدائية وعدم الحضرة . ان الانتصار الحقيقى للحضارة الغربية يقاس بمساحة ما تم استعمارها من عقولنا ، والانتصار الاخير لها لن يتحقق الا من خلال تلك المساحة المستعمرة من فكرنا .

واذا لم نعى أن منجزات الغرب التى تبهرنا هى عناصر نتعلم منها ونعيد توظيفها لخدمة قيمنا الحضارية ، وان تلك المنجزات لايجوز نقلها او تقليدها ولكن التعلم منها ، وصياغة

خبرتنا فى النهاية فى اشكال جديدة ، ان لم نعى ذلك ، فقد انبهرنا بالغرب للدرجة التى جعلت لدينا " القابلية للتبعية " او بمعنى ادق " القابلية للاستعباد " . فاذا كنا نواجه من يريد نحو حضارتنا ، وهويتنا ، وثقافتنا ، فالمشكلة الاكبر اننا قابلين لذلك ، ومؤهلين له ، لاننا لم نميز بين الانبهار بالآخر ، وبين التعلم والابداع والتفوق على الآخر .

والواقع شاهد على ما سبق ، فمن يرفض السوق الحر ، والنظام الليبرالى ، يتهم فى مصر بانه رجعى ومتخلف ولا يعيش العصر . ومن يتحفظ على المفهوم الغربى عن حقوق الانسان ، يتهم بالغوغائية السياسية ، ومن يتشكك فى النمط الغربى للديمقراطية ، يتهم بتشجيع الارهاب . وتلك هى خطورة الحالة التى وصلنا اليها ، فإى ابداع مستقل ، لصالح تحيزنا الحضارى العربى ، يقاوم ويواجه محليا ، فللغرب الان وكلاء محليين ، يقومون برعاية مصالحه . وتبقى حدود مصر ، مفتوحة لعملية التأديب السياسى ، وهى ليست الا عملية تغيير النظم والقوانين حتى تصبح ملائمة للنموذج الغربى وملائمة للمصالح الغربية . اما تبرير كل ما يحدث بالنظام العالمى الجديد والشرعية الدولية ، فاتصور ان التطبيق منذ حرب تحرير الكويت وتدمير العراق ، يؤكد اننا بصدد غطاء دولى لتحقيق الهيمنة الغربية ، والسيادة الامريكية . وللأسف ، فنحن شركاء فى كل ما يحدث لنا .

ولعل قضية حق امريكا ، او الامم المتحدة ، فى التدخل فى الشؤون الداخلية حماية لأقلية ، أو للشعب ، تعد من النماذج الفجة على عملية التأديب السياسى . فهى فى كل الاحوال تنفى عن الشعب حقه فى تنظيم حياته وحقه فى تغيير نظامه السياسى بنفسه ، وتعامله باعتبار أن شعوب العالم الثالث فاقدة للاهلية ، وتحتاج لولى أمر ، يدير شئونها ويحافظ على مصالحها . اما قاعدة التدخل فى الشؤون الداخلية ، فهى واضحة تماما ، فأى نظام يخرج على تعليمات البيت الابيض ، يصبح نظاما ديكتاتوريا وجب على أمريكا حماية شعبه منه ، وأى نظام تابع للسياسة الامريكية ، فهو نظام يحمى شعبه ايا كانت ممارساته .

ولعل نموذج التأيد الامريكى للممارسات غير الديمقراطية لبوريس يلتسين ، الرئيس الروسى ، نموذج فج لتلك الشرعية الدولية المزعومة . كما أن المقارنة بين ما حدث ويحدث مع العراق والصومال والبوسنة والهرسك ، وفى المقابل اسرائيل ، هو نموذج شديد الوضوح للغاية النهائية للسياسات الغربية .



وفى النهاية وقعنا تحت أسر عملية التأديب السياسى ، وفى نفس الوقت تحت سيطرة أنظمة سياسية تلهث وراء إرضاء الغرب ، وفى كل مرة يطلب المزيد ، وسيأتى اليوم الذى يطلب فيه تنحية هذه النظم ، حتى تأتى نظم متغربة وتابعة فى ممارستها ولغتها .

## التنميط والطموح

**ليبر هو الجديد** أن نقرر أن الحضارة الغربية قد اعتمدت فى صعودها على أكبر عملية تنميط بشرى ، من خلال أخراج نماذج بشرية مهنية ، ذات أنماط موحدة (١٨) . وعلينا أن نلاحظ ، أن ذلك تم من خلال هيمنة واضحة للدولة على مقدرات البشر . فنموذج الدولة القومية ، أفرز فى النهاية دولة قوية تقوم بدور المربي والمنظم الأكبر للبشر . وفى هذا كان دور الدولة يطغى على دور الاسرة ، ودور الكنيسة ، وغيرها من المؤسسات . وهو ما جعل الكثير من المفاهيم تدور حول علاقة الفرد بالدولة وحماية الفرد من الدولة ، وذلك لانصهار كل التشكيلات الوسيطة بينهما .

ومن خلال طغيان الدولة ، وأجهزة الاعلام ، ومؤسسات التعليم أصبح تنميط البشر ، أو قولبتهم ، عملية ممكنة ، وهى العملية التى تخرج منها الاعداد المطلوبة لسوق العمل ، ولعملية التصنيع ، وبالمواصفات اللازمة . وهى عملية توحيد قياسى ، تربط على مستوى المفهوم بين التصنيع والتنميط . فالاول تأتى منه نماذج سلعية متشابهة وذات مواصفات محددة ، والثانى تخرج منه نماذج بشرية بمواصفات قياسية ايضا .

إن ذلك يدفعنا الى تصوير الحضارة الغربية باعتبارها حضارة الآلة ، أى الحضارة التى تعتمد على المادة الميكانيكية والتى تتوجه الى التاج المادى الوفير . وينطبق ذلك على التصنيع ، وعلى الانسان الغربى وتنميته ، كما ينطبق على المستقبل المرهون بالتقدم فى مجال الحاسب الآلى ، حيث يطرح الغربيون تصورهم عنه ، فى شكل جديد ، ولكنه شكل يعتمد ايضا على ميكنة الحياة ، ومعنى ادق ، برمجة الحياة تبعا لاوامر محددة يعمل من خلالها الحاسب الآلى ، ويتمط الانسان من خلال تفاعله مع تلك البرامج الآلية (١٩) .

وإذا كنا نتحدث عن النمط الغربى وآلياته ، فان من المهم ان نذكر الفلسفة البرجماتية ، ومبدأ المنفعة واللذة . فالبرجماتية هى الوعاء الاشمل للحضارة الغربية ، وهى جزء هام من

منظومته الفكرية . والبرجماتية ليست هي الواقعية ، فالواقعية - كما نتصورها - هي استخدام اساليب تلائم الواقع وتتعامل معه بفاعلية ، كى يحقق من خلالها الانسان أهدافه . أما البرجماتية فهي استخدام اسهل وأقصر وأنجح الاساليب للتعامل مع الواقع ، لتحقيق قدر من المنفعة المباشرة والمادية .

والواقعية السياسية التى يتحدث عنها الفكر السياسى العربى الآن ، ليست الواقعية فى مواجهة الخيالية فى طرائق الحياة . ولكنها هي البرجماتية ، التى يستحى الخطاب العربى عن ذكرها بالتعبير الملائم ، حتى لاتعنى فى الذهن المنفعة . فما نعيشه اليوم هو المنطق السياسى الهادف الى تحقيق المنفعة الاقتصادية المباشرة ، بغض النظر عن أى قواعد أو معايير أخرى ، من شأنها أن تحكم العملية السياسية .

إذن نحن بصدد نمط غربى برجمائى ، ذو مواصفات محددة ، تفرض قصرا ، وهذا النمط هو الذى يسوق لنا الآن ، فى أكبر عمليات الترويج للمشروع الحضارى الغربى . ولكن هذا النمط لايتحرك فقط طبقا لتعليمات ميكانيكية ، ولكن يتحرك ايضا من خلال قوة دفع هامة ، وهى الطموح . فالنمط الحضارى الغربى فرض قيمة التنافس باعتبارها معيار الكفاءة الفردية ، وترك التنافس طليقا لحد الصراع المباشر بين الافراد . وأصبح الطموح فى هذه المنظومة ، هو انفجار دوافع الرغبة الشرهة فى الكسب المادى والنفع بدون حدود على الاطلاق .

ولننظر حولنا سنجد أن الطموحين ، هم مشروع محتمل للتحويل الى نمط الحياة الغربى . ولننظر مرة أخرى ، سنجد البحث عن المال تواكب مع كل اشكال الاستهلاك ، واستيراد الاشياء والقيم والعادات . ان الطموح المتفجر من خلال ابهار نموذج الغرب فى الرفاهية ، أصبح الدافع الذى يحول سكان العالم الثالث ، ليس فقط لمستهلكين للمسلع الغربية ، بل ايضا لمستهلكين للقيم الغربية . ومع الطموح الجامح تندفع فئات وطبقات نحو التوحد الكامل مع الغرب ، والجرى وراء كل ما يقدمه ، وكأنه مصدر الحياة وواهبها . وهذه الفئات تتحول الى وكيل للغرب فى مجتمعاتها ، وتصبح هى رأس الخربة ، لاعادة نشر التغريب ، نمطا وسلوكا وقيما .

إن هذا السباق المحموم نحو الرفاهية ، هو الذى قضى على النموذج الغربى الاشتراكى والشيوعى (٢٠) ، لانك لاتستطيع أن تحقق نمط الاستهلاك السفه لكل المجتمع ، من خلال اسس عادلة . فكل ما حققته الدول الشيوعية لم يشبع اتباعها ، فالنموذج امامهم ، كان نموذج

الرفاهية بلا حدود ، وهو نموذج لا يتحقق الا بوجود ضحايا ، ولا يتحقق الا بالنموذج الغربى  
الرأسمالى ، ومع قيم التنافس والنزعة الفردية الحادة .

وإذا نظرنا الى أحوالنا ، فإن نمط التعليم الغربى ، ووسائل الاعلام التى تحمل الحلم الغربى ،  
وتلك الفئات المتغربة ، وعشرات المفاهيم الغربية التى يسوقها المسئولون والحكام والنخب ،  
كلها عناصر لعملية كبرى لاعادة تنميط الشخصية المصرية والعربية ، داخل القالب الغربى .  
وهى فى النهاية محاولة نحو تطهيرنا من ذاتنا المتخلفة ، حتى نتوحد من الذات الغربية المتقدمة .  
فماذا يحدث على أرض مصر المحروسة ؟ فى الفصول التالية ، لمحات سريعة .





## المشهور الثالث

### التاريخ السياسى ... مشروع بلا نهضة

**لا نستطيع** أن نتجاوز مشاهد التاريخ ، وتتابع المراحل الزمنية ، فعند القرن الثامن عشر ، كانت الامة العربية ، والامبراطورية الاسلامية ، تعاني من التخلف والتدهور . وتلك الحالة ، ليست كما يصورها لنا البعض ، دليلا على خطأ كامن فينا ، ولكنها مرحلة تاريخية لحضارتنا . مرحلة شهدت ضعف فاعلية الشعوب ، وتوقف نمو الحضارة ، وتردى الاوضاع الداخلية . وكلها عوامل الضعف الداخلى ، التى تعاني منها أى حضارة ، فنقول أن الحضارة توقفت عن النمو والتطور ، ولهذا فهي تأخرت وتخلفت ، ليس فقط مقارنة بالحضارات الاخرى، ومعدل تغيرها وتطورها ، ولكن بمقارنتها بنفسها ايضا . فالحضارة المتأخرة ، ليست كما يشاع الان ، هي الحضارة التى لم تلحق بالغرب ، وتصير على نمودجه ، ولكنها الحضارة التى وصلت لحالة معينة ، ولم تتطور فى أشكال أفضل ، بل أخذت عناصرها الجامدة تظهر نفسها فى ممارسات أسوء . انها حالة تشبه حالة المبدع الذى يتوقف عن الإبداع ، فيصبح ممثلا للماضى أكثر منه للحاضر .

من تلك الحالة ، يمكن أن نرصد العلاقة مع الحضارة الغربية . والذى يهمنا الان ، ليس الصراع السياسى مع الغرب ، ولكن الصراع الحضارى . وتركيزنا على هذا الجانب ، بسبب ما نحاول تقديمه من معالجة فى هذا الكتاب ، لقضية النهضة فى سياق الحضارة الخاصة بأمة العرب.

إن عوامل الصدمة ، عند إلتقاء حضارة متأخرة ، بحضارة متقدمة ، أى اللقاء بين حضارة تتراجع وتوقفت عن النمو ، وحضارة تنمو بسرعة ، تلك العوامل تشرح لنا فى جانب منها ، سر الازمة المعاصرة التى نمر بها الآن . فذلك اللقاء / الصدمة ، يمثل حالة الانبهار بإنجاز الاخرين، والرغبة فى أكتشافه ومعرفته ، ومحاولة تقليده والسيطرة عليه ، واستحوازه ، ومحاولة مبارزة " الآخر " فيما وصل اليه من تقدم . تلك الحالة هي التى أخرجتنا من التأخر ، ولكنها

هى التى أسلمتنا الى المرحلة الراهنة ، حيث يهددنا خطر فقد حضارتنا ، أى فقد ذاتنا التاريخية والجغرافية.

والتعرض للصدمة ، بدأ منذ الحملة الفرنسية على مصر فى نهايات القرن الثامن عشر . ومنذ ذلك التاريخ نتعرض لصورة الغرب المتقدم ، ولكننا لم نتوقف كثيرا أمام تحليل الصورة . بمعنى آخر ، سنلاحظ عبر تاريخنا الطويل ، لقنين من الزمان ، أننا فى مواجهة مع الغرب المستعمر . وسنلاحظ أيضا ، كيف رفضنا - ومازلنا نرفض - الكثير من مظاهر الحياة الغربية ، ومع ذلك بقيت معنا صورة التقدم الغربى صورة تتحدانا ونتحداها ، ولم نستطع بعد التخلص من بريقها .

وضورة الغرب أو التقدم الغربى ، تتعارض بالفعل مع مواقفنا الاخرى من الغرب ، فهو استعمارى ، ومنحل اخلاقيا ، وكلاهما صفات نرفضها ، ومع ذلك فإن الوجه الاخر للغرب ، وهو الوجه المتقدم ، يمثل بالنسبة لنا صورة ننافسها ، ونحاول تحقيقها . وتلك هى أزمنا .

**أولا :** علينا أن نؤكد أن هذا الموقف المزدوج تاريخيا ، جزء من قوانين التطور التاريخى الحضارى للشعوب . فرفض الاستعمار ، ورفض القيم الاجتماعية التى تتعارض مع قيمنا بصورة صارخة ، رد فعل طبيعى ، وجزء من الدافع الاجتماعى نحو الحفاظ على التراث والاستمرار . وفى نفس الوقت ، فإن الانبهار بانجازات الاخرين ، هو جزء من الرؤية المنفتحة للتعليم من كل منجزات البشرية .

**أما ثانيا :** فإن الاشكالية التى لم تحل حتى الان ، تكمن فى الفصل التعسفى بين ما نقبل وما نرفض ، وتكمن ايضا فى ضياع البديل الاصح ، وهو قبول اشياء أو منجزات واعادة صياغتها فى منجزات أخرى تنتمى لحضارة أخرى ، أى حضارتنا . فالفصل التعسفى بين ما نقبل وما نرفض ، جعلنا بصدد حضارتين غريبتين ، لاحضارة واحدة ، وهو أمر منافى للحقيقة . فالأصح أن ما نرفضه ، وكل ما يبهتنا ، هو حضارة واحدة ، إما أن نقبلها أو نرفضها . والاقرب الى الواقع ، اننا لا نقبل أو نرفض الكل ، بل نتفاعل مع النموذج الحضارى ونتعلم منه ، ثم نستخلص ما ابهرنا ، وننقيه من كل ابهار زائف ، حتى نصل الى علم ومعرفة جديدة ، نستخدمها ونعيد إخراجها فى قالب جديد ، أى فى نهضة نابغة من حضارتنا .

وهذه ليست الطريقة المثلى ، أو الحل الافضل ، ولكن ذلك التصور السابق ، حسب اعتقادنا ، هو قانون التفاعل الحضارى . فتاريخ البشرية يعلمنا - مثلا - كيف قامت الحضارة الفرعونية ، وكيف كانت المسيطر والمهيمن ، وتعلمت منها حضارة الاغريق ، ثم قامت الثانية وسقطت الاولى . وهذا ما تكرر مع قيام الحضارة الرومانية الشرقية ، فى مواجهة الحضارة الرومانية الغربية ، وكذلك مع قيام حضارة الفرس . وتكرر ذلك مع قيام الحضارة العربية الاسلامية ، آخر الامبراطوريات العظمى ، وأكبرها مكانا وزمانا ، ثم سقوطها وقيام الحضارة الغربية ، ثم ...؟ وهذا هو سؤال المستقبل ، الذى علينا أن نجيب عليه ، وندفع أنفسنا فى طريقه.

وتلك الحتمية ، هى جزء من النموذج البشرى فى الحياة ، أى الميلاد والنمو والموت ، على مستوى الفرد ، وعلى مستوى الشعوب والحضارات .

والعلم بالحتمية ليس علما غيبيا ، فهو لا يعنى أن حضارتنا ستقوم ، وكل ما علينا أن ننتظر. فالحتمية فى التاريخ البشرى ، كما فى العلوم الاجتماعية ، حتمية الاحتمال الغالب أو الاحتمال الممكن ، وليست حتمية الحدث الصائر قهرا . يعنى ذلك ، أن " الحتمية الاحتمالية " لتاريخ تطور الشعوب تعلمنا أن المستقبل يحمل فى طياته ، ضعف النموذج الحضارى الغربى ، وفرصة اكبر للنماذج الحضارية الاخرى كى تنهض ، بعضها على الاقل ، خاصة ونحن نتجه عبر تاريخ البشرية ، من القوى الاوحد ، وهى الحضارة الفرعونية ، الى القوى او الحضارة متعددة الاقطاب ، وقد يكون المستقبل متجها الى النموذج الدولى متعدد الحضارات .

واذا أخذنا بنظرية جمال حمدان (١) ، فإن العالم يتجه من خلال قيام وسقوط الدول ، وقيام وسقوط الحضارات ، الى نموذج متعدد القوى ، ويمكن ان نفرض أنه متعدد الحضارات ايضا أى ان العالم يتجه نحو نموذج تحكمه اكثر من حضارة متقدمة ، وأكثر من دولة قوية .

من خلال هذا الفهم ، تكون " الاحتمالية " ، هى الفرصة التاريخية ، لنا ولغيرنا ، فمن يريد أن يصعد الان ، عليه أن يحاول ويناضل ويكافح ، وقد يتحقق له التقدم اولا يتحقق ، وذلك رهنا بنضاله ونضال الاخرين ، ورهنا بما لديه من أسباب ودافع وحماس للنضال . فالحضارات المتقدمة ، هى دافع نحو الكفاح . ولكن أى شعب ليس لديه الدافع أو الرغبة ، فلن يتقدم بسبب حتمية غيبية ، فالنجاح هو ناتج الجهد ، وقوانين التطور الحضارى البشرى ، هى مقياس الفرص ، واللحظة المناسبة . وببساطة شديدة ، اذا كان لدينا الان دافع نحو النهضة ، ولدينا من

الاسباب ما يجعلنا أمة مكافحة ، فإن المشهد التاريخي يؤكد أن لدينا أيضا فرصة النجاح . أما اذا كنا نفتقد للدافع والاسباب الداخلية ، أو نفتقد الايمان بانفسنا ، فإن ما نراه الان فى المشهد التاريخي ، لن يكون الا فرصة ضائعة ، وبداية لعهد طويل من التأخر ، تضيع فيه كل أجيالنا . حتى تأتى أجيال أخرى عند منعطف تاريخي جديد .

تلك هى الملامح العامة ، من لحظة الصدمة مع النموذج المتقدم منذ قرنين من الزمان ، الى اللحظة الراهنة ، لحظة التهديد بالموت الحضارى ، أو التطهير الحضارى ، الذى قد يحدث ويستمر لدورة كاملة من حياة البشرية . والغرب الذى صدمنا بإنجازاته أولا ، واستعمرنا ثانيا ، وطال تاريخنا معه ، لا يريد ان نكون المنافس الحضارى له ، ولا يريد لنا او لغيرنا ، أن نكون بداية دورة جديدة يدفع ثمنها ، ليس بسببنا ولكن بسبب الضعف الداخلى لنموذجه الحضارى . ذلك الضعف الذى يعالجه الان بالهيمنة الحضارية العالمية ، والذى سيسقط فى النهاية ، عندما لا يتحقق للغرب تحديد حياته باستغلال البشرية ، وعندما تظهر نماذج أخرى ، تكشف عيوبه ، وتصدمه حضاريا . فإذا كانت اللحظة الراهنة ، هى لحظة حياة أو موت ، بالنسبة لنا ، فهى كذلك ايضا بالنسبة للغرب . والمستقبل يحمل ، فى النهاية ، مشهدا من مشاهد الصراع العنيف ، الذى يسبق تنظيم العالم من خلال نموذج ( أو نماذج ) حضارى مهيمن .

اذا كانت تلك هى ملامح الصورة ، وكانت اللحظة الراهنة ، هى لحظة الاختيار التاريخي ، فعلينا أن نستوعب درس الماضى من خلال رؤية جديدة ، رؤية تتعلق لا بالماضى ، ولا بالحاضر ، بل بالمستقبل . رؤية تجعلنا نعرف على وجه التحديد ما هى الآليات التى ستدفعنا للهزيمة الحضارية ، وتلك التى ستدفع الى النهضة الحضارية . وفيما يلى لقطات من تاريخنا السياسى ، نحاول من خلالها معرفة سبب خروجنا من دائرة الصدمة والاستعمار والتبعية ، ووصولنا الى مرحلة الرهان الأخير ، على ذاتنا الحضارية ، ومنها سنبحث عن الآليات التى نتصور أنها تخرجنا الى مستقبل جديد . وعندما يكون الحديث عن الماضى والحاضر ، فهو ليس تقيماً لهما ، بل استشرافا للمستقبل من خلالهما .



## فجر جديد .....

يظل اسم محمد علي والى مصر ، أحد العلامات الهامة فى التاريخ المصرى . وهو ايضا احد الوقفات التى يختلف المفسرون فى تحليلها . وككل تاريخ فإن التفسير يرتبط بالحاضر غالبا ، وبالمستقبل نادرا . فتفسير التاريخ ، ليس رهنا بالاسباب الموضوعية المجردة ، بل ان العلم ذاته ليس منهجا فى التفسير الموضوعى ، بقدر ما هو منهاج من التقنين الموضوعى للمعلومات والقرائن والادلة . وقد تعلمنا من الغرب الكثير حول تقنين المعلومات والبيانات ، ولكن اهملنا دلالة نظرية العلم عامة ، ونظريته فى اختيار الموضوع ، وفى تفسيره ايضا .

واذ كانت الطرائق الفنية فى استخلاص البيانات قد اصبحت جزءا من انجازات البشرية نتعلم منها ، فإن نظرية العلم تبقى شاهدا على التحيز الحضارى ، وشاهدا على التحيزات داخل الحضارة الواحدة . فلنطبق ذلك إذن ، على احد شواهد تاريخنا الحديث ، محمد علي .

فمع فجر الثورة المصرية ، فى ١٩٥٢ ، كانت نظرتنا لتاريخنا يحكمها محك الاستعمار ، وكان محمد علي جزءا من مراحل الاستعمار ، فهو البانى ، وليس مصريا . ومع الحرب الضروس ضد الناصرية ، منذ فترة حكم السادات ، أعادت المعارضة صورة محمد علي ، باعتبارها الامتداد التاريخى لحكم عبد الناصر وتجربته ، وأحيا نظام السادات تجربة حلفاء محمد علي ، خاصة اسماعيل ، باعتبارها نماذج هامة فى التحديث والتنمية والرخاء . ومع حكم حسنى مبارك ، قدم النظام كل الفترات دون تحيزات مسبقة ، وكان ذلك دليلا هاما على محاولة النظام نفسه للخروج من دائرة أى شعار ايديولوجى ، والاكتفاء بالمفهوم الواقعى النفعى المباشر ، تجاه حل المشاكل اليومية ، بغض النظر عن دلالة المشكلة ودلالة وتأثير الحلول المطروحة لها .

فهل يمكن أن ننظر الآن الى فترة حكم محمد علي من منظور المستقبل ، وعلى محك اصيل ، هو مدى احتمال انهيارنا أو نهضتنا فى المستقبل ؟ ان جاز لنا ذلك ، ومارسنا حقنا فى صناعة المستقبل ، أمكنا أن نرى تجربة محمد علي على معيار جديد . فقد أتى محمد علي ، بعد الصدمة الحضارية الاولى ، والتى تمثل الجذور التاريخية لاشكالياتنا الراهنة ، ومن هنا تأتى أهمية تجربته .

وفى البداية واذا كنا نرى المستقبل رهنا بنهضة الامة العربية ذات المحيط الاسلامى ، وتعامل مع " الامة " كوعاء اصيل للحضارة ذات القيم العليا الواحدة ، والتنوعيات الاجتماعية الثرية ، اذا كانت هذه هى رؤيتنا عن المستقبل ، فسرى أن محمد علي ، كان أحد ابناء

الحضارة العربية الاسلامية ، جاء من أحد فئاتها الأكثر حراكا وطموحا فى ذلك الوقت ، أى فى عصر الامبراطورية العثمانية ، ومارس تجربته فى أحد المواقع الهامة ، أى فى نطاق جغرافى فرعى من تلك الامة / الامبراطورية . وهو بهذا المعنى ليس استعمارا ، بل هو جزء من التجربة المصرية ، ومشهدا من مشاهد النضال العربى الاسلامى . ولا يجوز لنا ان نسقط المفاهيم القومية الحدودية ، للدولة القومية ، حسب المفاهيم الغربية الحديثة ، على ماضى تاريخنا . فنحن " امة " ، وهى نتاج " حضارة " ، والاخيرة تعبير عن تجانس القيم العليا المشتركة . والدولة القومية فى الغرب ، هى حدود تحكمها مصالح سياسية ، وترتيبات صراعية ، وهى قومية اقتصادية ، ونظام وضع لترتيب المصالح وترتيب الحدود الاقتصادية ، وتنظيم التعامل بين الدول الغربية . والدولة القومية فى الغرب ، الان ، تبحث عن بديل آخر ، يجدد وجودها ، وهو النظام الغربى العالمى ، المتجاوز للحدود ، دون أن يتجاوز المصالح ، من خلال تسويات سياسية .

بهذا تصبح تجربة محمد على ، مشهدا مصرية وعربيا واسلاميا . وقد دارت هذه التجربة حول محورين اساسيين ، الاول كان الغرب المتقدم بأطماعه الاستعمارية ، والثانى كان حالة الضعف والوهن التى اصابته الباب العالي ، واراد محمد على ، تحديد شباب الامبراطورية العثمانية ، ومواجهة القوى الغربية . وواجه فى النهاية ، النوايا الاستعمارية للغرب ، وتحاذل الانظمة المهزومة للامبراطورية التى ينتمى لها ، أى الانظمة التى تقدم التنازلات حتى تستمر ، لانها لا تملك بداخلها مقومات الاستمرار ، فتعتمد على المقايضة مع الاخر القوى (الغرب) . وما واجهه محمد على ، فى بداية معركته ، وفى نهايتها ، هو ما نواجهه الان ، نوايا الهيمنة من الغرب ، ونظم مستسلمة ، لانها نظم مهزومة من داخلها ، ولا تملك الدفع الذاتى للاستمرار . وفى هذه المعركة ، التى تتكرر عبر تاريخنا الحديث حتى اليوم ، واجه محمد على الموقف المحيط به ، من خلال فكرة تحقيق الندية على مستوى الكفاءة العسكرية الفنية . فلقد رأى محمد على ، أن اسباب الضعف والقوة ، تكمن فى اختلال ميزان القوة العسكرية . لذلك انشأ الدولة الحديثة ، من خلال البعثات ونقل المهارات الفنية (٢) ، وفى سياسته الداخليه ، ركز محمد على على توحيد الصف الداخلى ، من خلال التخلص من المعارضة . فكان محمد على دولة قوية ، فى مؤسساتها يحكم قبضته عليها ، ثم جيش قوى بقيادة ابراهيم باشا ، يكون امبراطورية مصرية ، هى فى النهاية تجتهد للامبراطورية العثمانية ، وربما يكون الاحتمال الاكبر اذا نجح

محمد على هو تكوين الامبراطورية مرة أخرى ، ونقل الخلافة الى مصر ، أو انتقال محمد على نفسه الى الأستانة .

إن المشكلة الحقيقية في تجربة محمد على ، أنه حاول تجديد شباب الامبراطورية ، اى تجديد شباب المؤسسة / الجيش ، ولكنه أغفل النقطة الاصلية في ذلك الظرف التاريخي ، وهى غياب الامة القوية المكافحة (٣) . وفي نفس الوقت ، فان عدوه الاساسى ، تمثل في مواجهة الحضارة القومية الغربية ، بكل حماسها وكفاحها ونهضتها ، وايضا في مواجهة نظام الباب العالى ، الذى تحول الى دولة حاكمة تعتمد على قوتها العسكرية والمؤسساتية ، والتى ظهرت فى اوضح صورها بعد مواجهة الحملات الصليبية ، تلك المواجهة التى اعلت من شأن الفئات التركية وغيرها ( الفئات الاسيوية والاوربية ) ، كأكثر فئات الامبراطورية الاسلامية حيوية وطموحا فى ذلك الوقت .

أما مشهد النهاية فى عام ١٨٤٠ ، فحمل معه تحالف الدول الغربية ضد تهديدات محمد على ، التى تؤثر على نجاح وسيادة الغرب ، وتوقف من طموحه الاستعماري . وحمل مشهد النهاية - ايضا - تواطئ الباب العالى ، ضد نظام محمد على ، الذى مثل بالنسبة له ، نظام عسكرى مؤسسى بديل له ، وأكثر قوة منه .

بالطبع ، علينا أن نحدد الموقع التاريخي للتجربة . فاولا ، كانت الأمة تمر بظروف التأخر ، ولم تستوعب مشكلتها ، ولا تجربة الغرب وصدامها معه . وثانيا ، لم تكن " الأمة " فى حالة غياب لشخصيتها الحضارية ، بالدرجة التى تجعل قضية الحضارة هى القضية الاوضح . ثالثا ، لم تحمل تجربة محمد على معها ، أى درجة من التغريب ، او أى محاولة لمسح الشخصية الوطنية . والتجربة - فى النهاية - افتقدت الزعامة والجماهيرية . بالنسبة لمحمد على ، الذى استخدم النظام والحكم المؤسسى فى قيادة الجماهير ، ولم يكن بالنسبة للمحيط المصرى أو العربى أو الاسلامى ، الزعيم الذى يقود جماهير الامة ، فتدافع عنه ، وتؤيد مسيرته (٤) . اما الجانب الاخر الهام ، فيمثل فى أن التجربة نفسها ، لم تكن تجربة اعادة انهاض أمة ، بقدر ما كانت تجربة اعادة انهاض جيش . ولم يكن المشهد التاريخي نفسه ، ملاءما لاكتشاف حقيقته المرض ، وهو الانهيار الداخلى فى هيكل الامة ، وترهلها ، ودخولها مراحل الشيخوخة . فلم تكن الدولة العثمانية هى " الرجل المريض " ، بل كانت الامة باسرها ، تعاني من امراض الشيخوخة ، بعد تاريخ طويل من النهضة والكفاح والانتصار .

وحتى تتجاوز الكثير من مفردات الجدل الثقافي العربى الراهن ، نؤكد اننا نحاول رؤية محمد على وتجربته من خلال امكانيه النهضة العربية فى المستقبل ، انها محاولة لرؤية تاريخ الصراع ، الذى سيهزمنا ، او ستتصير عليه ، فى المستقبل . وتلك التجربة ، تعلمنا أن الامة تنهض ، وتقيم الدولة والنظام السياسى ، وتستمر الدولة قوية مادامت الامة قوية ، وعندما تنهار " الامة " ، تنهار الدولة ، مهما استمر وجودها . وفى كل المراحل التالية ، سنجد التاريخ المصرى ، هو انهيار لنظام سياسى ، ثم نهضة شعبية مؤقتة ، تقييم لنظام سياسى آخر ، أو تكسب النظام قوة دفع . ولكن يستمر الصراع ، صراع البقاء دون مشهد نهائى للنهضة ، فالنهضة هى تعبير تاريخى حضارى عن الشعب / الامة . والنظام السياسى القوى المتقدم ، هو اما نظام ساعد على النهضة وقام معها وبها ، أو نظام يقوم على انتفاضات الشعب ، ولا يضيف لها ، بقدر ما يستنفذها فينهار . والمستقبل ، رهن بالنهضة ، لا بالانتفاضة ، والشعب المصرى مع امته العربية ، شهد فى سنوات الضعف ومواجهة الاستعمار والهيمنة ، العديد من الانتفاضات ، التى تؤكد حيويته ، كأمة وكحضارة وكمجتمع . ولكن وعبر العقود المتتالية ، تظل الانتفاضة ، محاولة غير كاملة للنهضة ، ويظل المرض ينخر فى هيكل الحضارة ، ويدمرها ، ولا تضيف له الانتفاضات ، الا دماء جديدة وإستمراراً مؤقتاً ، دون أن تعطى للحضارة هيكلًا جديدًا ، وثوبًا جديدًا ، أى دون ان تعطىها حياة جديدة وعصرًا جديدًا.

### **بين فجر وفجر**

من تجربة محمد على ، يتضح أهمية التفوق الفنى والمهارى ، وأن ذلك التفوق ليس جزءًا من لعبة الصراع والهيمنة بين الحضارات . فرغم أن تلك التجربة ، كانت مع بداية الصدام الحضارى ، الا ان استجابتها تشكل جوهرًا هامًا فى فكرة التفاعل الحضارى . فقبل محمد على ، والحملة الفرنسية على مصر ، شهد العالم العربى الهجوم الصليبي ، ولكن الحملات الصليبية ، لم تكن مواجهة بين غرب متقدم ، وعالم عربى متأخر ، بل كان التقدم من نصيب العرب ، وكانت الحملات الصليبية جزءًا هامًا من دوران القوة ، وتزايد السكان ، وتراكم ازمة العصور الوسطى فى الغرب . وجاءت هذه الحملات ، معبرة عن المرحلة العدوانية الغوغائية ، لحضارة ناشئة ، ستقوم بعد ذلك ، وتظل حاملة معها ، وفى جوهرها ، تكوينها العدوانى ، تجاه الآخر



الحضارى ، أى غير الغربى . والمقصود ، ليس ان العدوانية سمة للغرب ، وان كانت الشخصية الغربية أكثر عدوانية ، اذا ما قورنت بالشخصية العربية مثلا ، ولكن المقصود ان المكون الحضارى الغربى ، قام وفى جذوره فكرة الهيمنة والسيادة ، والاستغلال العنيف ، كجزء من مقومات فكرة النمو المادى اللانهائى . لذلك كانت تجربة محمد على ، مصحوبة بالانبهار الاول بالغرب ، ولكن ادوات الدعاية والتبشير بالحضارة الغربية ، لم تكن فاعلة فى ذلك الوقت، بل ان الغرب نفسه كان يرى فىنا شعوب يستعمرها ، ولا يرى فىنا شعوب يريدونها أن تسير على نمط حياته وقيمه كما يفعل الان .

لذلك توقف الانبهار فى ذلك الوقت على المعطيات الجديدة والامكانيات الناشئة للآله ، خاصة فى أسلحة الجيوش . وتعامل محمد على مع هذه المعطيات من خلال تكوينها فى ذلك الوقت . فأصبح تحديث الدولة المصرية ، أو الامارة المصرية ، ومن ثم الامبراطورية العثمانية ، رهنا بفهم واستيعاب فنون التصنيع والقتال .

وأتصور أن ذلك الامر مازال صحيحا حتى الان . فلن يتقدم أى شعب دون أن يستوعب ويفهم فنون الوسائل والطرائق التى تستعملها الشعوب المتقدمة عليه . ويصبح علينا فهم " منتجات " الغرب من مهارات ، واستيعابها ، ثم تطوير منتجات اخرى ، وابداع غيرها ، وهكذا . والمشكلة الحقيقية اليوم ، أن الغرب لا يقدم اختراعات ، جديدة ، ولكنه يقدم الآت هى فى الواقع ، آلات الحياة ، أى جملة الانجازات من شأنها " ميكنة " الحياة من خلال استخدام الآله فى كل جوانب الحياة ، وميكنة الحياة ايضا من خلال توحيد نمط الحياة فرضا، وتوحيد نمط الحياة ناتج مباشرة لاستخدام الآت تمثل فى حد ذاتها ، ومع تكاملها الداخلى ، النموذج الوحيد للحياة . بمعنى ايسر ، ان ما يقدمه الغرب الآن ، ليس منجزات علينا ان نتعلم تصنيعها، ولكنها منجزات مرتبطة بأسلوب الحياة اليومى فى الغرب ، وعلينا ان نتعلم فنونها ، ثم نستخدم ما يفيد نمط حياتنا ، أو نطور الجديد الذى يفيدنا .

وأعلم تماما ان هذا الكلام يبدو خياليا ، ولكن لسبب واحد ، اننا لانعرف ما يفيدنا وما يضرنا ، والاهم اننا لانعرف نمط حياتنا مقارنة بنمط حياة الآخرين ، وأصبحنا نتصور ، ومعنا الكثيرين من اصحاب القلم والفكر والعلم ، ان هناك نمط واحد عالمى للحياة . ولكن اذا قفزنا الى مثال ، ليس هنا موضعه ، أليس لنا أن نسأل عن علاقة المنتجات الغربية ، بالنزعة الفردية

المتطرفة ، والنزعة للتنافس الطاحن ، والميل لتزايد معدلات الجريمة ؟! وإذا كنا نقبل منجزات الغرب، ونقبل نمط الحياة العالمى الجديد ، فهل نقبل الفردية والصراع والجريمة ؟! الواضح اننا مازلنا نقبل اشياء ونرفض اشياء ، وكلها فى النهاية عناصر الفكرة الغربية . ومازلنا نتصور امكانية نقل جزء من الفكرة ، بالتقليد الاعمى ، دون ان تنتقل معها الاجزاء الباقية !

على ايه حال ، فإن السنوات التالية لتجربة محمد على ، تضيف لنا أبعاد جديدة فى الفهم. فمع انكسار محمد على فى عام ١٨٤٠ ، جاء خلفاءه وقد تعلموا الدرس جيدا ، ليس درس التاريخ من أجل المستقبل ، ولكن درس التاريخ من أجل الحاضر . تعلموا الدرس الذى يمكنهم من الاستمرار فى الحكم ، والبعد عن مواجهة القوى العظمى . فهو درس يفيد من يهتم بأحوال الحاضر ، دون أن يهتم بخسائر المستقبل . وهو حال نظمنا السياسية حتى الآن .

ومع خلفاء محمد على ، انحسرت السياسة فى تحديث الدولة على نمط التحديث الغربى ، والبعد عن مواجهة الدول الغربية ، وهى سياسة الانفتاح على الاعداء ، من خلال تهميش فكرة عدائهم ، تغييرا للمدركات ، دون أن يتغير الواقع . وإذا كان عهد عباس حلمى الاول . قد شهد تراجعا عن تحديث الدولة ، فإن عهد سعيد شهد بدايات أخرى ، ظهرت فى النهاية فى عهد اسماعيل ، وفى عهده شهدت مصر تجربة هامة فى تاريخها ، وتبقى دروسها حتى الآن تحتاج أن نعيد استيعابها(٥) .

ففى عهد الخديوى اسماعيل ، بدأت محاولات قوية نحو " التحديث " ، ولكن عناصر التحديث تغيرت ، ودلالته ايضا تغيرت . فمع التحديث ، كانت بدايات التغريب ، وفيها ظهور أشكال جديدة على الحضارة ، ووفود من الظواهر مختلفة نسبيا عما سبق . وإذا كان محمد على ، هو تجربة لاهياء الامبراطورية ، فان اسماعيل كان تجربة لاستقلال مصر عن الاستانة، اى استقلال اسرة محمد على بمصر . ومع ضعف ووهن النظام ، وفقدانه لاي ارادة سياسية حقيقية ، ترتبط بمصالح الآمة ، كان التوجه العام لعصر اسماعيل ، هو ادخال مظاهر المدنية الحديثة فى مصر . ومن عهده نلمع بدايات لتغريب مصر ، وهى هامة على حدوديتها . فادخال نموذج جديد على الحياه المصرية ، ظل قاصرا وفى حدود ، لها علاقة مباشرة بمؤسسة الحكم ، والطبقات الحاكمة . ولكن التجربة ، رغم ذلك ، تضيف بعدا هاما فى قصة الصراع. فمع التحديث فى الاساليب والوسائل ، دون ضابط ومعيار ، فتح الباب لدرجة من التغريب،

ومعه ايضا فتح الباب للديون ، والتدخل الاجنبى ، ثم الاستعمار بعد ذلك فى عهد الخديوى توفيق (١٨٨٢) .

والاهم من ذلك ، أن الخديوى اسماعيل فتح الباب للغرب للتدخل فى شئون مصر ، فكان من اعمال تدخلهم ، عزل اسماعيل وتعيين توفيق ، من خلال التأثير على الباب العالى . ولعل عناصر التجربة تكشف عن نفسها ، فمع اختلاف شكل المعطيات والمقدمات ، فإن احتلال مصر ، كان الهدف . وضعف الامة وتراجعها ، ورخاوة النظام السياسى فى مصر ، وفى الاستانة ، كان هو الطريق .

إن نماذج خلفاء محمد على ، تشير الى قسوة مصير الشعب نتيجة فقدده لامكانيات النهضة ، وفقد نظمه للارادة الوطنية ، وللمقاومة الذاتية . إن المقاومة الحقيقية ، والتي تحقق النهضة ، أو تحقق مرحلة ناهضة ، تلك المقاومة هى نتاج تفاعل عنصرين ، الشعب ومؤسساته ، وكلاهما معا يصنع الانجاز ، ايا كانت درجته . والمبادأة ، تأتى من الشعب ، او من مؤسساته (نظام الحكم) ، ولكن الشعب يتحرك عبر فترات زمنية متباعدة ، فالانتفاضات والثورات لا تحدث كل يوم . ودور المؤسسات تأتى أهميته من انها البناء المستمر الذى يسير أمور الحياة اليومية .

وهكذا فان تجربة محمد على ، اصبحت مشهدا مضيئا دون أن تكون بداية نهضة أو عصر كامل من التقدم ، كانت فى معيار التاريخ لحظة ، ولم تكن دورة حياة كاملة . كانت مشروع نظام حكم له إرادة ، ولم تكن إرادته تعبيرا عن حركة أمة ، فاسلم نفسه الى الهزيمة من خارجه وداخله . وجاء خلفاءه ، ليتحقق معهم الانهيار بكل ابعاده ، ويدخل الاستعمار الغربى مصر ، على اسنة الجيش الانجليزى ومع قسوة لحظة الانهيار ، وفى عهد الخديوى توفيق ، تصحو المؤسسة الحاكمة ، فى أقوى جناح لادارة الحكم ، الجيش ، وتأتى ثورة عرابى ، وكأنها مشهد احتجاج على تلك النهاية الحزنة لتجربة محمد على .

وتخرج ثورة عرابى من المؤسسة ، التى نالها الكثير من التحديث ، والقوة ، ولكنها فقدت أهم شروطها ، أن تكون معبرة عن الامة التى تدير شئونها . وتجنأ الثورة تعبيرا عن ضياع الارادة الوطنية ، ورغبة أحمد عرابى فى اعادة هذه الارادة مرة أخرى ، وتكون مصر للمصريين . بعد ان أصبحت أمة العرب شتاتا تصارع الغرب ، ولم يغب عن أحمد عرابى ، أن الصراع فى النهاية من أجل أمة ، وهى الامة الاسلامية . فقد ظلت مصر ، تعبر عن نفسها ، وعن الامة الاسلامية ، وكان تعبيرها يشمل العرب ، ويتجاوز حدود العربية (٦).

ثورة عرابي اذن ، هي علامة على معنى ومغذى النظام السياسى فى مصر ، فقوته من تعبيره عن الارادة الوطنية ، واستقلال الوطن والامة ، وهو يتجاوز حدوده ، بزعامه ترى استقلالها ، مع استقلال أمتها .

ولعلنا نتوقف عند تلك اللحظة ، لنشاهد رؤية مصر لنفسها ، فهى وطن له مكانته وتاريخه ، وهى حامي الديار الاسلامية ، الوطن المهموم بالآخرين ، والذي يمثل ويشارك فى حضارة اسلامية وأمة اسلامية واسعة الاطراف . وفى ذلك الوقت لم يعرف الفكر المصرى إشكاليات الاسلاميه والعربية ، ولم يدخل فى ثناياه إشكاليات الدينية والعلمانية . والاهم من ذلك ، أن كفاح احمد عرابي ، ومصطفى كامل ، وفكر محمد عبده الاستاذ الامام ، لم تكن من أجل دول ثيوقراطية ، او كهنوت دينى ، أو عنصرية دينية ، ولم تكن حركات تعصب أو فتنة . لقد كانت تعبيرا عن أمة تحاول أن تنهض ، ودوله فى قلب هذه الامة ، تحمل مسئوليتها التاريخية . وأن كانت تجارب أو مشاهد أو انتفاضات ، ولم تكن نهضة حقيقية ، ودورة حياة جديدة ، ولكنها جذور النهضة التى يجب أن تكون هدف كفاحنا ونضالنا من أجل المستقبل . أما اشكاليات اللحظة الراهنة ، فعلى ان نعرف ان كانت القضايا التى نحلها فندخل المستقبل ، أم انها القضايا التى نشتغل بها فلا يصبح لنا مستقبل !!

خرجت تجربة محمد على ، اذن ، تعبيرا عن محاولة من مؤسسة الحكم ، وانحصرت فى تحديث المؤسسة والجيش ، وجاءت ايضا تجربته من صفوة المجتمع التى اوصلته الى مقعد الحكم . فكانت لحظة لقاء بين المؤسسة والامة ، ضاعت عندما انفردت المؤسسة بالحكم ، ودون أن ينهض المجتمع ويصبح ركيزة النظام ، فقد المشروع جماهيره ، وتحالفت عليه القوى الاستعمارية . وجاءت ثورة عرابي ، تعبيرا عن المؤسسة ، والتفت حولها الجماهير ، فتوفر لها عناصر جيدة ، فى معيار الارادة الوطنية . ولكن الثورة جاءت وقد ترهل النظام ، وأصابته الرخاوة ، وتفاقت قدرة الدول الاستعمارية فى التدخل فى شئون مصر ، واقتربت من هدفها الرئيسى ، احتلال مصر . ويسلمنا التاريخ ، الذى يدور ، حتى وأن توقف نبضنا ، الى مشهد اخر .

واذا عبرنا المشاهد ، وتداعت اسماء الطهطاوى ، والافغانى ، ومحمد عبده ، لطهطاوى ، وكذلك مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، اتصور اننا سنرى لحظات من الكفاح والصراع ، تدور فى فلكها اسماء كثيرة ، ولحظات تاريخية متعددة . وكلها تدور حول اشكالية الاستقلال والتحديث ونهضة الامة . تلك كانت العناصر ، بعد ان تبلورت المشكلة ، واصبحت قضيه



تحتاج أن تخترق . فالاستقلال يدور حول تحرير الإرادة الوطنية ، والتحديث يدور حول أهمية الدخول فى عصر جديد ، والتعلم من الغرب ، وانهاض حضارتنا باجتهد جديد ، ونهضة الامة كانت علامة هامة ، على فكرة محورية ، ضاعت منا هذه الايام . وهى ان الدخول فى عصر جديد ، واستقلال الإرادة السياسية ، مرهون فى النهاية بوجود امة تعاني من التاخر ، وعليها ان تخرج من تخلفها للتقدم بنفسها ولنفسها وتعبيرا عن ذاتها .

ولكن تلك القضايا اسرتنا ، وباتت تجرفنا الى احد عناصرها دون العناصر الاخرى ، وصرنا فى النهاية ندخل فى معارك ، ويضيع منا الهدف الاساسى ، اى الحرب الحقيقية ، بمعناها الشامل ، الحرب لاضد " آخر " ، ولكن الحرب باعتبارها كفاح من اجل الحياة ذاتها ، ومن اجل شعوبنا .

من هنا جاءت ثورة ١٩١٩ ، وظهر فى سماء مصر اسم سعد زغلول زعيم الامة . ومثل كل انتفاضات القلب المصرى . تأتى لحظة عارمة ، ولكنها لا تحمل معها كل عناصر وأطراف المعركة ، ولا تحمل النهضة / الامة باعتبارها العتبة الاساسية لدخول المستقبل ، وتغير حالنا من الطرف الضعيف المستعبد فى النظام العالمى ، الى أحد أطراف النظام العالمى ، ليس قوة فقط ، بل اسهاما حضاريا ، لنا ولل البشرية ايضا .

وثورة ١٩١٩ ، جاءت تعبيرا عن فئة من صفوة الامة ، قادت الامة من أجل الاستقلال . وفى ذلك الوقت ، كانت المؤسسات الحاكمة ، التى تدير شئون البلاد مدنيا وعسكريا ، أضعف من ان يكون لها دور فى قيادة الإرادة الوطنية . فجاءت الإرادة من المجتمع ، أو الامة بمعناها الشامل.

وفى تاريخنا المصرى الحديث ، تظل ثورة ١٩ علامة هامة ، فهى تعبیر عن موقع الشعب من الاحداث . فالشعب المصرى ، عندما يفقد الامل ، والاهم من ذلك ، يفقد القدرة على ابقاء الحياة واستمرارها ، ويصل الى حد تصعب معه الحياه ، بل تستحيل ، عندئذ يتحول الى جماهير غاضبة تجول الشوارع وتذهل الجميع . أن ثورة ١٩ ، تعلمنا الكثير عما يقال عن سلبية الشعب المصرى ، وهى صفة وضعها المستشرقون والكتاب الغربيون عنا ، فصدقناها ، ونسينا التاريخ . وتجاهلنا تلك الانتفاضات التى شهدتها مصر منذ الحملة الفرنسية حتى الان ، بكل درجاتها المختلفة ، وهى معيار الشعوب والازمنة ، ليست سلبية ، ولكنها تعبیر عن طبيعة أمة تصمد لحد يفوق تصور الآخرين ، وتصمد فى وجه الظلم لحد يفوق تقبل الآخرين ، ولكنها تثور وتغضب

ايضا ، فتقلب كل الحسابات ، وتخرج عن كل التوقعات ، فهل امتنا ماتت ، كما يشرنا فلاسفة اليوم ، قادة فكر تبرير التبعية والتغريب وفكر الهزيمة والاستسلام ؟!

وتبقى ثورة ١٩١٩ ، باعتبارها نبض عنيف تجاه الاستعمار ، وأضافة حقيقة من أجل استمرار الوطن في الكفاح ، والبقاء . ولكن تلك اللحظة التاريخية ، تحتاج منا الى وقفة ، نسقط فيها المستقبل على الماضي . فالمشكلة الحقيقية في ثورة ١٩١٩ ، انها حملت القضية السياسية فقط ، وحملت معها صفوة وطنية تقود الجماهير من أجل الاستقلال ، لكنها لم تحمل مشروعا ثوريا يعالج الحالة التي وصلت اليها المؤسسة من رخاوة ، أو تعالج الحالة التي وصلت لها الامة من تأخر .

فثورة ١٩ حملت معها مشروعا، يعلمنا الكثير ، فقد حملت مع الاستقلال، مشروع النهضة، باعتبار النهضة مرادف للتحديث ، لقد كان الحلم الذي حملته اعناق الساسة والمفكرين والادباء ، والشعب معهم ، هو مزيج من الاستقلال عن الغرب ، والتحديث على نمط الغرب . هنا لنا وقفة ، فزمن الثورة شاهد على بداية العملية الكبرى لتغريب مصر ، وبداية انفتاح عقل مصر ، على منجزات الغرب ، بشرقه وغربه ، وشهدنا بعدها ، وصول النماذج الفكرية الغربية ، الاشتراكية والراسمالية . ودارت على ارض مصر ، تجربة حقيقية للتقدم على النمط الغربي . وكان لهذه التجربة وجهين . الاول : وجه ايجابي تمثل في قدرة غير عادية على استيعاب الحضارة الغربية ، وعلى مبارزتها ، والابداع على نهجها ، ومنافستها على أرضها . وهو وجه يؤكد على امكانيات الشعب المصري ، وعلى اننا لانتمى للماضي ، بل اننا امة يمكنها أن تجدد نفسها . أما الوجه الثاني ، فهو الدرس الذي يجب أن نتعلمه ، وهو فشل الازدواجية ، وهم الايجابي والسلبي في الحضارة الغربية .

فالحقيقة ، أن محاولة النصف الاول من هذا القرن ، هي محاولة الخروج من قبضة الغرب ، والتقدم بأسلوب الغرب . والدرس الهام ، هو ان التقدم بأسلوب الغرب لن يمكننا من الخروج من قبضة الغرب . فالفكرة الغربية تبدأ بالشعارات البراقة عن الليبرالية والديمقراطية ، ولكنها تنتهي بالخضوع للغرب ، لسبب بسيط ، فهذه الشعارات هي جزء من منظومة كاملة للحياة ، لانستطيع ان نجزئها ، بل علينا ان قبلناها ، أن نتبع المنظومة كلها ، وفي ذلك ندخل في فلك التنافس على المعيار الغربي ، أن تنافس الآخر في أقوى ما يملك من انجازات ، وأهم ما يحتويه جوهر حضارته . والتاريخ يؤكد لنا ، أن أحدا لم يفعل ذلك ونجح ، فلا الحضارة الفرعونية لها

مثيل عند غير المصريين ، ولا الاغريقية ، أو العربية الاسلامية ، ولن تكون الحضارة الغربية المعاصرة هي الاستثناء .

ان كل حضارة عظمى فى تاريخ البشرية ، تعلمت من الحضارات السابقة عليها ، ثم أنجزت إنجازاً جديداً ، يعبر عنها وعن أصولها ، ويستفيد من الحضارات السابقة عليها ، ولكنه لايعبر عن تلك الحضارات . وفرق كبير بين مرحلة التقليد والتعلم ، ومرحلة النهضة . ولننظر لبعض شواهد التاريخ . فالتماثيل الفرعونية فى اليونان ، فيما قبل الحضارة الاغريقية ، ليست الا مسخ مقلد لايرقى لمستوى الاصل ، وعندما قامت الحضارة اليونانية ، جاءت بنماذج فنية لها تميزها الخاص . ثم قلدنا هذه النماذج فى مصر ، ولم تأتى الا تقليدا يغيير الاصل ، وما جاء مطابقا للاصل ومضيفا له ، كان فى حدود المناطق التى تركزت فيها الجاليات الوافدة مع الاستعمار اليونانى ومن بعده الرومانى ، ولم تكن فنا منتشر بين المصريين ، أعظم صناعى الفن . ثم نهض الفن فى مصر بعد ذلك ، وكان عربيا واسلاميا ، فقد اندجت الذات المصرية والذات العربية الاسلامية ، كانهما من بوتقة حضارية واحدة ، ولهم أصول مشتركة ، والاهم ان قيمهم مشتركة (٧) .

واذا عدنا لثورة ١٩٩٠ ، سنلاحظ انها ثورة شعب وصفوة ، ومشروع لنهضة شعب وصفوة . كان اهم ما يميزها - اذن - انها حركة عمت البلاد المصرية ، وكان اهم ما يعيقها ، انها لم تجع بمضمون جديد يحقق الاستقلال حضاريا ، فظل الغرب ملازما للفكر وظل الاستقلال منقوصا .

## يوليو الحائر

**عندما نسقط المستقبل على الماضى** ، نحاول ان نعيد اكتشاف تاريخنا برؤية جديدة ، توصل ما انقطع منه ، وتستمد جذور تاريخية لتصور مستقبلى ، نتوقع ان يكون صالحا لصناعة مستقبل أفضل . والتعامل مع الماضى يزداد صعوبة كلما اقتربنا تجاه الحاضر . والسبب فى ذلك ، ليس لان الماضى القريب لم يدخل تماما فى ذمة التاريخ ، وليس لان وثائقه لم تكتشف بعد كاملة ، ولا بسبب ارتباط البعض من المعاصرين الآن بهذه الفترات القريسة ، وان كانت كلها اسباب معقولة ، الا ان السبب يبدو لنا ، ونحن بصدد هموم المستقبل ، ان الاقتراب من الحاضر يحمل معه هما كبيرا ، انه اقتراب من الازمة نفسها .

فإذا كان المستقبل هو الهدف ، والماضي هو مفتاح تحقيق المستقبل ، فالحاضر هو العقبة ، وهو اللحظة التي تفصل الماضي عن المستقبل ، وتعيق الرؤية ، وتفقدنا البصيرة ، وهو حالة من يعاني من أزمة ، وبعبير أدنى ، من يعاني من التخلف . ففي حالة التخلف ، نكون امام تراث نحمله ، لكنه ينتمى للماضي ، ولم يتجدد منذ زمن بعيد ، وهو تراث ولكنه يتهمش في حياتنا ، فيصبح جوهر حضارتنا على هامش حياتنا ، وفي التخلف ايضا ، اننا ومنذ زمن بعيد لانبدع ، ولا نضيف لحضارة البشر ، ولا نضيف - بالطبع - لحضارتنا . وفيه ايضا ، أى التخلف ، أن هناك من الاسباب الداخلية والخارجية ، ما جعلنا " نتخلف " ، أى نترك تراثنا وراءنا ، التخلف هو جملة أسباب تعيق النمو الطبيعي للمجتمع ، ومادامت تعيقة ، ومازالت تعيقة ، فهي اسباب حاضرة ، وهي في الحاضر ، والحاضر منها . والاقتراب من الحاضر ، هو الاقتراب من الخطر ، لان محاولة ازالة اسباب التخلف ، تعنى ازالة فئات أو رموز ، وهي ازالة مصالح وترتيبات ، كما انها سباحة ضد التيار ، وتعدي على من يقود التيار ، ولذلك فهي نوع من الجنون بمقياس الحاضر ، وهي محاولة بمقياس المستقبل . ولكن ، الاقتراب من الحاضر ضرورة ، ففي النهاية ، لن تكون المعركة الا معركة مع " الحاضر " .

ولن نصل الى الحاضر الا من بوابة " يوليو " . والحقيقة أن تناول ثورة يوليو ١٩٥٢ من منظور اشكالية التأخر / النهضة ، ليس امرا معقدا . ولكن موقفنا الحاضر ، السياسى والثقافى والفكرى ، بل والعلمى ، من ثورة ٢٣ يوليو ، موقف على قدر غرابته ، فهو من أول ملامح أزمتنا وتفككتنا ، ودليل جديد على أننا ننهار فعلا ، وقد نموت حضاريا ، مادامت عقولنا تموت تدريجيا .

لعلى اتجاسر وأزعم ، أن معظم التيارات المعاصرة فى الساحة المصرية لها علاقة ما بنظام عبد الناصر . وهي فى التحليل الاخير ، ذات جذور مع هذه الفترة ، جذور تحكمها علاقة القبول والرفض ، وجذور أخرى بسبب طبيعة نظام عبد الناصر نفسه ، فهو محاولة ذات درجة عالية من الشمول ، أثرت على مختلف جوانب حياتنا .

ووقائع العهد الناصرى تحفل بالعديد من المحاولات والتجارب والاجراءات . وفيها من التنبؤات السياسية ، ما يجعل رفضها بالكامل امرا غير جائز على اطلاقه ، وقبولها بالكامل امرا غير جائز ايضا . واتصور ان تقيمتها ، وهي واحدة من أهم تجاربنا المصرية ، هو الموقف الوحيد الجائز . فالتجربة لها علاقة هامة بمستقبلنا ، وفيها ايضا أهم عناصر أى تجربة يمكن أن نحدثها فى



المستقبل . وهى ايضا الاساس المعاصر لكل احوالنا ، والاهم من ذلك ، انها النظام الذى لم يعى أغلبية سكان مصر نظام قبله ، فالأغلبية فى مصر لم تشهد الا عبد الناصر ثم خلفاؤه .

ويبدو أن هذه الاسباب ، التى أتصور انها تجعل تقييم التجربة عمل هام وضرورى ، هى التى تجعل التقييم مستحيلا . ويبدو أن ارتباط عبد الناصر بالحاضر الذى نعيشه الآن ، هو الذى جعلنا نسقط كل أزمنا المعاصرة على فترة عبد الناصر ، ورؤيتنا له .

ولكن القضية لاتقف عند هذا الحد ، ففى فترة حكم عبد الناصر ، شهد تاريخنا مرحلة التنمية الرأسمالية فى الخمسينات (٩) التى يقول البعض اننا عدنا لها الآن ، (د. يوسف بطرس غالى ) ، كما شهد مرحلة التنمية الاشتراكية ، التى نلعبها الآن ، وشهد كذلك جذور مرحلة السلام ، فى سياسات ما بعد ٦٧ (١٠) ، والتى نمجدها الآن . وعهد عبد الناصر شهد وقائع الاستقلال (١٩٥٤) والانتصار السياسى (١٩٥٦) والهزيمة العسكرية (١٩٦٧) . انه عهد يحمل فى طياته كل معاركنا وأمالنا ، ويحمل ايضا هزائمنا وآلامنا .

والامر يبدو أكثر تعقيدا ، عندما نتحدث عن الزعيم ونظامه ، فاذا كنا نتحدث عن الزعيم ، عبد الناصر فامر يختلف اذا انتقلنا الى نظامه ومؤسساته ، دولة المخابرات مجازا . واذا راينا فى ذلك العهد عبد الناصر ، فان الصورة ستتغير اذا كنا لانرى الا عبد الحكيم عامر وصلاح نصر . تلك هى اشكالية عهد عبد الناصر ، التى تحتاج منا الى تجاوز احساسنا بالحاضر ، حتى نستطيع ان نرى ملامح التجربة . وكذلك تحتاج منا أن نفرق بين جوانب التجربة ، ونميز بين عناصرها . فقد كان ذلك العهد مليئا بالمتغيرات المتشابكة التى أثرت على حياة مصر ، والامة العربية .

فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قامت حركة الجيش ، وبدأت كاتقلاب عسكرى على حكم الملك فاروق . من هنا خرجت الحركة من المؤسسة (١١) ، لامن الشعب ، وجاءت تعبيرا عن ثمر الجناح العسكرى لمؤسسة ادارة الحكم ، ضد ما وصلت له اوضاع مصر ، وكذلك لما وصلت له اوضاع المؤسسة نفسها . وكانت مبادئ الحركة المعلنة ، تركيز على قيام دولة مستقلة حديثة .

واذاعدنا لثورة ١٩١٩ ، سنجد الاجابة على كثير من الاسئلة . فحركة المجتمع المصرى فى ثورة ١٩ ، استطاعت تحقيق القدر الكبير من الحراك داخل المجتمع المصرى . ومن مفردات

ثورة ١٩ ، الاستقلال ، ومن نتائجها على المناخ المصرى ، كان الانفتاح والتحديث فى مجالات متنوعة من الحياة ، من اهمها المجال الفكرى والثقافى والفنى .

وحركة الجيش فى ٥٢ جاءت لتبنى استكمال عملية الاستقلال ، لان ماتم منها ، لم يجعل الاستقلال حقيقة . وتبنت ايضا التحديث ، او انشاء الدولة الحديثة ، وهو من انجازات جيل ثورة ١٩ ، بمختلف تياراته . وازافت لذلك عنصر شديد الاهمية ، حول اصلاح احوال المجتمع ومحاربة الفساد ، لانها حركة جاءت من خلال المؤسسة وحملت معها همومها ، أى حملت الاحساس الداخلى بمدى تفكك المؤسسة الحاكمة ، وعبرت عن انزعاج الجيش ، باعتباره رمز القوة فى الدولة ، من حالات ضعف الدولة .

تلك كانت معطيات حركة الجيش فى يوليو ٥٢ ، وهى معطيات هامة ، ولها دلالتها . فالتمرد الخارج من داخل مؤسسة الحكم ، وليس من النخبة السياسية ، يأتى فى الواقع من الجهاز الادارى ، وغالبا من جناحه العسكرى ، حاملا هموم المؤسسة بوصفها تعبيرا عن المجتمع (١٢). وعندما تكون الحركة عسكرية حصرا ، فإنها تمثل انتفاضة المؤسسة / الرمز ، ضد أحوالها المتردية ، ومع احلام الشعب تجاهها .

لهذا تحولت الحركة الى ثورة ، وقام الشعب معها ، لانها حملت بعض ما يدور بداخله . وكانت أهم عناصر أزمة المجتمع ، تدور حول الاستقلال وفساد نظام الحكم ، ووصول الدولة / المؤسسة الى حالة لاتصلح فيها أن تكون رمزا لشعب . وفى هذه الفترة التاريخية كان الاستقلال هو الشعار ، والدولة القوية المستقلة هى الهدف . أما عناصر التكوين الحضارى ، وعناصر الفكر الاجتماعى السياسى ، فقد أصبحت نتاج للتفاعل والاحتكاك مع الحضارة الغربية .

هنا يمكننا ان نلاحظ محورية مفهوم " التحديث " كعنصر يربط مشاهد القرن العشرين ، ويربط بين ثورة ١٩١٩ ، وثورة ١٩٥٢ . ويبقى الاختلاف بينهما فى قضية الاستقلال . فثورة ١٩١٩ كانت بقيادة عناصر من النخبة السياسية الحاكمة ، لذلك كان مشروعها عن الاستقلال يركز على قضية الاستقلال عن اجلترا . اما ثورة ٥٢ ، فقد جاءت من العناصر الصغرى داخل جهاز الدولة ، من صغار ضباط الجيش ، ولذلك ارتبط الاستقلال - فى فترة زمنية وجيزة - بتغيير كل النظام السياسى الذى عاصر الاحتلال ، والذى أصبح فى فكر الثوار جزءا لا يتجزء من الاستعمار نفسه . وفى الثورات دائما تكون البداية بتعميمات شديدة ، ودائما ما تكون للثورة ضحاياها ، وثورة ٥٢ كانت ثورة بالمعنى الشامل للتغيير الجذرى .

في خضم هذا النضال الوطني ، كان الفكر السياسي الاجتماعي ، هو نقطة الضعف الاساسية . وفي مواجهة احتلال ، هو أمر واقع ، وضرر حال ، لم يكن لقضية الفكر السياسي الاجتماعي ، دورها كأحد أهم متغيرات الاستقلال والنهضة . وما نعنيه بالفكر الاجتماعي والسياسي ، هي جملة الافكار والمبادئ ، التي تنظم المجتمع والدولة ، والعلاقة بينهما . كما تنظم توجه الأمة بأسرها في المستقبل ، من خلال سياسات الدولة ، وتوجهات الشعب .

وقبل الثورة كان الفكر المصاحب للارادة الوطنية هو مزيج من الافكار التحديثية ، الاشتراكية والرأسمالية ، بجانب الاستقلال كفكرة جوهرية . كذلك حمل هذا الفكر معه مشاريع الدولة الاسلامية ، والجامعة الاسلامية ، والافكار العروبية ، أى مجموعة الافكار التي ميزتها وجود بعد للخصوصية الحضارية ، اختلف من تيار لآخر . ومن ذلك الفكر تشكل عهد عبد الناصر .

ان عناصر النظام الناصري الاساسية ، تدور حول جوهر هو الاستقلال . وعند عبد الناصر، كان الاستقلال يعنى جلاء الانجليز ثم أصبح يعنى استقلال القرار السياسي . نعم لقد ظل شعار عهد عبد الناصر " الاستقلال التام او الموت الزؤام " . واصبح للناصرية جوهرها من هذه الفكرة، ان الاستقلال الكامل للارادة الوطنية ، واستقلال المؤسسة الحاكمة ، عن الضغوط الخارجية ، هو معركة التحرير ، وهو معركة التنمية .

ومن هنا نأتى الى العنصر الثانى فى النظام الناصري ، وهو " التنمية " و" التحديث " . وبدون تحيزات انفعالية ، فإن التنمية فى مفهوم عبد الناصر وممارسته ، كانت التنمية المستقلة ، قبل أن تكون التنمية الاشتراكية أو التنمية الرأسمالية . وقبل ١٩٦٠ وبعد ١٩٦٧ ، وكانت التنمية رأسمالية أولا ، ثم بعد الهزيمة مالت لان تكون كذلك . وبين التاريخين ، كانت التنمية اشتراكية .

ونتصور أن معيار عبد الناصر فى تحديد اختياراته التاريخية ، ارتبط اساسا ، بمحكين ، محك الممكن داخليا ، ومحك المتاح خارجيا ، وظل تحديث الدولة هدف له . فالتجربة الرأسمالية فى الخمسينات ، أصدمت أولا بفقدان الثقة بين نظام عبد الناصر ، والرأسمالية الوطنية . وكذلك أصدمت بإستفحال الرأسمالية التابعة ، أى القواعد الرأسمالية المحلية المرتبطة بالمصالح الغربية مباشرة (١٤) . وثانيا : فإن التنمية الرأسمالية دفعت نظام عبد الناصر الى التعامل مع الغرب الرأسمالى ، خاصة امريكا . والتي تصور فيها الثوار ، انها قد تكون مسانده لحركات التحرر من

الاستعمار الغربى القديم ، انجلترا . ولكن سرعان ما اكتشف النظام ان امريكا هى وريثة الاستعمار الغربى وحاملة لواءه .

وجاءت الاشتراكية ، بهدف التنمية أولا ، والاستقلال ثانيا ، مع مساندة المعسكر الشيوعى لحركات التحرر فى العالم الثالث . ولعلنا تعاملنا مع المعسكر الشيوعى والاشتراكى ، ومع فكره ، يشوبه الكثير من التداخل .

ففى فترات بعينها تصورنا ان الشيوعية والاشتراكية هى الفكر السياسى والاجتماعى للعالم الثالث . ولم نتعامل معها باعتبارها إستعماراً أو تغريباً أو وافداً دخلياً . وحتى مفكرى الشيوعية والاشتراكية فى مصر ، هم أكثر من وقف فى وجه " الغرب " ، ولهم فضل كبير ، فى قدرتهم على تحرير فكرة " الاستقلال " واكتشاف كل أشكال الاستعمار ، ومقاومة كل محاولات الغزو، وظل صوتهم عالياً ضد الاستعمار العسكرى ، ثم الاقتصادى ، ثم الثقافى . ولكن يبقى السؤال الملح ، اليس الشيوعية غربية ايضاً ؟ اما انها أفضل بديل غربى مناسب لنا ؟ أم انها أمية وليست غربية ؟

## وقفه على الشيوعية

**والاجابة على هذه التساؤلات ، تدخل فى خضم جدل فكرى لايتتهى ، وتحتاج الى أسلحة فكرية شديدة الأثر . لانها محاولة للحوار مع مفكرى الشيوعية والاشتراكية . وهم ولعقود طويلة طليعة مثقفى الوطن والامة . ولكن أتصور أن سقوط الشيوعية ، وهو ليس سقوطاً للفكر بل للنظم ، اتاح لنا الخروج من دائرة الحرب الباردة ، ومن دائرة ثنائية ادارة العالم .**

فالحضارة الغربية . فيما نرى ، ثنائية القطبية ، وهى تتراوح بين الحرية السياسية (الرأسمالية) والحرية الاقتصادية ( الشيوعية ) ، أى بين حرية الفرد كهدف ، وبين العدالة الاجتماعية كهدف . وهى فى كل الحالات تتجه نحو تحقيق غاية واحدة ، عمادها أن " التقدم " التكنولوجى / المادى / التصنيعى / الآلى هو وسيلة الانسان ليوظف الطبيعة فى خدمته ، حتى يحقق السعادة والرفاهية لنفسه . والغرب الشيوعى ، ونموذجه الاتحاد السوفيتى ، رأى أن ذلك



لن يتحقق الا بالعدالة الاجتماعية ، وأن " التقدم " بدون عدالة اجتماعية ، ليس الا استغلالا واستعمارا . اما الغرب الرأسمالى ، ونموذجة الولايات المتحدة الامريكية ، فرأى ان ذلك لن يتحقق الا من خلال اطلاق حرية الفرد ، وبالتالي آليات السوق ، ، وان " التقدم " - تبعا لذلك - لا يتحقق بدون ضحايا ، وان عدد الضحايا يقل ، ومستوى الرفاهية سيزيد عبر الزمن، من هنا أصبح الاستغلال ( الداخلى ) والاستعمار ( الخارجى ) مراحل فى طريق التنمية الاقتصادية .

وقامت الشيوعية حول ايدىولوجية محددة ، تؤكد العدالة الاجتماعية ، واثمة العالم ، وامكانية تحقيق " التقدم " على مستوى العالم من خلال حكم الطبقة العاملة لنفسها . وتسود الشيوعية ، ويسود التقدم ، ودون تفريط فى العدالة الاجتماعية . اما الرأسمالية فقامت حول استراتيجية للحياة والعمل ، دون ايدىولوجية تمثل نموذج فكرى مثالى ، لان اللجوء للايدىولوجية مع الاعتراف بوجود استغلال عمل متعارض ، والافضل ان يتعد البشر عن الفكر المثالى ويتقبلوا الواقع ، من خلال نمط حياة يمارسونه ، ويعانون بسببه ، ويبقى معهم دائما أمل التقدم والرفاهية، وحلم الرخاء ؛ وبذلك تسود الرأسمالية ويتحقق التقدم تدريجيا ، وتصبح نظام عالمى اسمى يحكم العالم أجمع . ولذلك سنجد ان الرأسمالية ، قامت تاريخيا على استغلال العمال ، وذلك فى اوربا ، وفيها ظهر الفكر الماركسى ، مؤسس الشيوعية والاشتراكية ، كرد فعل على استغلال الطبقة العاملة ، وفى محاولة لتحقيق نموذج التقدم الآلى ، وهو جوهر الحضارة الغربية ، بدون استغلال وضحايا . ولكن الرأسمالية الغربية اتجهت بعد ذلك الى استغلال الدول الاخرى من خلال الاستعمار ، ونهب الثروات الطبيعية ، والتهجير السكانى ، ونظام العبيد . وفى المراحل المتتالية ، نجح تغير دائرة الاستغلال وخروجها الى الدول الاضعف ، وتغير درجة الاستغلال الى درجات أقل . وهكذا تحولت الرأسمالية من الاستعمار العسكرى الى التبعية الاقتصادية . وهى اليوم تريد تحقيق التبعية الحضارية الكاملة ، أى التطهير الحضارى للعالم ، حتى يصير على نفس النموذج الرأسمالى الغربى ، ويتاح له أن يتقدم ويسهم فى السوق العالمى ، دون أن يكون عدوا محتملاً . والعدو اليوم ، أو بمعنى أدق غدا ، ليس عدوا عسكريا ، ولا اقتصاديا ، ولكنه العدو الحضارى ، الذى يمكن ان يحقق القوة والتطور والنمو ، دون ان يحقق النمط الغربى ، أى أن العدو هو الذى سيحاول نشر قيمه ونمط حياته ، فيهدم فكرة " التقدم / الرفاهية والسعادة " ، باعتبارها الجوهر الحقيقى للفكر الغربى ، الشيوعى والرأسمالى .

وببساطة ، نتصور انه مسموح لدول العالم الثالث ان تصبح من النمر ، مثل دول جنوب شرق اسيا ، ولكن بشروط ، الاول : ان تتبع القواعد الاقتصادية المعمول بها فى الغرب الرأسمالى ، وتتبع قوانين التجارة الحرة ( الجات ) . ثانيا : ان تتوقف عن ممارسة لعبة لحرب الاقتصادية ، وترضى بوجود حد أعلى للقوة لاقصادية ، يفترض فيه ان تظل مركز القوة الاقتصادية تبدا من امريكا ثم اوربا ثم اليابان وغيرها ، دون ان تحاول أى قوة الانقاص من مركز امريكا ، أو تغيير سلم القوة الاقتصادية النسبى . ثالثا : وهو اهم الشروط ان لا تتحول اى دولة ، خاصة اذا كانت من فئة النمر ، عن النمط الغربى للحياة ، وبمعنى أدق ان لا تحاول اى دولة تحويل المنجز الغربى الى مجرد قاعدة تعلمت منها وتفوقت فيها ، ثم تستخدمها لنشر نموذج اخر ، ففى ذلك بداية نهاية الغرب .

اما الحلم الشيوعى الاعمى ، فقد واجه الهزيمة ، وسقطت قلاعها ، وانفرد الغرب الرأسمالى بالساحة ، وبدأ على الفور فى نشر رسالته وهدفه ساخرا ، واستعرض عضلاته الامريكية فى حرب الخليج ، فاضاف لنفسه ابهار القوة ، ثم فى الصومال ، فكان من نصيبه عار القوة . واصبح الرهان الغربى الرأسمالى ، متوقفا على عدة عناصر ، منها ان تظل امريكا قوة تخيف الآخرين ، وتستمر امريكا واوربا فى حسم خلافاتهما بالتسوية دون فتح المجال للصراع ، وان تظل " النمر " أليفة ويمكن ترويضها بالديمقراطية وحقوق الانسان وحق التدخل فى الشؤون الداخلية ومن خلال الامم المتحدة ، وكذلك من خلال لعبة الاقتصاد ، وهى فى النهاية خيوط تحركها الدول والبنوك المركزية ( سعر الصرف ، الفائدة ، شروط التجارة ، التضخم ، ... الخ ) وسقوط النظم الشيوعية ، فسر بانه فشل ، وانه دليل على خطأ الفكر ، ودليل ايضا على فشل الناصرية ، وانه - وهذا هو الاهم - دليل على ان الرشد العقلى يدفعنا للدخول فى نادى الرأسمالية العالمى طواعية . ولكن اتصور ان سقوط الشيوعية له معنى آخر ، فهو مؤشر لسقوط الفكرة الغربية ، وترهل امريكا بوصفها النموذج المعاكس للاستبداد الشيوعى ، وظهور قوة اوربا ، لانها نموذج ثنائى داخلى ، توازن بين الرأسمالية والاشتراكية داخل الدولة الواحدة ، وهو ظهور قد يستمر ، أو قد يكون نسبيا .

والاهم أن سقوط الشيوعية ، يعنى ان اتباع التحديث على النمط الغربى لا يمكن ان يتحقق مع استمرار فكرة " الاستقلال " ، وأن التبعية السياسية قد أصبحت جزءا من التحديث

والتنمية، وعلينا ان نقبل الفكرة كاملة ، ولا نتصور انه يمكن فصل جزء منها عن الآخر ، علينا ان نقرأ التاريخ فلا نعيد تجاربه .

## عبد الناصر ..... مرة أخرى

**كانت تلك** الوقفة ضرورية حتى نستطيع رؤية نظام عبد الناصر . فقد كان الاستقلال شاغله ، وقد امكنه تحقيق ذلك من خلال التحالف مع تيار المعارضة الغربى ، أى الشيوعية - ان صح التعبير - فى مواجهة التيار الغربى الرأسمالى . والشيوعية كانت المعارضة ، ولم تكن التيار الحاكم ، وبالتالي كان سقوطها اولاً ، لان نموذج التقدم الآلى ، كفكرة لرفاهية البشر ، لم يكن ليعيش مع العدالة الاجتماعية ، دون ان يكون له سقف ، اى حدوداً للتقدم والآلية والتصنيع والرفاهية ، وكل عناصره الاخرى .

واذا كان التطلع الى الرفاهية والحرية الفردية من شعوب الدول الشيوعية ، احد عوامل انهيار الشيوعية ، فإن سباق التسلح كان من العوامل الأهم ، التى استخدمتها الرأسمالية لهزيمة معارضها الغربى الشيوعى . فسباق التسلح ، ليس الا جوهر الفكر الغربى ، فمضمونه يدور حول كيفية صناعة " آله " أى " سلاح " ، يتيح السيطرة على العالم . ولكن كى تنتج هذا السلاح ، وتحقيق اعلى رفاهية للشعب ، وايضا تحقق عدالة اجتماعية ، ولا تستغل الشعوب الاخرى ، كى تحقق ذلك ، عليك ان تحلم بالمستحيل ، الذى نادى به كارل ماركس ، فهو نوع من " المدينة الفاضلة " . ولانه غير ممكن ، فقد سقط ، لان الدول الرأسمالية ، ذات النزعة الاستغلالية ، ظلت هى المحدد لدرجة سباق التسلح ودرجة الرفاهية .

وكانت هذه هى اشكالية عبد الناصر نفسه ، فتحقيق الاشتراكية والتحديث معا ، هو تحقيق للتقدم مع الاستقلال السياسى عن الغرب ، وهو ايضا تحقيق للتقدم فى سباق لا يمكن اللحاق به ، بدون استغلال ، أى لا يمكن اللحاق به ، مع استمرار العدالة الاجتماعية . وكان هذا هو خطأ التجربة ، فالتنمية الاشتراكية فى الستينات لم تحقق التقدم الكافى مع الدخول فى سباق التسلح . وجاءت هزيمة ١٩٦٧ ، معبرة عن رفض الغرب لنموذج التحديث والاستقلال السياسى . واصبحت الهزيمة علامة هامة تؤكد أى على مصر ان تدخل سباقا فى التسلح والمعارك . وكان الاختيار هنا ، بين التنمية والاستقلال .

واختار عبد الناصر الاستقلال أولا ، والتنمية ثانيا ، فكانت بذور التحول الرأسمالى ، وفتح باب الهجرة للعمالة المصرية ، وانشاء السوق الموازية للعمليات الحرة ، ولكنها كانت بدايات محددة ، ولكن مشروع التنمية الاشتراكية نفسه كان ثمن الهزيمة .

من هنا يمكن تصور التجربة الناصرية . فنقطة ضعفها الرئيسية كانت فى مفهوم التحديث والتنمية ، لان ذلك المفهوم أسلم المجتمع المصرى لدرجة أعلى من التغريب فى آلياته ومؤسساته ونظمه . وأصبح التحول عن نماذج التراث ونظمه سريعا ، فتم تحديث الدولة ، وظل الرهان على الاستقلال ، مرتبطا بالحرب الباردة ، وثنائية العالم ، وظل رهانا على من هو الاقوى . ولعل موقف الاتحاد السوفيتى من القضية الفلسطينية ، ورغم مناصرته للحق العربى ، الا انه ظل متحفظا تجاه القوة العربية ، وتجاه دعم العرب للقضاء على دولة اسرائيل ، لعل ذلك الموقف يوضح ، ان الرهان السوفيتى - الأمريكى ، كان على اسلوب تحقيق النموذج الغربى ، وتحقيق قيادة العالم ، ولم يكن ابدا على الفكرة الغربية نفسها التى هى الوعاء الحضارى الذى نبع منه كلاهما .

وكى نفهم أكثر آليات التنمية على النمط الغربى ، علينا ان ننظر الى قضية الزراعة ، فقد نادى عبد الناصر باننا دولة صناعية ، ولن نكون دولة زراعية . والمعنى اننا لسنا دولة تحتل ، ولكن دولة تستقل وتنمو . وفى ذلك الوقت لم يكن الغرب نفسه ، ينادى بتصنيع العالم ، كما ينادى الان . ولكن اتباع نمط التنمية الغربى ، ادى بنا الى حالة تدهور زراعى / غذائى ، كان فى حد ذاته مفتاحا لمداخلة احلام انور السادات ، وبدأ العد التنازلى لمقايضة كل شىء بالمال . وهذه النقطة دليل آخر ، على فهمنا الظاهرى للتقدم الغربى . فكل الدول الغربية ، اقامت صناعة متقدمة ، واحتفظت بقاعدة زراعية قوية تحافظ عليها بقوانين حمائية قوية . وليس أدل على ذلك من صراع الدول حول اتفاقية الجات ، الذى فجر ، قبل توقيع الاتفاقية فى ١٩٩٣ ، مشكلة الحماية الزراعية فى فرنسا واليابان ، وأمريكا ، وخوف فرنسا واليابان من القوة الزراعية الأمريكية . ان ذلك يعنى ، اننا نستخدم نمطا غربيا ، لايحقق لنا المستقبل ، وكذلك فاننا ندركه فى صورة مثالية ، ، لاتوجد فى الغرب نفسه ، وهو يباع لنا الآن فى الصورة غير الحقيقية ونحن نشتره . فمصر توافق على اتفاقية الجات ، مع ان الاتفاقية نفسها دليل على ان النمو الاقتصادى الغربى ظهر وتطور فى ظل الحماية ، وهو الان يمارس القوة برفع الحماية . ونحن " نلعب مع الكبار " مع اننا مازلنا " صغار " .



والنموذج الناصري ، قدم بجانب التنمية والاستقلال ، عناصر هامة فى تجربتنا التاريخية . ومن اهمها ، تجربة زعامة عبد الناصر نفسها ، وهى تلك الزعامة ، التى حولت الجماهير من حوله ، الى قوى لا يستهان بها ، جعلته قادر على الاستمرار فى نداء الاستقلال . ورغم سقوط الزعامة فى النهاية ، الا ان قوة الجماهير ، تمثل محورا هاما ، لفهم دور المؤسسة والشعب ، فالمؤسسة هى المنظم ، والشعب هو القوة الحقيقية ، والزعامة هى الاحتياج التاريخي . ولكن الفكر الاجتماعى السياسى ، والذي غاب كفكر أصيل يمثل حضارتنا ، هو فى النهاية الرابط الذى يجعل الزعامة / المؤسسة ، هى محرك لنهضة الامة ، والجماهير تظل دائما هى الصانع الاوحد للنهضة . فالنهضة سلوك يومية ، وحياة ، ودافع ، وأمل ، وليست قرارات واجراءات وقوانين .

وزعامة عبد الناصر ، لم تتركنا دور خبرة أخرى ، فمع عبد الناصر دخلت القومية العربية الى مصر ، وظهر متغير جديد بين المصرية والاسلامية ، هو العربية . وهو لم يكن غائبا ، بقدر ما كان ضمنيا . ولكن ظهور القومية العربية ، أضاف لنا معنى أن يتحرك الشارع العربى معا ، فيصير قوة لا يمكن أن نتصورها الا قوة تصنع المستقبل ، واطاف لنا معنى جديد هو العربية فى مواجهة الاسلامية . وكان ذلك فتحا لصراع داخلى جديد يمزق كيانا . ولم يكن ذلك خطأ التجربة الناصرية ، بل يحسب لها الجانب الايجابى ، اما الجانب السلبي فليس الا تعبيرا عن واقع شعوب تدافع عن نفسها منذ زمن طويل ، فينخر الصراع فى عظامها ، ويفتتها صراع الوافد مع التراث ، فتتحول الى فرقاء يصارعون بعضهم البعض ، ويكون الوطن هو الثمن .

ولم يتركنا عبد الناصر ، الا ونحن نعجب مما حدث من نظامه وفى نظامه . فالثورة خرجت من المؤسسة ، اقامة مؤسسة / امة ، مؤسسة بديلة عن الامة ، واستفحلت المؤسسة الادارية ، بجناحها المدنى وجناحها العسكرى . ورحل نظام عبد الناصر ، تاركا لنا اشكالية المؤسسة / الزعيم ، التى تحكم بلا زعامة او مشروع ، والتى صار بينها وبين الشعب ود مفقود ، وعلاقة غامضة ، لا يصغها فكر اجتماعى ، بل واقع الاستمرار . فقد اصبحت مؤسسة شديدة الرخاوة ، ولكنها تحفظ وجود المجتمع ، مجرد وجوده .

نتصور ان ذلك حدث بسبب الاختلال فى كيان الامة . فالامة المصرية ، هى شعب ومؤسسة حاكمة وزعامة وفكرة حضارية ، أو ذات حضارية ، هى روحها ووجدانها وعقلها . وليس صحيحا ، حسب تصورى ، ان الفرعونية كانت دولة تستعبد الشعب . بل كانت دولة /

مؤسسة قوية ومنظمة ، تنظم الشعب ، الذى يتوجه نحو الملك /الاله ، ونحو امبراطورية تبني،  
ومجد يرتفع بين الشعوب . والامة العربية ايضا ، فى امبراطوريتها العربية الاسلامية العظمى ،  
كانت شعب ، ودولة ، ودين يحمل آمال جديدة .

ولكن الناصرية كانت عبد الناصر ، ولم تكن مشروع حضارى يخرج من احضان  
المؤسسة، وذهب عبد الناصر ، وظل الشعب والمؤسسة ، التى لم تستطع تحديد نفسها ، وفقدت  
الزعامة و الروح ، أى القائد والمشروع . وتكتمل الصورة ، لان مشروع عبد الناصر ، كان  
" تنمية " على نمط غربى ، ولم يكن مشروعا حضاريا ينبع من الشعب ، فيعيش بالشعب ، حتى  
بعد وفاه الزعيم / الرمز ، فبقى الزعيم رمزا ، دون أن يكون كافيا للنهضة ، ثم ضاع الزعيم  
والرمز من عقل الامة ، حتى لا تظل تقول " لا " ، فكلمة " لا " فى زماننا حماقة .

## أمر ... واليوم

**بهذا ينتهى** مشهد الماضى ، ونترك حقبة السادات ومبارك ، لمشهد الحاضر . ومن  
خلال تلك الوقفات السابقة ، يمكن أن نخرج برؤية مرحلية ، نتابع بها المشاهد التالية . فقد  
كان واضحا ، ومنذ الحملة الفرنسية ، أن قضية الاستقلال ، هى محور الحركة ، وأن الغرب يمثل  
القوة الراضية لاستقلالنا . ولكن المعركة الاولى مع محمد على ، بدأت ونحن نملك حضارة  
اعتزاها الوهن ، والمعركة الاخيرة مع جمال عبد الناصر ، انتهت وقد تم تهيمش الحضارة المميزة  
لنا ، وأصبحنا نراهن على عالمية المعطى الحضارى ، وقابلية " التنمية " لاعادة الانتاج فى كل  
دول العالم ، وبنفس النتائج " المتقدمة " .

ولعل الصورة توضح ، كيف تداخلت قضية " التحديث " و " التنمية " من جانب ، مع  
قضية " الاستقلال " من الجانب الاخر . وفى مشاهد الحاضر ، صورة جديدة لهذه الاشكالية ،  
بل ان قياس واقعنا الحالى على مستوى التحديث والاستقلال معا ، اى على محك تجربة محمد  
على، وعبد الناصر ، لم يكن ممكنا فى تصورى دون الرجوع الى تاريخ القضية . فنحن فى زمن  
نفقد فيه ذاكرتنا اختياريا ، حتى نستطيع التكيف مع الحياة ، لنستمر ، بجرّد استمرار قد  
لا يكون له معنى ، وقد يديننا التاريخ على قبولنا لهذا الوضع .

ومن صورة الماضي ، نخرج بأدوار متباينة للمؤسسة والشعب ، وثورات المؤسسات مع احمد عرابي وعبد الناصر ، وثورات الشعب مع سعد زغلول ، ولشروع المؤسسة مع محمد علي . وفي تلك النماذج ، نفتقد النهضة ، او انهاض حضارتنا ، باعتبار ان ذلك هو الهدف و الوسيلة. حتى وصلنا لحال ، نسأل فيه عن أهمية النهضة ، وماهى ذلك الشئ المزعوم الذى نسميه حضارتنا ، وماذا نسمى تلك الحضارة ؟ والسؤال الاخير أصبح بالنسبة لنا من الاهمية . يمكن ،حتى نترك مستقبلنا فى مهب الريح ، ونتفرغ للسؤال على هويه حضارتنا ، أو نتصارع حول وجود الخصوصية الحضارية ، فى مواجهة فكرة الانسان العالمى .

فإذا كانت تلك بعض ملامح صورة الامس ، فماذا عن صورة اليوم ؟ ماذا عن اللحظة التى لايراد لنا الخروج منها ، منا قبل ان يكون من غيرنا ؟ ماذا عن اللحظة التى تصور لنا ، بانها المستقبل ، وأفضل مستقبل ، وانها نهاية التاريخ !!؟





## المشهد الرابع

### الحاضر السياسي ... مؤسسة بلا مشروع

وغم أو الحديث دار ، وبعد أكثر من عشرين عاما على وفاة عبد الناصر ، وخلالها ، حول الناصرية ، وتراوحت الاراء بين تأليه عبد الناصر ، واعتباره أكبر نكبة في تاريخنا ، الا ان مشهد يوم الوفاء يظل حكما في التاريخ ، وعلى التاريخ . فاذا كانت القضية تدور حول تقييم دور عبد الناصر ، فإن المشهد دليل حى على فقدان الجماهير لهذا الدور . قد نحكم على التجربة بانها ذات اثر سلبي فى مجملها ، أو أثر ايجابى . وكلها احكام تحدد ادوار الحكم انفسهم وموقفهم من الحاضر . ولكن حكم التاريخ على يوم رحيل الزعيم ، مثل حكم المستقبل عليه . يؤكد ان فى ذلك اليوم فقدت امة العرب زعيمها ، وانها منذ ذلك اليوم ، لم تجد غيره زعيما . وقد يرى البعض ان زمن الزعماء قد انتهى ، واننا فى عصر الاقزام ، او انها طبيعة الحياة ، التى لاتنجب زعماء ، بقدر ما تنجب اليوم " أدوارا " تكتب صفحات فى التاريخ .

ايا كان التفسير ، فان عبد الناصر الزعيم / الرمز ، كان محور جمع شمل الامة ، جماهيرها ، قبل قاداتها . ومنذ وفاته لم يجتمع للامة شمل ، ولم تخرج لها كلمة واحدة تجاه زعيم أو موقف أو حدث . لم تخرج جماهير العرب الى الشوارع تحت اية راية . ولم يترك عبد الناصر ، للامة العربية مشروعا ، أو نهضة ، تظل كلمتها معها . لقد كان رمزا اعظم بكثير من انجازاته ، وكان زعيما أكبر بكثير من نظامه .

وتواكب انكسار عبد الناصر ، مع الهزيمة فى ١٩٦٧ ، وموته جاء فى ١٩٧٠ ، وبعد ذلك التاريخ ، كان على مصر ان تمر بتجربة جديدة فى معركتها مع الحياة . وكانت تركة عبد الناصر متناقضة فى تكويناتها ، بموته مات الزعيم ، وبموته ترك النظام / المؤسسة ، او نقول ترك بداية الانكسار الطويل .

ففى فترة ما بعد عبد الناصر ، اصبحت الساحة رهنا بالتفاعل بين مؤسسة الحكم فى مصر ، وبين ظروفها الداخلية والخارجية . وقد شهدت السبعينات والثمانينات ، تراجع متالى لدور الشارع السياسى فى الحياة المصرية . كما كان اختفاء الزعيم ، مؤشرا لعودة الجماهير الى ثكناتها . وبدأت الساحة تفرغ تدريجيا فى حيويتها السياسية ، حتى تجم التسعينات ، فلا تجد الشارع السياسى بالمعنى الذى شهدته مصر طويلا ، وبالشكل الذى كان له تأثيره خلال سنوات وعقود القرن العشرين السابقة .

بقيت المؤسسة فى النهاية ، منفردة بالساحة ، واصبح الحكم فى مصر ، هو نتاج دور المؤسسة الادارية ، بجناحيها المدنى والعسكرى . واذا بدانا بعهد السادات ، سنلمح بذور التكون والتشكيل للوضع الراهن اليوم . ان السادات كان زعيما ولكن بلا جماهير . كان زعيم مؤسسة ، ولم يكن زعيم شعب . وتغير لذلك وضع المؤسسة عن سابق عهدها فى زمن عبد الناصر . ففى حكم عبد الناصر ، توزعت الفاعلية السياسية بين المؤسسة والزعيم والجماهير ، ورغم اخطاء المؤسسة ، واخطاء الزعيم ، الا ان فاعليه الجماهير كانت تعبر عن نبض الشارع وأحلامه وأماله .

وكان انكسار الزعيم ، فى التفسير الاخير ، بسبب الزعيم ، او بسبب المؤسسة نفسها . وهنا خرجت الجماهير غاضبة ، باعتبارها شريك ، لم يكن يملك حق القرار . وعندما جاء السادات ، فتح الباب لنقد الزعيم ومؤسسته ، وكان ذلك بداية للانفصال بين الجماهير والمؤسسة . فمؤسسة ادارة الحكم فى مصر ، هى العامل المشترك الحقيقى الذى يربط بين فترة عبد الناصر والسادات وحسنى مبارك لانها فى النهاية ، المؤسسة التى خرج منها الرؤساء الثلاثة ، او خرجوا من جناحها العسكرى ، الجيش .

ولم يستطع السادات ، تحقيق الجماهيرية ، بل انه لم يهتم بذلك ، اى لم يهتم بتعبئة الجماهير ، كأحد مصادر قوة القرار السياسى ، سواء قبل حرب أكتوبر ، او قبل مبادرة السلام ، ثم معاهدة السلام . لذلك كان السادات زعيما للمؤسسة . وزعامته فى النهاية ، تعبير عن تاريخه ونضالة السياسى ، الذى أكسبه بريقا سياسيا ، أحبه هو ، واستخدمه العالم (١) ، عندما وجد فيه الرمز العربى الذى يمهّد للسيلام ، ويمهد لكسر الحاجز العربى فى مواجهة الامتداد الرأسمالى العالمى .

وأهمية ذلك ، تكمن فى تلك المواجهة ، او المقابلة ، بين المؤسسة والشعب ، او الحكومة والاهالى . فتوزيع الادوار ، اقتصر فى النهاية ، على مؤسسة تدير شئون البلاد ، وشعب يستقبل اثر السياسات ، ويقف كمشاهد سلبى ، ينتظر لحظة الحكم على المؤسسة ، معها او ضدها . وحدث ذلك فى النهاية ، وبعد خطوات متتالية ، لها دلالتها الهامة . فترة حكم السادات ، بدأت بحركة طلابية وشعبية غاضبة ، وهى استمرار لما حدث فى عام ١٩٦٨ ، وهو فى جملته تمرد الشعب واعتراضه تجاه المؤسسة ، وشعوره بخيانة المؤسسة لأماله وأحلامه .

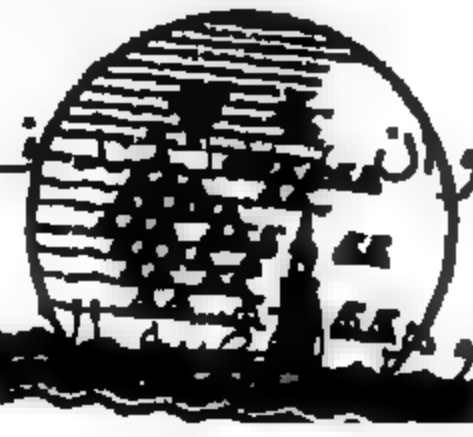
هنا جاءت حرب اكتوبر ، تحقيقا لمطلب الجماهير ، واعادة لدور المؤسسة وهيبتها بين الجماهير . وبصورة متكررة ، تأتى اعادة هبة المؤسسة عن طريق انجاز الجيش المصرى فى حرب اكتوبر . وان كانت الحرب لم تكن هدفا ، بل اعادة سيناء كانت هى الهدف ، ولكن السادات ايقن ان السلام لن يتحقق قبل ان تثبت مصر انها قوة فى المجال العسكرى ، ولهذا جاءت حرب اكتوبر ، لإعادة ما اغتصب بالقوة ، اى لا عن عقيدة عسكرية لحل الازمات ، ولكن كخطوة ضرورية لتحقيق السلام ، اعادة سيناء . وزعيم المؤسسة ، السادات ، ارتبط بتلك القضية واصبحت زعامته ، هى ان يعيد الارض المحتلة ، واقتصرت القضية ، على ان الزعيم هو الذى يقود المؤسسة لاستعادة هيبتها .

وشهد عام ١٩٧٧ ، اخر صراخ جماهيرى عنيف ، كما شهد مبادرة السلام ، وزيارة القدس . وكان التزامن دليل (٢) ، على ان العلاقة بين المؤسسة والشعب ، تحكمها توازن المنفعة والضرر ، فكلما استطاعت المؤسسة تحقيق انجاز واحد ، كلما كان الشعب اكثر صمتا ، وليس بالضرورة اكثر رضاء .

هنا تغير الكثير على الساحة المصرية ، وكانت النقطة المحورية فى حركة المؤسسة ، هى هزيمة ١٩٦٧ ، انكسار المشروع وهى المرادف التاريخى لانكسار محمد على فى ١٨٤٠ . فبعد الهزيمة ، اصبح الشعار الحقيقى هو البقاء وآلياته هى الاجراءات الادارية للمؤسسة ، لتحقيق الرخاء ( السادات ) او التنمية ( مبارك ) . فكيف تحولت القضايا ١٩

## **أكتوبر والسلام**

إن التحول لفكرة ازالة اثار العدوان من فترة حكم عبد الناصر ، وبعد الهزيمة مباشرة . وهنا تغير جوهر الصراع ، وجوهته الأساسية . فالهزيمة فى حد ذاتها ، جاءت



لتنهى فكرة التنمية المستقلة والاشتراكية والوحدة العربية . وفى ذهنية حكام الثورة ، لم تكن الاشتراكية البديل الوحيد ، أو جوهر حركة الجيش ، ولم تكن الايديولوجية الوحيدة لثورة عبد الناصر . ولكن التنمية المستقلة والوحدة العربية بقيت باعتبارها العلامات الالهة فى المشروع الناصري . انها باختصار ، محاولة اقامة كيان عربى يعتمد على البناء المؤسسى الحديث وله القدرة على ممارسة دوره فى المحيط العالمى . أى انها وبلغة اليوم ، جعل العربى ، " نمرا " إقليميا له مكانة دولية .

كانت الفكرة تدور حول زعامة عبد الناصر ، وتدور من خلال حزب البعث ، والكيانات الناصرية فى الدول العربية . لكن فى قلب الحركة ، فى مصر ، كانت عناصر الضعف المؤسسى ، من جانب ، وطغيان الزعامة والجمهورية ، من جانب آخر ، تطفئ على المشروع نفسه . فلم ينمو المشروع كحركة جماهيرية عربية ، لها قوتها الذاتية ، التى تضيف وتحرك مؤسسة الحكم . فقد كان البروز الحقيقى لمؤسسة الحكم . ومن هنا جاء انكسارها فى ٦٧ ، وموت الزعيم ، اسبابا متتالية لبقاء المؤسسة بلا مشروع ، تحاول البقاء اولا واخيرا .

فى فترة حكم عبد الناصر ، افتقدت الامة لعوامل النهضة ، وبقي التحديث على النمط الغربى ، باعتباره اجراءات مؤسسة فى اتجاه التصنيع . وكان مشروع عبد الناصر ، اى خطابه السياسى ، الاوسع مدى من حدود المؤسسة ، هو الاستقلال والوحدة العربية . وهذه العناصر غابت تدريجيا بعد الهزيمة ، وغابت تماما منذ موت الزعيم . ولم يبق الا مؤسسة تحاول ان تكون ممثلة لدولة حديثة .

من هنا نستطيع فهم الخط الرابط بين اكتوبر والسلام ، فالجرب ثم السلام ، لم تكن عملية كفاح من اجل / مشروع ، وبالطبع لم تكن عناصر فى نهضة ، بل انها كانت اعادة طيبة المؤسسة ، كممثل للدولة ، وحاكم للشعب . لهذا ضاع من حرب اكتوبر بريقها التاريخى ، ولم يبق من السلام الا تميزه كمشهد لزعيم يعبر المتوقع الى ما هو غير متوقع (٣) .

ولعلى اجازف فاقول ، ان حرب اكتوبر فى ضمير مصر ، لم تستطع ان تخيل النصر الى ثورة فى الادارة والفكر والفن ، ولذلك لم يخرج لنا ادب ، فى قصة او رواية ، تعبر عن النصر ، تعبيرا وجدانيا عميقا . بل ان التعبير الفنى عن هزيمة يونيو ، كان ومازال ، أكثر صدقا كتجربة وجدانية أصيلة . فى يونيو ٦٧ ، انهزم الزعيم والمؤسسة ، والشعب ، أما فى أكتوبر ٧٣ فكان النصر من نصيب المؤسسة ، من دون الشعب . لذلك لم تمحى حرب اكتوبر ، هزيمة يونيو ، بل

ان الشعب ظل مهزوما ، والمؤسسة مازالت منكسرة ، فالهزيمة جاءت لتحطيم مشروع / حلم ، ربط المؤسسة والشعب من خلال زعامة عبد الناصر ، اما النصر فجاء لاعادة الارض ، واعادة هبة المؤسسة ، دون اعادة المشروع / الحلم ، ودون نشر مشروع اخر ، وبالطبع دون محاولة ، مجرد محاولة ، قيادة نهضة حقيقية فى البلاد .

كان نصرا عظيما للجيش المصرى ، ولكنه كان عبورا للمؤسسة ، ولم يكن عبورا للشعب . ولم تعد الجماهير تؤيد وتتحمس مرة اخرى ، بل تصمت ثم تتمرد ، ثم يختفى التمرد تدريجيا ، وتدخل فى حقبة الصمت الجماهيرى الطويل . وتبقى مؤسسة الحكم بزعامة السادات ، تعى درس الهزيمة جيدا ، وتعرف انها لن تبقى ، الا اذا استعادت الارض اولا ، وتصالحت مع العالم الغربى ثانيا ، وحاولت تحقيق مكاسب ما للشعب ، ثالثا . فدرس الهزيمة ، كان النهاية الفعلية للاستقلال ، وللتنمية المستقلة ، ولم يبق من اجازات الثورة ، الا محاولة اقامة الدولة الحديثة ، أى " التحديث " أو " التنمية " بغض النظر عن الثمن .

## أمريكا والرخاء

**كار الخطاب الساداتى واضحاً ، فيما يخص قضايا الوطن ، فالسلام مع** اسرائيل، والاستسلام لامريكا والتمن هو تحقيق الرخاء للشعب . وحتى اليوم ، لم نخرج عن تلك الاحداثيات ، بل زادها انها اصبحت شعار العديد من الدول العربية ، ومرة اخرى ، يثبت لنا ان لمصر دور قائد ، وانها تقود عالمها العربى ، وتكون رمزه ومثاله ، ولكنها تقوده للنصر احيانا ، وللاستسلام احيانا اخرى .

ان مانتصوره اليوم ، عن قدرة السادات على سباق الزمن ، ليس الا نفعية شديدة ، جعلته يستسلم قبل غيره ، ويمهد لاستسلام الجميع . بل ان سلام السادات جاء ، عندما كان الكفاح من اجل التنمية المستقلة ممكنا ، فالاستقلال فى التنمية كان رهنا بوجود ثنائية ادارة العالم الغربى ، ورهنا بامكانية احداث التنمية المستقلة من خلال التعاون مع المعسكر الشيوعى ، ممثل المعارضة الغربية او ممثل الحلم المثالى الغربى ، التقدم والعدالة . وعندما يقدم السادات اوراق اعتماده زعيما لامريكا ، قبل ضياع فرصة التنمية المستقلة ، فان ذلك ليس الا استسلاما قبل الاوان .



ان ذلك يفتح لنا ملف مؤسسة الحكم فى مصر ، وما اصابها من وهن بعد انكسار المشروع / الحلم . فقد كانت الزعامة ، والمشروع الجماهيرى ، سببا وراء قوة المؤسسة ، الذى غالبا ما كانت تخطئ فى استخدام قوتها . ولكن هزيمة يونيو نالت من مؤسسة الحكم ، مؤسسة يوليو ان جاز التعبير . ولم يكن نصر اكتوبر فتحا جديدا للدور مؤسسة الحكم فى التاريخ المصرى ، فلم يكن سببا يدفع المؤسسة الى اعادة الجماهير من خلال توحيد نحو هدف مستقبلى ، بل كانت الحرب هى وسيلة السلام ، واستعادة الارض ، واستمرار المؤسسة .

ولعل انهيار المؤسسة فى حد ذاته ، قد عبر عن نفسه فى احداثيات هامة . ففكرة تعظيم الدور الأمريكى فى السلام واعادة الارض ، ودوره فى تقديم المنح والقروض ، ودور الاستثمارات الاجنبية فى التنمية ، ثم تعظيم دور القطاع الخاص كلها عناصر تدل على تحجيم دور المؤسسة ، التى أصبحت السلطة المنظمة التى تحدد درجة دور كل جانب ، وتفتح الباب تدريجيا ، ليصبح التحديث فى النهاية ، مشروعا بين القطاع الخاص والغرب ، وتنظم الدولة العلاقة بينهما ، حتى تظل المؤسسة هى الحاكمة ، والمشرعة لكل التوجيهات .

وهنا جاء حلم الرخاء ، وتحت شعار الانفتاح ، أصبح كل شئ مباح . فالبداية كانت انفتاحا على الغرب ، وانفتاحا للقوى غير المنظمة للجماهير ، وانفتاحا على الديون . أى كانت البداية اطلاقا للعناصر بدون ضابط ، تلك العناصر التى أصبحت وسيلة تحقيق التنمية ، وهى تنمية تابعة شكلا ومضمونا . فقضية استقلال القرار السياسى لم تعد ذات جدوى ، بالنسبة للمؤسسة اضعف من ان تعبى الجماهير لتساندها .

من تلك اللحظة أصبح التغريب هو العنصر الرئيسى الحاكم للتفاعل الاجتماعى الاقتصادى . فالتركيز على الدور الأمريكى ، داعب خيال الجماهير نحو تحقيق الرخاء على النمط الغربى ، وأصبح الحلم الجماهيرى ، حلما أمريكيا ، وحلما غير منظم . ولم يكن ما يحدث بلا اساس ، فمنذ محمد على ، ومؤسسة الحكم تعمل من اجل " التحديث " . وتغيرت المراحل تبعا لقضية الاستقلال / الاستسلام تجاه الغرب . وعندما غابت هذه القضية تماما ، لم يبق الا التحديث على النمط الغربى . وعبر كل المحاولات السابقة ، كان التحديث يبدأ فنيا ، ثم فى التصنيع ، ثم فى التشريع ، ثم فى الفكر . ولعل هذا يدفعنا الى تسمية المراحل باسماء مختلفة . ولكن الاهم من ذلك ، هو مدى انتشار وقوة النموذج الغربى فى الحياة . ففي عهد محمد على ، نجد تقنيات فنية غربية ، ومنذ عهد اسماعيل تظهر فئات تعيش بالنموذج الغربى ، ومع ثورة ١٩

تبدأ عملية تحديث التشريعات ، وعملية تطوير الفكر ، ثم فى عهد عبد الناصر ، تستمر العملية اكثر ، فى مجال التنظيم المؤسسى والتشريعى ، وهكذا .

والتغير الهام ، فى نظرنا ، هو فى الكيف والكم معا ، فالاستفادة من النموذج الغربى على مستوى المنجزات والتقنيات والمهارات ، يختلف كيفيا ، عن نقل افكاره وقيمه .

وانتشار الفكر الغربى ، الى شرائح متزايدة من المجتمع يختلف كميا عن انحساره فى فئات محددة . وفى النهاية ، فان انتشار النموذج ، ليصبح مؤثرا على مستوى نمط الحياة السائد فى مصر ، هو تراكم كمى ، يؤدى الى تغير كيفى حقيقى ، اى يؤدى الى انهيار هيكل الحضارة ، وبداية ما نسميه بالتطهير الحضارى ، الذى هو شرط ضرورى لاعادة تنميط العالم من خلال النموذج الغربى ، وبمعنى اخر اعادة تأديب العالم .

ان اخطر ما فى الخطاب الساداتى ، كان حلم الرخاء ، اى مداعبة خيال الجماهير ، بما يمكن ان يتحقق لهم من ثراء ورفاهية . وخطورة ذلك تكمن فى ان الرفاهية المادية هى جوهر الحافز الذى صنع الفكرة الغربية . فكل مفردات الفكرة تهدف الى تحقيق آلية الحياة ، باعتبار ذلك وسيلة لتحقيق رفاهية الانسان . لذلك كان حلم الرخاء تفجيرا لطموح شره لدى الجماهير ، نحو تحقيق السعادة المادية . وبقي موقف الجماهير ، رهنا بمدى ما يتحقق من انجاز فى هذا المجال ، او مدى الاحباط الناتج من فشل تحقيق الرخاء .

لقد اصبحت الرفاهية هى المشروع غير المعلن لنظام حكم المؤسسة فى عهد السادات ومبارك . وهو ليس مشروعا جماهيريا ، بقدر ما هو الشرط الاساسى فى العهد غير المكتوب بين المؤسسة والجماهير . واذا اصبحت الرفاهية ، حلما مستحيلا ، سينتهى العهد ، وينتهى حكم المؤسسة .

**مبارك ... !**

---

**كانت نهاية** حكم السادات على يد فريق اغتيال ، فى وسط العرض العسكرى للجيش المصرى ، فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، ذكرى النصر ، علامة هامة على وهن المؤسسة الحاكمة ، وعلامة على تبلور صوت المعارضة فى التيار الاسلامى المسلح ، وبداية عهد

الاجنحة الثلاثة ، ان صبح التعبير . فمنذ ذلك التاريخ ، تشهد الساحة السياسية تفاعل عناصر ثلاثة ، المؤسسة الحاكمة الرخوة (٤) ، والمعارضة الاسلامية المسلحة ، والجماهير الصامتة . ولكل منهم رهانه الخاص ، فالمؤسسة تراهن على استمرارها بقدر ما تستطيع تحقيقه من فكرة " الدولة الحديثة " . والمعارضة المسلحة تراهن على ضعف النظام وقدرتها على هزيمته . والجماهير تنتظر حلم الرفاهية والرخاء ، ولا تراهن ، ولكنها تصمت ، فإذا تحول حلمها الى حقيقة ، ستدافع عنه ، وإذا فشل فستكون الصوت الذى يحدد شكل الحكم فى المستقبل . واكثر من ذلك ، اصبح تأييد النظام ، مرتبطا بمدى رؤية بعض فئات الشعب لهذا الحلم وامكانية تحقيقه ، وهو دائما تأييد مشروط ، وليس تحالفا ، وليس اشتراكا فى المسئولية . فالشارع السياسى ، تمزق ، وتواكب ذلك مع حالة التفكك الاجتماعى ، والضعف المؤسسى .

ومع بداية حكم مبارك ، اصبحت عناصر كثيرة ، اكثر وضوحا ، فى الخريطة السياسية المصرية . فالمؤسسة الحاكمة استقلت بالحكم تماما ، وغيرت من شكل الحكم من خلال ما يعرف بنظام الاحزاب . وهو تغيير فى الشكل فقط ، فالحزب الوطنى نفسه ، وهو حزب الاغلبية ، لا يحكم مصر ، فهو ليس الا جماعة مصالح تربط مؤسسة الحكم بفئات من الجماهير ، وهى جماعة تقوم بدور الرعاية السياسية الانتخابية للحكم ، وان كان دورهما فى ذلك شديد الضعف . أما احزاب المعارضة ، فهى ليست بديل للحكم ، لانه حكم المؤسسة وليس حكم الحزب . والاحزاب لن تكون بديلا عن مؤسسة ادارة شئون البلاد .

وهذا الشكل الديمقراطى ، لا يحرك الجماهير ، وليس له ان يفعل ذلك . فهو ليس احياء لدور الجماهير ، واعادة الروح للمشروع السياسى ، وليس اسهاما فى تطوير الفكر السياسى الاجتماعى . اما المؤسسة الحاكمة ، فقد اضيف لها بعد جديد ، انها مؤسسة ادارية ، يديرها مديرها العام وهو فى التعبير الدستورى رئيس الجمهورية . بذلك اختزلت الحياة السياسية فى مصر الى عملية ادارية تشرع وتنفذ خطة " التنمية " ، وعملية امنية ، تحمى الجهاز الادارى .

إن خطورة ذلك ، تكمن ليس فى غياب المشروع السياسى ، بعد غياب النهضة ، بل فى غياب الخطاب السياسى نفسه ، وفى فترة حكم السادات ، اقتصر الحكم على الخطاب السياسى الذى يبرر توجيهات المؤسسة وزعيمها . اما فى فترة حكم مبارك ، فقد غاب الخطاب السياسى ، وحل محله الخطاب الادارى ، الذى يبرر التصرفات الادارية لجهاز الحكم ورئيسه .

وقد يتصور البعض ان ذلك هو الطريق الامثل لقيادة الدولة وحل مشاكلها . ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالامم لاتنهض من خلال جهازها الادارى ، بل تحمى نهضتها من خلاله . ان الاصل فى تقدم الشعوب ، هو ظهور " حركة " تتحول الى نهضة ، والى ثورة ، ثم تقوم المؤسسة ، ومعها نظام سياسى ، ويكون دور المؤسسة هو تنفيذ مشاريع النهضة ، ودور النظام السياسى هو تطوير النهضة وتجديدها . وهنا تصبح النهضة نتاج حركة الامة اصلاً ، وتعبير عن نفسها فى النظام السياسى والادارى ، وتصبح الدولة هى التعبير الامثل عن الامة ، ومنظم حركتها ، ومحدد نهضتها .

اما اختزال الحياة السياسية ، والفكر السياسى الاجتماعى ، وعملية النهضة التى هى اصل التقدم ، الى عملية ادارية بحتة لتحقيق التنمية ، فهو مجازفة اتصور انها غير محسوبة ، ومغامرة بمعايير المستقبل ، تتجاوز حدود الامان .

والنمط الادارى لحكم مبارك ، اكسب فتره حكمه طابعاً مميزاً ، فقد اصبحت السنوات الماضية منذ ١٩٨١ ، بلا لون محدد ، فهى تمثل شكلاً بلا ملامح ، اى ادارة بلا سياسة . وما يتبقى من ذلك ، فى النهاية ، هو مجموعة من الاجراءات يفترض انها تحقق الافضل للمجتمع المصرى ، وهى اجراءات فى خطة ، لها جدول زمنى . واصبح صمت الجماهير اليوم ، مرتبطاً بالجدول الزمنى ، اى مرتبطاً بالجرعات المنشطة والمحبطة التى يتلقاها الشعب . وهو نتاج ايضا لذلك الجدول الزمنى ، فالشعب يرقب تغيرات احواله ، تبعاً للاجراءات الادارية ، وجدولها الزمنى .

ولعلى اسارع بالقول ، ان العلاقة بين الشعب والجهاز الادارى ، ترتبط بشدة بمدى ما يتحقق من امكانيات الحياة ، ومشكلة ذلك ، ان الجزء الاكبر مما يتحقق مرتبط بالجهد الفردى والحل الفردى ، ومرتبطة كذلك بالتنظيم العرفى للاقتصاد ، او تلك المساحة الكبيرة لدور الاقتصاد السرى ، او غير الرسمى ، وغير المنظم . ولقد بات واضحاً ان محك نجاح الجهاز الادارى ، اصبحت فى ايدى الافراد انفسهم ، فمدى نجاحهم فى المبادرة الفردية ، هو الذى يمكن الجهاز من الاستمرار ، وفشلهم يعجل بفشل الجهاز نفسه .

## التنمية هي الحل

إن نظام مبارك ، قد اعتمد التنمية كهدف ونموذج ، يحدد دور المؤسسة تجاه المجتمع . ولكن بدايات عملية التنمية ، تختلف عن نهاياتها ، على الاقل ظاهريا . ففي البداية ، ظهر حسنى مبارك ، وكأنه يميل الى التنمية المستقلة ، وذلك من خلال تشجيع التصنيع المحلى ، ووضع الحواجز الجمركية ، وتحجيم الاستيراد . لدرجة انه فى الوعى الجماهيرى ، أعاد صورة عبد الناصر ، أو طرح سؤال عن عودة الناصرية . ولكن هذه المرحلة شهدت ايضا ، اعادة بناء البنية الاساسية من خلال الديون الخارجية . وشهدت كذلك فترة جفاء بين النظام المصرى ، وكل من الحكومة الامريكية ( فى عهد ريغان ) والحكومة الاسرائيلية ( فى عهد شامير ) . وهنا يمكن ان نلمح محاولة فى الاعتماد على الذات فى التنمية ، مصاحبة لوجود أنظمة حكم متشددة تجاه مصر ، خاصة حكومة ريغان ، مع ميولها الرأسمالية المتطرفة . والمشكلة هنا ، ان هذه الدرجة المحدودة من الاعتماد على الذات ، لم تأتى كتعبير عن مشروع للتنمية المستقلة ، ولم تخرج من خلال تعبئة جماهيرية ، بل كانت تعبير عن ظروف راهنة ، خاصة بعد رحيل السادات ، وما تركه من معارضة قوية ضد التحالف مع امريكا ، وضد السلام مع اسرائيل . لذلك ، ومنذ نهايات الثمانينات ، تحول الوضع ، ومع تراكم الديون ، لتبدأ حقبة يميزها الدور الأمريكى ، والاتفاق مع صندوق النقد الدولى . ومن هذه النقطة بدأنا فى التنمية على الشروط الغربية الكاملة . فهل التنمية هي الحل ؟!

ان الصورة المطروحة علينا توحى ان الحضارة الغربية هي افراز لعملية التنمية . ولا اتصور ان التاريخ يؤكد ذلك ، بل ان صفحات التاريخ تؤكد ان الحضارة الغربية ، هي افراز نهضة شاملة ، قامت بها الجماهير ، وافرزت نظم وافكار ومبادئ وقيم ، هي التى تحكم عملية التقدم ، وهى التى تحدد مراحل تجديد النهضة وتطويرها .

ثم ان الصورة المطروحة علينا ، توحى ان عملية التنمية ، سوف تجعلنا فى النهاية جزء من العالم المتقدم ، ان لم يكن من دول الصف الاول ، فمن دول الصف الثانى ، بدلا من الثالث ، أو فى الثالث بدلا من الرابع . وهو تصور يطرح التنمية كعملية ممكنة عالمية ، ليس لها علاقة بمفردات الزمان والمكان .



والتنمية فى عهد مبارك ، هى تنظيم لمفردات الخطاب الساداتى ، وتنفيذ ادارى لتصوراته ، ولكن من خلال التخطيط " العلمى " ، والجدول " الزمنى " . والحقيقة ، ان التنمية بذلك ، هى نموذج للتقدم المعكوس ، الذى يبدأ بالبنية الاساسية ، وتحقيق الرفاهية والفرص لفئة من الشعب ، لتمثل الرأسمالية الوطنية . أى اننا نبدأ بمراحل فى سلم التطور ، حدثت متأخرة فى الغرب . والاشكالية الثانية ، فى التنمية ، هى انها مشروع فوقى ينفذه جهاز ادارى ، من خلال نخبة من الخبراء والاداريين ، ويحميه الفرع الامنى من الجهاز الادارى . وهكذا اصبحت القضية لاعلاقة لها بال جماهير ، الا من حيث كونهم مستقبلين لتأثيرات الاجراءات الادارية .

ويجب ان ندقق كثيرا فيما يحدث اليوم ، ونحن على ابواب الخطة الثالثة للتنمية . فالقضية ليست احتزالا ، تحقيق النمو ، ولكنها اصلا تحويل المجتمع . فما يحدث الان ، هو تغيير منظم للحياة المصرية ، من خلال القوانين والنظم والاشكال المؤسسية . والخطاب السياسى المباركى ، ليس خطابا سياسيا ، وليس خطابا عن المضمون ، ولكنه خطابا برجماتيا ( نفعى ) يتناول الوسائل والطرق ، والاهداف الظاهرية فقط . فنحن الان نعيش ما يسمى بنهاية التاريخ ونهاية الايديولوجية . وهو ليس الا تدويل النمط الغربى فى الحياة ، فى أكبر عملية أممية يقودها الغرب . ان كل قانون يتم تغييره ، يغير الكثير ليس فقط فى سلوكنا وفرص الحياة ، ولكن ايضا فى قيمنا وحضارتنا .

إن خطاب العهد المباركى ، هو خطاب " لامساس " ، فهو خطاب ينكر تماما اننا نتحول تبعا لشروط غربية ، الى نمط محدد سلفا وعلينا قبوله . وهو خطاب يتجاوز ، تجاهلا ، مضمون التغييرات التى تحدث ، والتى ستظهر اثارها أكثر فى المستقبل . بل إن الجدول الزمنى نفسه ، محدد من خلال قواعد وضعها " الخبراء " الاجانب ، وحددتها مؤسسات التمويل . والجدول الزمنى الحقيقى ليس مطروحا على الساحة ، خاصة بنوده الفعلية . ودور الحكومة الحقيقى ، ليس الا اطالة الجدول الزمنى .

فلا تصور مثلا ان بداية خطة التنمية فى عهد مبارك باصلاح البنية الاساسية ، ثم تحويلها فى التسعينات الى التعليم والاصلاح والتشريع ، مجرد ترتيب عفرى . لانه يعبر عن توجه الاموال المخصصة للقروض والمنح ، ويعبر عن اولويات الاجندة الغربية تجاه العالم الثالث . ففى الثمانينات كانت الهيمنة اقتصادية ، ترتبط بفتح ابواب الاستثمار ، وتهيئة المناخ للقطاع الخاص والاستثمار الاجنبى ، وذلك يحتاج الى " بنية اساسية " ، تمثل قاعدة لاستخدام الاستثمارات

الوافدة ، من أموال الاجانب ، أو أموال المصريين فى الخارج . ولكن الامر تغير ، بعد سقوط الشيوعية ، واصبح من الممكن للغرب ان يصبح حلا وحيدا عالميا ، بعد نهاية عهد التنافس بين طرفى الثنائية الغربية . وهنا يتحول الجدول الزمنى الى مراحل متقدمة ، تهدف الى تنمية مجتمعات العالم الثالث ، من اجل اعادة افراز النمط الغربى ، فى بيئات حضارية مختلفة ، ورغم اختلافها الحضارى (٥) . ومن هنا تأتى احلام الامة والكونية فى المنظومة الغربية ، التى تبشر بعالم جديد ، تتحقق فيه الرفاهية - تدريجيا - للجميع من خلال النموذج الغربى ، ومن خلال التخلص من النماذج الحضارية الاخرى ، التى سببت تخلف شعوب العالم عن الغرب ، وهذا لايمنع من الاحتفاظ بملامح حضارية متحفية (٦) ، ولكنه لايمنع - ايضا - من خطر حدوث التطهير الحضارى ، أى من خطر تمزق الابنية الحضارية المحلية .

وليس من السهل ، من منظور اجتماعى حضارى ، فهم كيفية احداث التنمية فى التعليم على أحدث النظم العلمية المتقدمة ، وهو فى حد ذاته ، استمرار لتحديث التعليم الذى بدأ مع بداية القرن الحالى ، ولكنه وصولا بالتعليم الى مرحلة المطابقة مع النماذج " المتقدمة " . والتعليم حسب تصورى ، هو عملية تنشئة اجتماعية ، وتنميط معرفى وسلوكى ، تقوم بها الدولة ومؤسساتها ، امتداد لدور الاسرة ، ونتاجا لثعقيد الحياة المعاصرة . ولكن ان يكون التعليم ، بديلا عن الاسرة ، وان يكون على النمط الغربى ، بديلا عن النمط الحضارى المصرى ، فذلك - فى تصورى - نقل لمركز صنع القرار المستقبلى ، الى خارج حدود مصر . ولا أتصور ان حلم الرخاء الموعود ، مبررا كافيا ، أو تعويضا مناسباً على ما نحن مقدمون عليه .

إن التعليم فى الحضارة الغربية ، هو تنميط البشر حسب مواصفات قياسية ، تتطلبها حضارتهم ، وتقديمهم ، وقيمهم . وهى عملية تقوم بها الدولة فى حضارة ألغت تماما دور الاسرة ، لصالح الدولة ، باعتبارها المنظم الاعظم ، والمسيطر الاكبر ، على تحقيق حلم الحضارة الغربية . والتعليم فى مصر ، وفى الماضى القريب وحتى الان ، أصبح نموذجا للتلقين المعلوماتى ، الذى يؤدى الى توفير طاقة عاملة ، لديها المعلومات الكافية ، حسب أحدث ما انتجته مراكز الغرب من معلومات . والجوانب السلبية فى التعليم ، هى التى جعلت منه عملية تنميط جزئية ، أو مبتورة ، فظلت الاسرة والكيانات الاجتماعية الاخرى ، قادرة على فرض نمطها فى الحياة . بالطبع ، تواكب ذلك مع ضعف المؤسسات الحاكمة ، كممثل عن الجماعة / الامة ، فى مقابل تزايد قدرة التشكيلات الفرعية فى ممارسة دورها كممثل عن جماعة من الامة ، أو جماعة

مستقلة بذاتها . ولكن حل هذه الاشكاليات ، يجب ان يكون من خلال تحويل التعليم لاداة  
لنهضة الامة ، واداة لاعادة فاعلية الجماعة / الامة ، أو الامة الجامعة . كما يجب ان يكون  
التعليم ، هو الاداة الرئيسية فى اعادة احياء الحضارة ، وبالتالى اعادة تحالف عناصر التقدم  
المفقود ، الجماهير - المؤسسة - القيادة السياسية ، حول النهضة باعتبارها تطوير التراث  
وتجاوز معطيات الحاضر ، ومن خلال فكر اجتماعى سياسى ، ينظم العلاقات ، ويحدد القيم ،  
ويعرف المعايير .

ولكن ان يصبح التعليم ، اداة للتنميط الغربى ، تحت دعوى تحقيق اخر ما وصل اليه العالم  
المتقدم ، فهذا رهان خاسر ، ومغامرة بمستقبل أجيالنا ، وربما يكون ضياع لآخر أمل . وليس  
التعليم هو المجال الوحيد للمأساة ، بل هو جوهرها ، ومعها تنتظم القوانين والتشريعات الحديثة ،  
أى تحديث كل شئ فى الحياة ، وهو ما يعنى ضمنا تحديث قيمنا ، فلا يمكن ان تغير استراتيجية  
الحياة ، أى منظومة الاساليب ، دون أن تكون بصدد تغيير القيم ، فهل قيمنا ايضا تحتاج الى  
تحديث ١٩ .

## دعاء الخليج

**أنا كنا** نتوجه الى تنمية مصر ، وادخالها فى نادى الرأسمالية الغربية ، فان حرب  
الخليج ليست حدثا فى تلك القصة ، بل رمزا يبقى مع مستقبلنا . فالمؤسسة التى بدأت مرحلتها  
الاولى بنداء القومية العربية ، أكدت فى مرحلتها الثالثة وهم القومية العربية ووضعت الفصل  
الاخير فى صفحة الامة العربية .

إن ادانة غزو العراق ، لايجب ان تقل عن ادانة تدميره ، ولا يجب أن تتراجع عن ادانة قيادة  
أمريكا لحرب ضد دولة عربية ، وبمظلة عربية (٧) ، ومعها جيوش عربية . لقد كان لمن حرب  
تحرير الكويت ، نصف ديون مصر ، ومعونات تفجرت فى عامى ٩١ ، ٩٢ (٨) ، ولكن الثمن  
الحقيقى للحرب ، هو القضاء على احتمال تجمع العرب مرة أخرى ، ذلك التجمع الذى يحمل  
معه أمة واحدة ، ويبقى باستمرار كتهديد وخطر فى الادراك الجمعى الغربى .

ان الحرب العربية ، أو المأساة العربية ، تركت وراءها ، أنظمة تستسلم وتقبل كل الشروط، وقيادة فلسطينية مهددة بالافلاس ، وساحة مفتوحة لتكوين وحدة عربية على النمط الغربى ، وبقيادة اسرائيل ، وحماية أمريكا . أن المكاسب التى حققتها الحرب لاسرائيل ، وأمريكا ، كافية بلفت نظرنا الى دلالة تلك الحرب ، والتى لم تكن الا قرصنة أمريكية ، تفتح بها عهد قيادتها للامنية الغربية الرأسمالية . ولم نكن - نحن - فى هذه الحرب الا ادوات مرنة ، بات واضحا انها اصبحت جاهزة للاستسلام الكامل .

ولا اتصور اننا نحتاج أن نتكلم عن الحل العربى ، أو التحرير بجيش عربى ، فحسابات الانظمة أصبحت حسابات المنفعة ، والحل العربى سيكلفنا الكثير ، دون مقابل مادى . أما الحفاظ على أمل الامة العربية ، أن تظل أمة ، فلم يكن ثلما كافيا .

ان ما حدث ليس تحقيقا لارادة الشرعية الدولية ، لانها لاتوجد اصلا ، والاما كانت دولة اسرائيل ، جرح غائر فى خريطة الامة العربية . فحرب الخليج كانت بالفعل اعادة تنظيم الاوراق العربية ، بعد أن اصبحت انضمامها للرعاية الغربية ، ضرورة يفرضها الواقع ، فى نظر نظم واهنة . ان الخسائر الحقيقية لحرب الخليج ، تتمثل فى اضعاف الامة ، والقضاء على احساسها بذاتها التاريخية ، ووجودها الجغرافى .

لذلك كان اتفاق غزة - أريحا ، نتيجة طبيعية لحرب الخليج . ففى غفلة من الزمن ، اكتشفنا ان القضية الفلسطينية وهم ، وان الدولة الفلسطينية لم تكن هدفا ، وان الاعتداء الاسرائيلى هو عمل تستحق عليه اسرائيل المكافأة ، وان وجود دولة اسرائيل هو الاصل ، اما قيام دولة فلسطين فهو افتراء على التاريخ . وان المشكلة كلها فى الترتيبات الامنية ، والمصالحات الجزئية ، التى تتيح تدفق الاموال ، والاسراع بالتنمية ، وقيام السوق العربية الموحدة ، التى ما كان لها ان تقوم الا بسبب وجود اسرائيل ، التى مهدت لنا الطريق لنصالح الزعيم الغربى الأمريكى ، ونصبح من رعاياه المخلصين .

واذا كان هذا المشهد يبدو جنونا ، فما يحدث يدفع للجنون . فمن حرب الخليج حتى اتفاق غزة / اريحا ، عرضنا كل قضايانا وشعاراتنا وتاريخنا ، وتبعنا لآليات السوق ، حصلنا على الثمن المناسب . فهل هى قضية أم صفقة (٩)؟! وهل الثمن المناسب ، سينصنع لأمة العرب ، مستقبل أفضل ، ورخاء أعظم ؟!

ان حسابات النظم السياسية العربية ، والنظام المصرى ، لم تضع فى ترتيباتها متغيرات المستقبل ، بل ان اصرار النظام المصرى على تأكيد الدور الأمريكى ، ومعارضته لدعاوى الانكفاء على الذات التى تخرج من أمريكا نفسها ، لدليل على اننا وضعنا معظم أوراقنا فى رهان على الحصان الأمريكى ، وأى تغير جذرى فى موازين القوى الدولية ، لكفيل بضیاع مستقبل أمتنا .





## المشهد الخامس

### وكلاء الغرب ... نخبة بلا أمة

إن مشاهد التاريخ لا تحكى فقط دور المؤسسة والشعب ، ولكنها تحكى الكثير عن المجتمع نفسه . ولن تكتمل الصورة ، الا بعرض نماذج ومشاهد من قلب التشكيل الاجتماعى المصرى ، خاصة تلك النماذج التى تمثل النخبة ، أو تمثل مؤسسات المجتمع غير السياسية . فى محاولة للاقتراب أكثر من نسيج المجتمع نفسه . تسجيلا لازماته ، وكشفا عن اسباب تراجع فاعليته . فنهضة أى أمة ، أو تقدمها ، تعبير عن فاعلية المجتمع وقدرته فى النمو ، وتفوقه فى تطوير امكانياته ومعطياته الحضارية والتاريخية والجغرافية .

إن النهضة ، هى وصف لحركة مجتمعية شاملة ، ابداعية فى اسلوبها ، تراثية فى جذورها ، جديدة فى نتائجها . فهى ببساطة ، توليد اشكال وتراكيب جديدة ، مستمدة من التراث ، تتجاوز مراحلها السابقة ، فتؤدى الى انجازات جديدة ، والدخول فى مراحل حضارية جديدة ، من شأنها أن تكون أكثر فاعلية فى تحقيق الافضل للمجتمع . وهى آليات يعرفها التاريخ ، فى الثورات والنهضات الكبرى ، ويعرفها فى الثورات العلمية والتطورات المرحلية . ولسنا استثناء من هذا فى تاريخنا ، وفى مستقبلنا . وأى تطلع لمستقبل افضل ، يدور حول ظروفنا السياسية ، والاجتماعية معا ، أى يرتبط بفاعليات المجتمع ، بدأ من الدولة ، ومرورا بالنخب ومؤسسات المجتمع ، حتى الشعب نفسه . واذا كانت مؤسسة الحكم قد مرت بهذا التاريخ الحافل بالمحاولات السلبية منها والايجابى ، واذا كانت ايضا لم تصل فى مرحلة من المراحل الى تحقيق النهضة ، فان لذلك علاقة قوية بالطرف الاخر للتفاعل التاريخى السياسى ، وهو الامة ، وفى مقدمتها طليعتها من رموز ومؤسسات .

ربما يكون هذا المشهد ، أكثر المشاهد تعقيدا . ولكن يمكن الوصول الى بعض الملامح الهامة فيه . فالنخبة القائدة للامة ، ومنذ عهد محمد على مرت بالكثير من المراحل ، وتغيرت ملامحها مع ملامح المرحلة نفسها . ولكنها ظلت تتراوح بين نخب تجتهد ، ونخب تستغل الواقع .

والنخب فى النهاية ، تعبير عن المرحلة التاريخية التى يمر بها الشعب نفسه ، فهى افراز تطوره ، وافراز حركيته وحراكه ، وهى ايضا نتاج التفاعل بين اوضاع النظام السياسى ، وظروف الامة نفسها . ونتصور ان اى تطور حقيقى ، يبدأ بظهور تشكيل اجتماعى جديد من داخل الامة ، يتطور بسرعة ، ويقدم رؤيته الجديدة ، ثم يقود الامة ، ويشكل نظامها السياسى . وهذا ما لم يحدث لنا ، منذ الصدمة الحضارية الاولى مع الحملة الفرنسية ، وهو فى نفس الوقت ، الامكانية التى يحملها المستقبل ، والتى تدعونا للبحث عنها ، ومدى احتمالها ، وكيفيه دفع أى بذور او توجهات أولية نحو ظهور نخبة تقود الامة .

فإذا كانت البداية بعهد محمد على ، فإن الحديث عن النخبة العثمانية الحاكمة ، قبله وبعده ، هو حديث ذو شجون . فقد كانت النخبة العثمانية ، هى آخر حكام الامبراطورية العربية الاسلامية . وهى نخبة غير عربية ، وتمثل تشكيلات من أصول أوربية وأسيوية ، كما انها اقامت الامبراطورية العثمانية ، لا العربية . وبعد ذلك كان لها دور فيما عرف بعملية التتريك ، ومما أدى لظهور الفكر القومى العربى فى الشام كدفاع ضد التتريك . كما ان القوة العثمانية ، فتحت المجال بين العربية والاسلامية ، فالاولى لا تجمعها ، والثانية تجمعها مع العرب .

ولا اتصور ان تقييم الدولة العثمانية ضرورة ، بقدر ما ان الخروج من الازمات التى طرحتها ضرورة . وقد تكون تلك الدولة ، هى نموذج لصعود نخبة عسكرية فتيه ، قادت الامبراطورية العربية الاسلامية ، فى بداية مراحل ضعفها . فأضافت لها انجازات فى مجال السلام والمعارك . ولكنها لم تضيف لها جديد فى مجال النهضة ، التى توقفت منذ ذلك الحين ، و اغلق باب الاحتهاد ، ودخل العقل العربى الاسلامى فى ظلمة طويلة .

وفى حدود ذلك ، فهى نخبة عسكرية قادت الامبراطورية فى مراحلها الاخيرة . ولم تكن نخبة تحيى أو تجدد نهضة الامة ، التى كان اوانها فى الزمان قد جاء .

وتجربة محمد على ، استمرار لذلك ، ولكنها تمثل نموذج اكثر قدرة على التطوير ، مزج بين القوة العسكرية ، وتحديث الجيش ، وبين تحديث الدولة ، الذى جاء فعلا من المرتبة الثانية ، وربما نتيجة لتحديث الجيش . وبعد انهيار محمد على ، ترك مصر بلا طليعة تقودها .

ومنذ الحملة الفرنسية على مصر ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، سنجد رموزا كثيرة للكفاح الوطنى ، وهى علامات على نبض الامة ، وعلى مراحل كفاحها . ولكن التكون

النهائي لفئة ، او تشكيل اجتماعي ، قادر على قيادة الامة ، ظل - وما زال - الحدث الغائب في قصة الصراع الطويل مع التخلف ، وأعداد الوطن ، معا .

ومع دخول الاستعمار ، بدأت تتشكل نخب تابعة للاستعمار ، وتكون بذلك تشكيلات اجتماعية متنوعة في اصولها . فقد ظل هناك كيان يعبر عن الامة ، بمفكره وقادته ورموزه ، ولكنه ظل كيانا يتوارى تدريجيا ، وأضيف له كيان مقابل ، ينتمي للاستعمار أكثر من انتمائه للامة .

وأتباع الاستعمار هم في النهاية فئة متعاونة معه ، وقضيتهم تنحصر في دورهم في مساندته وتأنيده . ولكن مع تزايد عملية التغريب ، أو التحديث ، أصبح للحضارة الغربية ، لاعماء ، بل وكلاء وهم الفئة التي تبنت النموذج الغربي ، وساعدته على نشره ، وتصورت - وما زالت - انه الحل الامثل لمستقبل الوطن .

ولكنها نخبة بلا أمة ، فلم تتحول الى طليعة تقود الأمة ، ولم تقف وراءها الجماهير ، بل ظلت جزء من النظام الفوقي للمجتمع ، تتحالف معه من أجل تحديث مصر ، وتجد في الغرب نموذجا تحتذى به ، ومصالح تتفق عليها . والادوار هنا تختلف . فالمثقف الذي ينادى بالفكر الغربي ، غير رجل الاعمال الذي يدخل في منظومة التنمية الاقتصادية ، وتحالفاتها عبر خيوط النظام الرأسمالي العالمي . ولكن الكل يشترك في اقتناعه بالنموذج الغربي في الحداثة ، وتختلف الادوار بعد ذلك . ويهمننا هنا ان نقرب اكثر من ظاهرة النخبة بلا أمة ، باعتبارها احد عناصر الواقع الحالي .

## الوكيل الغربي

**عندما نتناول** الصراع بيننا وبين الغرب ، او الصراع بين اتباع نموذج الغرب في التنمية ، وبين ابداع نموذجنا في النهضة ، نتعرض مباشرة لاشكالية التحالف الذي يحمى عملية تطبيق النموذج الغربي . فالقضية ليست حول قرار سياسي ، ولكنها حول آليات معقدة ، تتشابك في نسيج المجتمع ومؤسساته . والتحالف النخبوي الذي يتبنى المشروع الغربي ، يمثل في الحقيقة الجزء الغالب من القوى المسيطرة على مقدرات المجتمع . ولذلك فإن البحث عن مشروع آخر ، يعنى البحث عن نخبة جديدة .

وحدود ذلك التحالف الغربى ، تبدأ من خلال تبنى معظم الفئات الصاعدة فى المجتمع ، ومنذ بداية هذا القرن ، للنموذج الغربى ، باعتباره مضمون مشروعها ، ووسيلة نجاحها . لذلك فهم وكلاء للغرب ، وهم مثل التاجر الذى لم يجد صناعات محلية يتاجر فيها ، فاستورد بضاعته من الخارج ، حتى يستمر عمله . والازمة الحقيقية ، تكمن فى ان تلك الفئات الصاعدة ، هى مشاريع ، او فرص محتملة ، للنهضة . ولكنها مشاريع لم تكتمل ، لان تلك الشرائح تحولت الى تبنى النموذج الغربى ، واصبحت " تساير " العصر ، ولا تخلقه ، اى تساير الظروف المعاصرة لها ، ولا تحاول التغلب عليها (١) .

وعندما يكون التقليد مفضلا عن الابداع ، والاستيراد عن الانتاج ، والانتاج بالمواصفات والاسباب العالمية ، عن أى انتاج مختلف وبمواصفات محلية ، عندئذ نكون بصدد آليات يسهل ملاحظتها . فالنمو التدريجى لفئات متفرقة ، أو النمو السريع لفئة عريضة ، من أهم اسباب هذه الظاهرة .

بتعبير آخر ، فإن ظاهرة عدم انجذاب المجتمع لنخبة يكون لها دور طليعى (٢) تجاه الأمة ، هو فى أحد أوجهه ، نتاج لعملية التنمية المشوهة ، اى عملية التحديث على نموذج تقليدى للغرب ، دون أن يكون بالفعل مطابقا لنهضة الغرب . فمع الصعود الاجتماعى ، تفتح الفرص امام الفئات الطموحة ، فى اتجاه الدخول فى النمط السائد ، والنمط الاكثر نجاحا . ومع توالى عملية التحديث ، أصبح الدخول فى النموذج الغربى ، هو الوسيلة لتحقيق الطموح .

والاختلاف بين عصر وآخر ، يكمن فى مدى الاندفاع تجاه النموذج الغربى ، ومدى التمسك بالتراث الذى لايسمح بكمال عملية التنميط . واذا كان الانفتاح على الغرب وفكره ، من أهم عناصر التطور فى مطلع هذا القرن ، فإن نفس الانفتاح لم يعد له هذا الدور ، ونحن على مشارف نهاية القرن . وايضا ، فإن تطوير الفكر السياسى على نمط غربى ، ولكن داخل مشروع للاستقلال ، يختلف عن تطوير الفكر داخل مشروع للتبعية .

والاختلاف هنا ، من مرحلة الى أخرى ، أن البدايات تدخل فى لزوم النهضة ، والتعلم ، والاحتكاك ، ولكن النهايات تعبر أكثر عن الخضوع للنموذج الاقوى . وفى بداية القرن (٣) ، كان نشر الفكر الغربى ، وسيلة لانهاض العقل ، وثقيفه وتعلمه ، ولكن تحويل الفكر الى عقيدة ، يمثل خطأ الانبهار الى درجة انكار الذات . وفى الحاضر فإن نشر المفاهيم الغربية ،



باعتبارها محكا للحياة ، هو تسويق لافكار ، من شأنها أن تشوه نمط حياتنا ، وتفقدنا القدرة على الحفاظ على قيمنا ، بل وتفقدنا القدرة - ايضا - على تمييز قيم الآخر .

وهنا يصبح دور الوكيل الغربى اساسيا فى الحفاظ على الوضع الراهن ، واستمرار مشروع تطبيق النموذج الغربى . واذا كان بعض مفكرو النصف الاول من القرن العشرين ، قد استقدموا الفكر الغربى ، فان بعض مفكرو النصف الثانى يتبادلون نشر الفكر مقابل تحقيق المصالح الخاصة .

وتلك ليست اشكالية فكر فقط ، بل هى اشكالية فى مجال العمل الاقتصادى ، والتربوى ، والعلمى (٤) ، وغيرها . فارتباط وكلاء الغرب بالنموذج الغربى ، يصاحبه ارتباط مصالحهم بالغرب ، وارتباط مصالح الغرب بهم . ومن هنا ينشأ التحالف القوى ، الذى يعد الاساس الحقيقى الذى يحافظ على عملية التغريب ، ويجعلها تستمر الى درجات خطيرة .

ولعبة المصالح هنا ، تربط فئات من النخبة ، بمصالح عابرة للحدود ، وبذلك تعرض مصالح الوطن للخطر . وفى ذلك شكل من التضحية الحادة ، والتي قد تأخذ صورا تتراوح بين العمالة مقابل المال ، الى القيام بدور الوكيل الغربى ، مع توفر النزعة الوطنية الكاملة ، أى مع الاعتقاد بأن تطبيق النموذج الغربى هو الحل الامثل لمستقبلنا . واذا كان الخطاب العربى قد درج على القاء اتهامات العمالة ، فإن الخطر الحقيقى ليس فى العميل لانه خائن للوطن ، بل فى الوكيل لانه وطنى ، وينتمى الى وطنه .

من جانب آخر ، فإن الوكيل التجارى ، الذى يرتبط نشاطه ونوعه ، بتحقيق مصالحه الخاصة ، ومصالح الشركات الاجنبية ، دون النظر الى المصالح الاقتصادية الوطنية ، هو نموذج أقل ضررا ، من الوكيل الفكرى ، الذى يريد للمجتمع أن يتغير فى حضارته وعاداته وقيمه . والقضية ليست فى القاء النقد فى وجه كل من يتعامل مع الغرب ، بل على العكس فى ذلك ، فإن التعامل والاحتكاك والتفاعل مع الآخر ، هو سمة الحاضر والمستقبل ، وهو ما نسميه بكونية النظام العالمى ، أى ارتفاع معدل التفاعل عبر الدول . ولكن المشكلة الحقيقية فى أساس التفاعل وهدفه ، وايضا فى معيار الحكم على أى علاقات تبادلية ، أى حدود التأثير والتأثر .

ولا يفهم من السياق ، أن الترجمة جريمة ، أو أن استيراد السلع خيانة . فإن تبسيط القضية يفسدها ، بل اننى أزعم أن تبسيطها جعل التعامل معها أصعب ، وشدة الصراخ تجاه الغرب ،

سمح للنموذج الغربى أن يتششر أكثر ، فالصراخ فى مواجهة نموذج جاهز للتطبيق ، جعل الصرخ تعبيراً عن التخلف ، دون أن يكون وسيلة للحل .

ولذلك نحتاج الى ضبط المفاهيم أكثر . فالوكيل الغربى فى تصورنا ، هو من لا يجد من وسيلة لتحقيق طموحة ودوره ، الا من خلال تبنى المعطيات الغربية . وهو فى نفس الوقت ، من لا يجد معياراً للتقدم غير المعيار الغربى . هنا يفقد الوكيل دوره أساساً ، لانه يتحول الى نخبة تقوم بدور اسقاط النموذج الغربى من أعلى ، دون أن يكون نخبة تقود الامة وتصلح أحوالها .

والمقابل للوكيل الغربى ، هو وكيل الامة ، الذى يحمل همومها ، كما يحمل قيمها ، ويحاول أن يقودها ، كى تخرج امكانياتها فى أشكال متطورة تحقق قيمها . ولكن الوكالة للغرب ، وكل أليات تطبيق النموذج الغربى ، باتت تقنعنا أننا أمة قد أفلس . وأكثر من ذلك أصبحت تصوراتنا السياسية الاقتصادية عن السوق الشرق أوسطية ، ليست فقط تراجع للخلف ، بل تراجع لاسفل ، واهدار لآخر ماتملك ، موقعنا الجغرافى (٥) .

وتبقى النظرة النفعية المباشرة ، كدافع رئيسى لتفجر ظاهرة الوكالة للغرب . وذلك جزء من سياسة الدولة منذ عهد السادات ، التى وجدت أن التحالف مع الغرب يحل المشكلات الاقتصادية التى عجزت الدولة عن حلها . فالتحالف الغربى فى حملته ، عاجل افلاسه ، وضراوة التحديات التى يواجهها ، وخروجه من انماط مشوهة للتنمية ، تفقده المعنى الحقيقى للكفاح ، وتغلب المصلحة العاجلة ، عاج ذلك باستيراد حل جاهز للتطبيق ومحدد المواصفات ، ومدفوع الثمن .

## **ببر الاقتصاد والمال**

إن مجال العمل والاقتصاد ، يمثل أحد الجوانب الهامة التى ساعدت على انحسار بدائل المستقبل . فى فترة الاستعمار الانجليزى ، كان الاقتصاد رهين الاستعمار والقوى المتحالفة معه . ولذلك فإن فشل التنمية الرأسمالية فى السنوات الاولى لحكم عبد الناصر ، يعد نتاجاً لترهل البناء الاقتصادى فى ذلك الوقت ، وانفتاحه وتحالفه مع المصالح الغربية ، عدا بعض النماذج المنفردة . ومع الاشتراكية ، تكون بناء اقتصادى على اسس غربية ، وظل فى يد الدولة ، مرتبطاً

بجهازها الإداري . وفي تلك الفترة ، قدمت الدولة فرص الترقى ، على نمط التحديث ، ولكنها كانت فرص منضبطة داخل سياق خطة الدولة ، وداخل سياق الاستقلال السياسى .

ولان الدولة فشلت - فى النهاية - فى القيام بهذا الدور والاستمرار فى ، فإن مجال العمل والاقتصاد ، انتقل تدريجيا ليد القطاع الخاص . ومن حيث الاساس التشريعى ، فإن هذا المجال تحكمه قواعد الاستثمارات الاجنبية ، ثم أليات السوق ، والتنافس الدولى ، وهكذا . أى أن الاسس نفسها تفتح الباب للنجاح ، بقدر تحقيق التفوق على معيار غربى .

هذا المناخ ، أثر كثيرا على الفئات الصاعدة فى المجتمع . فتاج الحراك الطبقي السريع الذى شهدته مصر فى السبعينات ، بدأت تصب داخل احياء النموذج الغربى ، وتوسيع قاعدة انتشاره . ورغم تغير معدل الحراك فى الثمانينات والتسعينات ، الا ان النتيجة واحدة فى النهاية . فهناك نموذج تم فرضه بالقانون ، ثم فرص للحراك السريع غير المنظم ، تدفع فى النهاية بالجميع للحاق سريعا بركب الطبقات الاعلى ، وامثال نموذجهم فى الحياة ، وهو ايضا نموذج التفوق العلمى والاقتصادى (٦) .

ان هذه العملية لم تضيف للواقع وكلاء جدد للغرب فقط ، بل اضافت انماطا مشوهة تخطط ملامح التراث بالنموذج الغربى ، فى اشكال ممسوخة . وذلك نتاج للتبنى السريع للنموذج الغربى ، ودون أصول عائلية ممتدة فى هذا الاتجاه . والغريب أن النظرة السائدة لهذه العملية ، تميز ثرى الحرب عن الارستقراطية ، مميزة فى ذلك النموذج الذى توارث مفردات العصر ، وملامح الغرب ، عن النموذج الذى يحتفظ بملامح التراث والغرب معا .

واذا كان تجار السبعينات قد مثلوا قوة دفع تجاه مزيد من الانفتاح ، فإن تجارة الاستيراد نفسها ، ومع ضعف الحالة الاقتصادية ، أصابها الركود ، وتحول التاجر الى صانع . وأصبح هو نفسه ينادى بعدم فتح ابواب الاستيراد لحماية للمنتج المحلى . والقضية ليست بالطبع فى الاستيراد، ولكنها مجرد نموذج هام . فالدولة وخضوعا لشروط صندوق النقد ، تعرض الصناعة الوطنية الناشئة للخطر ، ورجال الاعمال ، وهم من أهم وكلاء النموذج الغربى فى التحديث ، يضعون شروطا ما للتعامل . وان كان لذلك من دلالة ، فهو يكشف عن الادوار المتباينة ، بين الدولة والنخب . فجماعات رجال الاعمال ، تدفع نحو تطبيق النموذج الغربى ، ولكنها ومع تزايد قوتها ، تحاول أن تدخل بندية فى نادى الرأسمالية العالمى . ولكن الدولة فى المقابل ، تطبق الاجراءات الاصلاحية الغربية ، دون أن تكون وعاء حقيقياً للفكر الغربى ، ودون أن تكون

مؤهلة للمنافسة مع الدول والانظمة الاخرى . فمازال كيان الدولة خاضعا لتاريخه ، مرتبطا بمصالحه ، أكثر من كونه يخضع هو نفسه " للتحديث " .

على الجانب الاخر ، فإن جماعة رجال الاعمال ، تعمل من أجل نقل النموذج الغربى كاملا . فتنادى بالديمقراطية والليبرالية ، وتنظم نفسها كجماعة ضغط (٧) ، تعمل على تحويل جملة النموذج الحياتى المصرى ، الى نمط آخر حسب مواصفات النموذج الغربى (٨) . وتلك التباينات فقط مجرد تنويعات على نغمة واحدة ، ولكنها جزء من الصراع داخل النخب الحاكمة . فالدولة المصرية ، من حيث هى مؤسسة لادارة شئون البلاد ، تعلم ضمنا أن التغريب الكامل ، سوف ينهى عمرها فى قيادة مسيرة الحياة ، وسوف يفتح المجال أمام الديمقراطية بأحزابها ، ومن خلالها تصبح جماعات المصالح والمؤسسات الكبرى هى الحاكم الحقيقى ، من خلال تحالفها ، وتنافسها على أصوات الناخبين ، كما يحدث فى العالم الغربى (٩) . وهذا يعنى تغير فى تصور الدولة نفسها ، من النمط المؤسسى الادارى ، الى النمط السياسى ، حيث يعبر عن نفسه فى تحالفات رجال السياسة والمال والاقتصاد مع مؤسسات الحكم ، وشركات انتاج السلاح ، وغيرها . ويصبح الجهاز الادارى هو المنوط به تنفيذ ما تقره تلك التحالفات من سياسات .

وتلك القوة الاقتصادية الدافعة الى تغيير نمط الحياة ، والضاغطة على النظام السياسى ليسرع فى التغيير ، أصبحت حلقة الوصل ، ، أو حلقة وصل بديلة ، بين النظام الغربى ، والنظام السياسى فى مصر . وهى سمة هامة فى علاقات اليوم ، حيث نجد أن بين شرائح المجتمع ومؤسساته ، بعض القوى الهامة فى التحالف مع الخارج ، وهى احيانا بديل يراهن عليه الغرب ، عندما يكون النظام السياسى عقبة امام تطلعات الغرب لمستقبلنا ، ومستقبل العالم .

والامر لايتوقف عند هذا الحد ، فالمجال الاقتصادى أصبح من أكثر المجالات حساسية ، بسبب ذلك الكم الكبير من المفاهيم باعتبارها بديهيات علمية ، أو نتائج عملية لايدخلها الشك . ولان الحكومة قد أقرت التصورات الغربية الراهنة ، والتى يروج لها رسميا من مؤسسات الغرب ، فإن ذلك طرح تصور مشترك للعمل ، بين الدولة والغرب ، وبين النخب والغرب ، ثم بين الدولة والنخب . واقتصاديو اليوم ليس هم اقتصاديو الانفتاح فى السبعينات ، بل أصبحو أكثر نظاما وقوة ، وأصبح لهم معطى فكرى ، وطرح سياسى .

تلك العناصر معا ، والتي تفرقنا فى تفاصيل الاساليب الاقتصادية المثلى للتطور ، تدفع عجلة المجتمع نحو التغير السريع والمنظم ، وهو سريع رغم تدريجية القوانين ، لانه بمقياس التأثير ، يترك بصماته على المجتمع كله ، وعلى مستقبله ايضا . والحقيقة ، ان المهندس الحقيقى لهذه العملية هو عاطف صدقى رئيس الوزراء (١٠) . والذي يعد استمراره ، تأكيدا على استمرار الخطة حتى مراحلها النهائية . ولانتصور أن المراحل النهائية ، هى خفض معدل التضخم ، أو الخروج من الكساد الاقتصادى ، أو ارتفاع معدل الدخل القومى الاجمالى .. الخ . لان النتائج النهائية ، هى تغيرات هيكلية لافى بنية الاقتصاد فقط ، بل والاهم فى بنية المجتمع المصرى . وهو ما يسمونه البعد الاجتماعى للتنمية ، وهو فى تصورنا الاثر النهائى والحقيقى للتنمية . وترك هذا الجانب دون أن يتم تخطيطه ، ودون تحديد الشكل الاجتماعى الجديد لمجتمعنا ، هو تفكيك لخطة التنمية الاقتصادية من مضمونها ، وهدفها . فالتغير الاجتماعى هو الهدف النهائى ، لانه ببساطة هو التحول الى نموذج حياتى جديد يعبر عن نفسه فى الاشكال الاقتصادية التى يتم تشكيلها الان ، فتصبح التنمية الاقتصادية - بعد ذلك - افراز طبيعى لهذا النموذج الجديد . ولكن تغير المجتمع بهذه الصورة .، عمل مخوف بالمخاطر ، لانه ليس تغيرا للمجتمع حتى ينهض ، ولكن تغيرا للمجتمع حتى يتلائم مع النموذج المفروض عليه ، والذي لايعبر عنه ، وبالتالي فهو تغيير قصرى لبناء المجتمع ، ودفع عنيف للكيان الاجتماعى للامة ، نحو تحول يخرجها عن ذاتها ، ويخرج عن اطار كيانها التاريخى الحضارى ، وايضا كيانها الجغرافى .

## **صناعة عقل الامة**

**إلى المناخ الثقافى المعاصر ، هو المسئول عن صناعة مفردات عقل الامة ، وطرح** امكانيات اكتشاف مستقبلها . وما يحدث الان فى الوسط الثقافى ينذر بالكثير من الخطر فى المستقبل . والحديث عن عقل الامة ، له طبيعته الخاصة فالنخبة المثقفة هى فى التحليل الاخير ، تعبير عن احوال الامة كلها . وهى صورة مصغرة لكل ما يحدث فى حياتنا .

فإذا كانت اشكالية ازدواجية الموقف من الغرب ، هى الجذور التاريخية لتكون عقل الامة ، فإن أوضاع النخبة حاليا ، تطرح الازدواجية فى صورة مخيفة . فمفردات الخطاب الثقافى اليوم ، تقدم العديد من الصور المتباينة فى درجاتها . وكلها تتفق حول رفض الغرب وقبوله فى أن



واحد . وكأن الاختيار فى النهاية ، أصبح بين بدائل غربية ، واقتصرت القضية على أى بديل أفضل ، او ايهما يتيح لنا قدر من الوجود المستقل .

وأصبح من السهل أن تجد من ينادى بالديمقراطية ، ويهاجم امريكا لاستخدامها سلاح الديمقراطية للتدخل فى شئون الآخرين . وأخر يؤكد على توحيد الكون ، وسيادة النظام الشرعى العالمى ، ويرفض مسح الحضارات المحلية . وكأنها مشكلة وأزمة السباق العالمى ، التى تدفعنا للدخول سريعا فى تيار العصر وفى نفس الوقت الخوف من أن يجرفنا التيار فينتهى وجودنا من خريطة العالم .

لقد أصبح الغرب ، فى عقل الامة ، ضرورة نتوحد معها ، وضرورة نهرب منها ، وبقدر شدة الاتجاه نحو التوحيد والهرب معا ، بقدر ما تزيد أزمة العقل ضراوة ، وبقدر ما ينبئنا بخطورة المستقبل . فالتوحد مع نمط الحياة العالمى ، والهروب فى هيمنة الغرب ، هو درب من المستحيل . فكلاهما جزء من منظومة واحدة .

إن اشكالية النظام العالمى الجديد ، أو الكونية العالمية الواحدة ، نبتت من سيادة امريكا اولا ، ثم من سيادة نمط التقدم التكنولوجى الاقتصادى ثانيا . ولكن الاطروحة تخلط بين التصور المثالى ، لكون واحد منظم متعاون ، وبين تنميط العالم على النموذج الغربى . فالمطروح على الساحة الان ، هو تنميط العالم ، او اعادة تنشئته حضاريا ، فى نموذج واحد ، تحت هيمنه غربية / أمريكية .

أما اعادة تنظيم العالم ، فى سياق التعددية ، فهى فكرة تحتاج منا أن نتبناها ونضيف لها معانى جديدة . فتصور العالم فى سياق التعدد الحضارى ، والتفاعل الدولى المنظم ، يمكن أن يكون شكلا جديدا ، يحول الصراع الاستعمارى النزعة للتنافس الحضارى ، لعالم متعدد الحضارات ، ومتعدد النماذج .

ولكن معطيات الواقع ، تؤكد على مثالية الصورة السابقة ، وان ما يحدث الان ، يفترض فيه أن يكون وسيلة لتسييد النمط الغربى ، وفى افضل التصورات ، هو تسييد لهذا النمط من أجل رخاء العالم أجمع ، وان كان الثمن هو التضحية بالتميزات الحضارية . وهى فكرة تصور النمط الغربى على انه نهاية انجازات البشرية . ولا اتصور لإنجازات البشرية من نهاية ، الا مع نهاية الحياة على كوكب الارض .

أما تصور المستقبل باعتباره يتجاوز للتميز الحضارى ، فهو تصور يتجاوز قوانين الطبيعة نفسها ، ويتجاهل قوانين الجغرافيا ، ومهما كان دور التكنولوجيا ، فلن يكون توحيدا للظروف الجغرافية على مستوى العالم ، الارض والماء والمناخ ، وبالتالي فإن صناعة الانسان الاقتصادى العالمى ، ليست الاتميطا قصريا لجموع المنتمين للحضارات الاضعف .

ان المشكلة الحقيقية ، فى النخبة المثقفة انها تطرح فى الواقع المشكلة ، ولا تقدم طرحا تقود به الامة فى المستقبل . فالخطاب الثقافى المعاصر ، يقدم مفردات الحلم الغربى ، مع تحفظات محلية ، هى ربما تحفظات من أجل دورنا العالمى فى هذا الخطاب ، او تحفظات من أجل التحذير او التنبيه من احتمال سقوطنا فى نموذج يفقدنا كل ما يميزنا .

ولكن جملة مفردات الخطاب الثقافى ، جعلت من الصعب ، وربما من المستحيل ، ان نميز بين نظام القيم الخاص بنا ، واى نظام قيم اخر ، وجعلت مفردات الحوار نفسها ، تخرج عما تحمله من دلالات اجتماعية تاريخية ، لتصير بعض مفردات اللغة العربية حاملة لمفردات النموذج الغربى .

وتمتد تلك المشكلة الى المجال العلمى ، الذى وقع اسيرا للمناهج الغربية ، فاصبح وسيلة لا لاكتشاف حضارتنا ، أو لاكتشاف انفسنا ، بل وسيلة لقياس اوضاعنا على المعيار الغربى ، اى قياس درجة نمونا ورشدنا تجاه تحقيق النموذج الغربى . فالعلم الموضوعى المعاصر ، متحيز للحضارة التى خرج منها ، ومتحيز للنموذج الذى وجد من أجل تطويره . ولذلك أصبحت لغة " مؤشرات التقدم " من أشد اللغات خطورة ، فهى تسمح بقياس التقدم على معيار واحد ، متحيز أصلا ، وغير متلاءم مع الطبيعة الاجتماعية للمجتمع المصرى . ولذلك فقدت الالية العلمية دورها ، باعتبارها احد عناصر النهضة ، واسلوب لتقنين معارف الامة عن نفسها وعن مستقبلها . كذلك فقدت الالية العلمية قدرتها حتى عن كشف نتائج الاصلاح الاقتصادى الحالى ، على بنية المجتمع المصرى فى المستقبل .

مع هذا فإن النخبة المثقفة ، مازالت تجادل حول مفردات المستقبل ، وحول شروط الانضمام لنظام الكون المفتوح ، ومازالت تتحفظ تجاه تجاهل تراثها . وهو استمرار لانبجاسات ثقافية طويلة ، عبر القرن العشرين ، تلك الانبجاسات التى تعبر عن نفسها - فى تصورى - فى الادب والفن بمختلف روافدهما . ففى مجال الادب والفن ، هناك عشرات النماذج التى تعلمت من فنون الغرب ، واخرجت فنا مصريا عربيا صادقا . ولعل نجيب محفوظ ، يكون رمزا لذلك ؛

فمحلية ادبه التي يتحدثون عنها ، هى فى النهاية تعبيراً صادقاً عن ذاتها الحضارية . ولم يكن نجيب محفوظ ، عبر تاريخه ، نجماً فى وسطنا الثقافى ، لانه كان فى نظر البعض يقدم فناً شعبياً ، وللأسف فقد رفعنا قدره ، بعد اعتراف العالم به . وللأسف ايضاً فإن تجربته لم تنل حظها من الدراسة ، وتحولت المعارك حوله فى نطاق ذلك الصراع التقليدى فى مناخنا المعاصر ، اى الصراع بين العلمانية والدينية . فى حين أن نجيب محفوظ ، يطرح فى تصورى ، اشكالية الخصوصية الحضارية فى مواجهة التغريب ، وهو على اية حال ، جزء هام من الظاهرة الادبية الفنية ، التي استخدمت منجزات الآخر ، فى صنع انجاز " محلى " يعبر عنا بصدق .

## **المجتمع المدني**

**إدريس الحبيب** عن المجتمع المدني ودوره فى التنمية والتقدم ، ودور المؤسسات الاهلية فى مستقبل مصر ، يفتح المجال أمام دراسة دور المجتمع ، وكذلك أمام إطلاق قوى المجتمع . وأمام ذلك التعبير " المجتمع المدني " ، عبر كثير من الفرقاء عن تحيزهم للمصطلح ، وظلت بعض المخاوف كامنة .

والغريب أن النخبة عندما أطلقت هذا المصطلح ، كغيره ، أطلقتته بسبب تزايد الاهتمام " العالمى " بالمصطلح وتخصيص قدر كبير من الاهتمام به . وإذا تابعنا مصدر المصطلح ، فإن المخاوف الكامنة ستنفجر . فنتصور اننا نبحث عن الفرصة الضائعة ، فرصة خروج نخبة تقود الامة نحو التطور . ولكن الحديث عن المجتمع المدني ، جاء من خلال دراسات غربية ، فتحت هذا المجال ، اعتقاداً منها ان قوى المجتمع المدني ، قد تكون من أهم عناصر " ديمقراطية " العالم و " تنمية " العالم . ومرة أخرى يصبح المجتمع المدني أحد وسائل ترويج النموذج الاوحد . بل ان ذلك تواكب مع رغبة المؤسسات الدولية فى التعامل مع المؤسسات الاهلية ، وتخصيص مزيد من الاموال لها .

فالمجتمع المدني فى التصور المعاصر ، هى نخبة نشطة شعبياً ومنظمة ، تدفع المجتمع لتبنى الديمقراطية . فى حين ان دول العالم الثالث ، تتوقف عند شكل الديمقراطية أكثر من مضمونها . كذلك فإن المجتمع المدني يشمل المؤسسات الاجتماعية ، التي أصبحت تمثل محرك مهم لعملية

التنمية . وفى نفس الوقت ، فإن الدولة تقتصر على اجراء التنمية ، دون ان تركز على " قيم " التنمية .

وتواكبت تلك الموجه ، فى مصر ، كما فى غيرها ، مع ضعف الانظمة الحاكمة ، وضعف تأثيرها الجماهيرى . واذا كان ضعف المؤسسة يدفع المجتمع للحركة ، كما فى ثورة ١٩١٩ ، فإن ضعف المؤسسة الان ، دفع لتحريك الشعوب من خلال التعامل المباشر مع المجتمع ، ومع التخطى النسبى للدولة . وايا كانت درجات تحقق هذا التصور ، فهو ينطوى على مخاطر كثيرة . لانه يعنى دفع المجتمع نحو التنميط الكامل من الدولة والنخب والمؤسسات الاجتماعية والاعلامية ، اى انها عملية تنميط شامل ، وهى ايضا عملية " غسيل مخ " متكاملة . ومن جانب اخر ، فإن دفع عناصر مختلفة من قبل الغرب داخل المجتمع ، قد يودى الى تعجيل تفككه ، وخلق صراعات حادة داخلية ، خاصة عندما يتخلف فريق عن عملية التنميط ، وينقلب عليها ، وخاصة اذا كان هذا الفريق هو الدولة / المؤسسة نفسها . فهنا ستأتى قوى التنميط من تكوينات اجتماعية ، وتدفع فى اتجاه الرؤية الغربية ، وضد كيان الدولة . وان لم تحدث الصورة بهذه الحدة ، فالعملية نفسها ، تضيف تفكك جديد ، وضعف جديد لكيان الدولة (١١) .

وهكذا ، فإن التحول للاهتمام بالمجتمع المدنى ، ومؤسساته ، ليس الا تحولا فى القنوات والاساليب ، ودفعاً للديمقراطية والتنمية ، من خارج نطاق الدولة ونفوذها ، ومن خارج النخبة الحاكمة . وهى محاولة تؤكد على أن الغرب يتصور للانظمة الحالية بديل ، فى نخب جديدة ، وجماعات ضغط ، تكون قادرة بحكم توحيدها مع النموذج الغربى ، على تحقيق التنميط الكامل ، ونزع الاشكال التقليدية والتراثية .

فالمجتمع المدنى الصاعد اليوم ، هو النخب الليبرالية ، التى تدفع فى اتجاه طرح الليبرالية كتصور مستقبلى لمصر . وتدفع الحكومة نفسها لمزيد من الاندماج السريع ، مع مفردات النموذج . ولهذا ظهرت على السطح ، نخب ورموز ومؤسسات ، أصبح لها دور متزايد ، وأصبحت قادرة على إكتشاف مساحة معقولة لحركتها . والحكومة هنا ، تؤيد أحيانا ، وتتخوف أحيانا اخرى . فهى تؤيد لان الدولة والنخب وقوى المجتمع المدنى ، تعمل فى نفس الاتجاه . ولكنها تتخوف من منافسة القوى الاخرى ، لقوة المؤسسة ، أو صعود النخب الجديدة لتكون النظام السياسى الذى يحكم المؤسسة نفسها ، ويهمش النخب الحاكمة الآن ، والتى تدير شئون المؤسسة ، وتمارس سيطرتها على شئون البلاد .

واذا كان الحديث عن المجتمع المدني ، فأين الجماهير ، أعني ملايين المصريين . ان الرهان على حركة المجتمع المدني ومؤسساته - فى تصورى - هو رهان على كسب الجماهير فى صف عملية التنميط ، فلا تبقى كمجرد مشاهد ينتظر ما يتحقق من رخاء ، بل تصبح قوة تدفع فى اتجاه التنميط الكامل ، وفى ذلك ان تتنازل عن اشكالها التراثية ، وتندفع فى النموذج العالمى للحياة ، محققة بذلك التطهير الحضارى .

ويبدو ان الجماهير ، ستكون الحكم فى النهاية ، فإذا قبلت نمط الحياة الجديد ، وقبلت النموذج العالمى للحياة ، متصالحة مع الغرب ، فإن التنميط سيتحقق وربما الرخاء . ولكن ان ظلت الجماهير ترى الحياة بمعنى مختلف ، وترى السعادة بمفهوم مغاير ، وترى المستقبل بأحلام خاصة ، فإن الصدام بين القوى الدافعة للحركة فى المجتمع ، سيكون عنيفا .

## نخبة الأمة

**إن الرؤية المباشرة للشارع المصرى ، تطرح عشرات الصور من التراث ، كما تطرح صور متنوعة للنموذج الغربى . وفى قلب المجتمع ، أو قاعدته ، أمة لها تراث ، ولكنها ممزقة ، وتعانى من ظروف الحياة الصعبة . وفى عقل المجتمع ، أو قمته ، نخبة مالت بدرجة أو أخرى الى التوحد مع النموذج الغربى . تلك هى الصورة ، وفى بساطة عناصرها ، تكمن واحدة من ملامح الازمة . فبين العقل والقلب ، وبين القمة والقاعدة ، شرخ يحمل الكثير من قصة الصراع ، ومشاهد التاريخ .**

فهل تحول النخبة المجتمع الى نموذج جديد للحياة ، أم تخرج من المجتمع نخبة تحمل هموم الامة معها ، وتخرج التراث القابع فى القاعدة ، وفى القلب ، لتصنع منه نهضة حقيقية ؟ وهل ندخل العالم الكونى الجديد ، كقوة حضارية تدفع نحو التعدد الحضارى ، وتقاوم الصراع الحضارى والتطهير الحضارى ، أم نستسلم للتطهير الحضارى ، ونوحد مع الانسان الاقتصادى العالمى ، المعطى النهائى ، والمشروع الاممى للحضارة الغربية ؟!

ان الاجابة على هذا السؤال تكمن فى محاولة ، يمكن ان نعتبرها رياضة للعقل ، والاصح انها رياضة للإرادة ، وهى محاولة النظر الثاقب داخل ذاتنا الحضارية ، وقيمنا ، وصور التاريخ ،



ونماذج الحياة المصرية والعربية ، وداخل الطبقة الشعبية ، والكيان الريفى ، وربما داخل قصص نجيب محفوظ عن الحارة المصرية .

فإذا خرجنا من تلك الرحلة بصورة للمصرى ، تؤكد أنه سلبى ومتخلف ومتبلد ، وكسول، وغير متحضر ، فإن ذلك يعنى أن عقل الامة قد انفصل عنها ، وعن قلبها ، وان سنوات التغريب الطويل قد نجحت ، وان التطهير الحضارى لن يفرض علينا ، بل سيكون اختيارنا .

ولكن اذا خرجنا من الرحلة ، بمعطى اخر ، عن كفاح المصرى وصلابته ، وقيم التضامن الاجتماعى ، والتكافل بين فئات المجتمع ، ودور الاسرة الخورى ، ومعنى الشهامة ، وعن النظم الاجتماعية المنظمة للحياة ، وعن الجماعة التى هى اساس الفرد ، والامة التى هى اساس الجماعة، فإن ذلك يعنى أهمية ان نعمل من اجل النهضة ، قبل ان نفقد اخر فرصة للنهضة .



## المشهور السادس

### الكنيسة ..... مؤسسة بلا أمة

**الكنيسة المصرية** ، ليست واحدة من مؤسسات المجتمع فقط ، ولكنها واحدة من اشكالياته ايضا . وهى رمز وموضوع معا ، فهى رمز للمسيحية والجماعة المسيحية فى مصر وهى ايضا موضوع يدور حول " القبطية " . وهناك مساحة فى الوعى ، بين " الكنيسة المصرية " و " الكنيسة القبطية " . والمساحة فى الوعى ، وفى الادراك ، وفى المفهوم ، قبل أن تكون مساحة فى حقائق الاجتماع ، رغم انها مساحة - ايضا - فى حقائق التاريخ .

والكنيسة المصرية تعبير غير شائع ، فلا يستخدم للإشارة الى الكنيسة الارثوذكسية أو الكنائس المسيحية الاخرى فى مصر . وبالطبع فإن أى من الكنائس المصرية ، لا يحمل فى عنوانه تعبير " الكنيسة العربية " ، فالمصطلح الاخير ، ليس فقط غير شائع ، بل هو ايضا غير جائز . واذا كانت الكنيسة الارثوذكسية ، هى " الكنيسة القبطية " ، فإن الكنائس الاخرى هى حسب التعبيرات الشائعة ، هى الكنيسة الانجيلية ، او البروتستانتية ، او المسميات الفرعية الاخرى . اما الكنيسة الكاثوليكية فهى " الاقباط الكاثوليك " .

وتلك ليست رحلة فى الاسماء ، بقدر ما هى رحلة فى العنوان ، الذى يشير الى المضمون ، او الذى يختار كتعبير رمزى عن دلالة اجتماعية وتاريخية . ولعل تعبير الكنيسة العربية ، يعد مدخلا ملائما لتحليل الكنيسة فى مصر . فذلك التعبير استخدم ، ويستخدم حتى الان ، للإشارة الى كنائس المشرق العربى . وفى ذلك اشارة الى تاريخ فكرة " القومية العربية " التى ظهرت كنتاج لتفاعل الشوام مع حركة التنريك . اذن فى القومية العربية ، حركة تميز عن الدولة العثمانية ، وحركة تؤكد هوية الشام فى مواجهة الامبراطورية العثمانية ، وتوجهاتها التوسعية .

ومع نشوء فكرة القومية العربية فى الشام ، ظهر معها نشاط واضح لمسيحي الشام (١) ، فكان منهم باقة من ألمع مفكرى الحركة ومنظريها . كذلك لمع منهم أسماء كثيرة فى قيادة

الحركة والانضمام لها ، عبر تاريخها الطويل ، الذى ظهرت اثاره فى حركة سياسية قادتها بعض احزاب الشام ، ومنهم حزب البعث العربى .

تلك التجربة ، تؤكد ان الكنيسة العربية فى المشرق ، قد اشتركت فى قيادة حركة ، تجمع عناصر " الامة " ، فى مواجهة تحديات العصر . ولكن حركة القومية العربية ، اهتمت فى المقام الاول ، بالاستقلال السياسى / اولا فى مواجهة التتريك ، ثم ثانيا فى مواجهة الهيمنة الغربية بمختلف صورها ، الامر الذى تبلور بعد ذلك فى المشروع الناصرى .

مع هذا ظلت القومية العربية ، وعاء لما يمكن ان نسميه التحديث المستقل ، وهو بمعنى آخر ، نوع من التغريب المستقل . فالقومية العربية ، حسب واقعها التاريخى فى المشرق العربى ، لم تكن وعاء لذاتنا الحضارية ، بقدر ما كانت وعاء استقلال سياسى ، فى مواجهة هيمنة الآخرين ، وهى بذلك وعاء حضارى للتحديث ، وهو فى التحليل الاخير ، مواكبة العصر ، على نمط النموذج الغربى .

ولعل ذلك هو السبب التاريخى ، لجدلية العلاقة بين العروبة والاسلام (٢). فالقومية العربية، حملت الجماعة ، دون أن تحمل تراث الجماعة ، فأصبح مضمونها هو العلمانية الغربية ، اما الاسلام ، فيحمل الجماعة ، ومعها تراثها وذاتها الحضارية ، فيصبح حركة للاستقلال السياسى والحضارى معا . نتصور اذن ، ان المضمون العلمانى الغربى ، لفكرة القومية العربية ، هو الذى اقام مساحة للجدل حول العلاقة بين العروبة والاسلام ، أما الرؤية التاريخية الواعية ، فهى تعلمنا ان العروبة هى وعاء حضارتنا ، ووعاء الاسلام ، كما ان الاسلام وعاء العروبة وحضارتها معا . بمعنى اخر ، فأن الاسلام دين ، ولكنه فى ذات الوقت تجربة تاريخية ، ونظام للقيم ، وتلك التجربة وذلك النظام ، هو تعبير عن جملة عناصر متلاحمة ، صنعت الحضارة ، وصنعت المحيط العربى الواسع ، وايضا نقلت الذات العربية ، كاطار مرجعى عام ، لكل الدول الاسلامية غير العربية (٣) .

من هنا كانت القومية العربية ، بمضمونها الحضارى الجديد، تنتمى الى ايمان مفكرى العرب، بأن التحديث هو وسيلة التقدم. وما كان بالامس مقبولا، لم يعد اليوم كذلك. ففى ذهن الامة، فان التحديث عملية من عمليات التقدم، لا ترتبط بالضرورة بحضارة معينة، ولا بحضارة المصدر. واذا صح هذا الفهم فى القرن التاسع عشر، فإنه لم يعد صحيحاً فى نهايات القرن العشرين. فقد بات واضحا ان التحديث ينقل معه حضارة الغرب بدأ من الآلة حتى القيم.

ولعل الجدل حول العلاقة بين العروبة والاسلام ، والذي ينتهى دائما بانها جوهر واحد ، لعل هذا الجدل كان محاولة للمصالحة بين حاضر الامة وماضيها ، ومحاولة ايضا للمصالحة بين مختلف القوى التى تنادى بالاستقلال ، وتعتبر الكفاح طريقها للنهضة ، ولكن هذا الجدل لم يدفعنا الى حقيقة الاختلاف الحضارى ، لا بين العروبة والاسلام ، ولكن بين القومية العربية كمشروع ، والاسلام كمشروع . فالاختلاف الحضارى بين كلا المشروعين ، هو اصل الانشقاق بين الحركات الممثلة لكلا المشروعين .

إن تلك الصورة تدفعنا ، رغم عنا ، الى الاقتراب من خط المواجهة ، أو من المنطقة المخطورة . فالعلاقة بين المسلم والمسيحى فى عالمنا العربى ، هى علاقة أخوة ، افترق بهم طريق الحياة . وهى بمعنى اكثر تحديدا ، علاقة التماثلين حضاريا ، وغير التماثلين فى الموقف الاجتماعى السياسى . والخطاب الراهن ، فى الساحة المصرية خاصة ، يحاول أن يؤكد التماثل والوحدة ، كإطار مرجعى ، دون أن يعالج أهم قضية ، وهى تأثير هذا الاطار المرجعى رغم وجوده . فإذا كنا نواجه الان ، حسب أطروحة هذا الكتاب ، عملية تطهير حضارى واسع النطاق . فعلىنا اذن ، أن نواجه كل الجراح المؤلمة فى جدار الامة القوى ، فتلك الجراح ، ليست الا التصدعات ، وهى بالتالى بداية تصدع الجدار ، ويمكن ضعفه ، وأول مراحل سقوطه . انها المواجهة التى دفعتنا لكتابة الصفحات السابقة ، وتدفعنا لكتابة الصفحات التالية ..

والطرح القومى العربى لمفكرى الشام ، هو تزواج بين النزعة التحديثية فى تاريخنا ، مع الرغبة فى الاندماج من قبل مسيحى الشام . فالقومية العربية بالنسبة لمسيحى الشام كانت الغلاف الذى يضمهم مع أخوانهم ، من اجل الاستقلال والتحديث . ان الجامع هنا ، كان القومية العربية كوعاء للاستقلال الحضارى ، والعلمانية ، والتحديث ، والتقدم على النمط الغربى كمضمون للحركة . لذلك ، ليس غريبا ان نجد دور لمدارس الارساليات البروتستانتية الاجنبية ، فى حركة القومية العربية ، وليس غريبا ان تظهر بعض جماعات هذه الحركة فى أوساط متأثرة بالغرب (٤) . وأصبحت الحركة فى حد ذاتها ، مؤشرا على ان العلمانية الغربية ، يمكن أن تكون وعاء لوحدة الامة المستقلة ، مسلميها ومسيحييها ، من اجل الاستقلال عن الغرب .

وهنا اشكالية التعارض ، أو ازدواجية الموقف من الغرب ، وهى ليست ازدواجية فى الكلمات ، ولكنها ازدواجية فى الموقف السياسى والحياتى ، فالتحديث على النمط الغربى ،



يؤدي بالضرورة الى تبعية الغرب ، بل هو افضل وسيلة لاختضاع الشعوب للهيمنة الغربية . ولكن حركات التحديث التى بدأت فى الماضى ، تواكبت مع فكر الهيمنة العسكرية الاستعمارية . ففى ذلك الوقت ، لم يكن الغرب يستخدم اعادة تنميط العالم حضاريا ، كوسيلة للهيمنة . وهو ما اعطى مساحة لوجود التحديث والاستقلال معا ، تلك المساحة التى ضاقت ، ومازالت تضيق ، حتى اصبح التحديث هو طريق التطهير الحضارى ، ثم تنميط العالم تحت المظلة الغربية .

لهذا سنجد أن فكرة " القومية العربية " ، كمحرك لحركة الاستقلال ، تضعف تدريجيا ، حتى تنوارى ، وتظهر فكرة " الاسلام " كمحرك لحركة الاستقلال . ولعل ظهور الحركة الاسلامية ، ورغم تعدد اسبابه ، يعد مؤشرا لتنامى حركة الاستقلال فى عنفها وجمودها . فالاسلام ، الحضارة والقيم ، هو وعاء حافظ للتراث . والعودة للاسلام ، هى بتعبير أو آخر ، عودة للوعاء النقى للحضارة . هكذا اصبح الاسلام سلاح ضد التغريب ، وفكرة مقاومة للتغريب ، يصعب او يستحيل اختراقها . لذلك جاءت الحركات الاسلامية ، ينزعة اصولية متشددة ، وصلت الى جمود عنيف مع تطور الحركة عبر الزمن ، فأصبح " الجمود " و " العنف " ، افضل الاسلحة للصمود فى مواجهة التطهير الحضارى ، ولكنها ليست افضل الاسلحة لتحقيق النهضة . فحركات الغضب الاسلامى المعاصرة ، هى حركات مقاومة ، قبل ان تكون حركات نهضة .

وهذا التحول من مرحلة المقاومة تحت مظلة " القومية العربية " ، الى مرحلة المقاومة تحت مظلة " الاسلام " ، يتفق مع العديد من الاطروحات المتقدمة ، ومن مسيحي الشام ايضا ، حول العلاقة بين القومية العربية والاسلام . فبعض مفكرى حركة القومية العربية ، ومنهم ميشيل عفلق ، اكتشفوا أهمية المكون الاسلامى باعتباره وعاء حضارياً ، يجعل من القومية العربية (٥) ، حركة استقلال سياسى وحضارى معا . وهو إكتشاف يؤكد ضمنا ، ان الاستقلال السياسى ، لايجوز بدون استقلال حضارى .

ومن هنا تكمن ازمة الخوف من المكون الحضارى الاسلامى ، لدى مسيحي الامة ، فإذا كانت القومية العربية ، هى صمام اطار الامان لدى مسيحي الشام ، فإن القومية المصرية ، هى صمام اطار الامان لدى مسيحي مصر . وفى العقل المسيحي المصرى الارثوذكسى ، تظل " القبطية " هى الاطار الجامع للجماعة المسيحية ، وهى وشائج الصلة بالقومية المصرية ، اى المعبر

الذى يربط المسيحي بالمصري غير المسيحي . فالقومية العربية ، كانت مفهوم موحد فى المشرق العربى ، يترك وراءه اشكالية العلاقة بين العروبة والاسلام ، اما القومية المصرية ، فكانت المفهوم الموحد فى مصر ، النابع من تجربة الوفد فى ١٩١٩ وما بعدها ، وهو يترك وراءه اشكالية العلاقة بين المصرية والعروبة والاسلام .

وفى مصر ، كانت ومازالت ، الفكرة القومية العربية ، هاجساً لدى المسيحي ، بإعتبارها فى احسن الاحوال معبرا الى الفكرة الاسلامية ، ولن تكون بديلاً عنها . والحقيقة ، ان تاريخ الامة ، يؤكد ان المصرية معبر للعربية ، والاخيرة معبر للاسلامية ، وكلها عناصر واسماء واطر ، يتشكل منها وعى الامة بانها امة ، ولذلك فانها توجد معا عندما توجد الامة نفسها .

## أمة الكنيسة

**فالى أمة** تنتمى الكنيسة المصرية ، فإذا كان الحديث عن الكنيسة القبطية الارثوذكسية ، فإن الاجابة أوضح من أن نبحت عنها ، فهى تنتمى حسب الاطروحات السائدة الى الامة القبطية ، التى هى امة / جماعة فرعية ، لها تاريخها الممتد المتصل ، عبر القرون ، تحفظ بداخلها تراثها ، كما انها تحفظ الاستمرار والتواصل للقومية المصرية ، لذلك فهى درع واقى ، ومدافع عنيد ، وجزء اصيل من الاستمرار التاريخى للقومية المصرية . ولهذا فهى جزء من القومية المصرية ، ولكنها لاتذوب تماماً ، ولاتنصهر كلية ، بل تظل " امة قبطية " ، باعتبارها فى لحظة ما من التاريخ كانت " كل القومية المصرية " ، والان هى " جزء " القومية المصرية ، الاكثر صلابة والاطول عمراً .

تلك الرؤية تشرح لنا ، مفردات الخطاب القبطى ، فهو من أكثر الخطابات غموضاً فيما يخص تميزه واندماجه مع المجتمع . فالحديث عن التاريخ والتراث القبطى ، والحديث ايضا عن الامة واللغة القبطية ، وكذلك الحديث عن رموز التاريخ القبطى ، والدور القبطى فى السياسة المصرية ، ودور الاقباط فى حياة المجتمع ، كلها فى النهاية احاديث تميز الجماعة القبطية عن المجتمع .

أما الحديث المتصل عن وحدة عنصرى الامة ، ووحدة الوطن ، وأن الاقباط جزء من الوطن ، وانهم أخوة للمسلمين ، وهم بالضرورة أقباط ، والقبطية لاتعنى الا المصرية ، ولذلك

فهم عنصر متحد مع الامة ، أم هم كغيرهم ممثلين للامة ، دون ان يكونوا عنصرا ، كل تلك العناصر والتعبيرات ، تؤكد بشدة على الوحدة والاندماج . هنا يصبح التمييز مؤشرا ، والاندماج مؤشراً ثانياً ، فتصبح الجماعة لها كيان ، وهى أمة " صغرى " ، او أمة " فرعية " ، وهى ذات الوقت تعبيرا عن الامة " الاكبر " ، أو الامة " الرئيسية " ، وفى كل الحالات نحن نتكلم عن الامة القبطية ، ثم الامة المصرية ، والقبطية هى الارثوذكسية ، وهى المصرية معا ، وفى شق منها تؤكد التمييز ، وفى شقها الاخر تؤكد الاندماج .

وبين التمييز الانفصالى ، والاندماج الالتحامى ، عنصر هام يحرك الخطاب القبطى ، ويحرك الفعل القبطى . انه العنصر الرابط بين " القبطية " و " المصرية " ، ليس طبقا للتاريخ ، بقدر ما هو تعبير عن الاختيار السياسى المعاصر . وهذا العنصر ، ليس الا العلمانية الغربية ، والتحديث . وهى نفس اشكالية القومية العربية لدى مسيحي الشام . ولكن حساسية مسيحي الشام تجاه الفكرة الاسلامية ، أقل بكثير من حساسية مسيحي مصر تجاه نفس الفكرة . فالإطار الجامع لدى مسيحي الشام هو " العروبة " وليس " الشامية " ، وبالتالي فإن المساحة الفاصلة بينهم وبين الفكرة الاسلامية ، أقل من نظيرتها لدى مسيحي مصر ، فإطارهم الجامع هو " المصرية " ، والتي تأتى بعدها " العروبة " ثم يأتى " الاسلام " . ونجد لديهم خوف من الاولى ، وبعدها عنها ، نتيجة الخوف الحقيقى من الثانية ، ومحاولة تجنبها .

وإذا كان عرب الشام ، أكثر حساسية تجاه الاستقلال ، لانهم يمثلون أحد مداخل الامة ، واحد حدودها الخارجية ، فان ذلك يدفعهم الى تطوير فكرة الاستقلال ، فتظهر القومية العربية لديهم قبل ظهورها فى مصر ، ثم تظهر عملية الربط بين العروبة والاسلام ، قبل ظهورها فى مصر ، ولكن الاشكالية الحقيقية مازالت معلقة ، فالمشكلة فى الاستقلال الحضارى ، الذى يؤدى الى الاستقلال السياسى ، فى حين ان معظم الأطروحات تدور حول الاستقلال السياسى ، وتستخدم المفاهيم المساعدة عليه ، والتي تعطى للحركة عنوانها ، أكثر مما تعطى لها مضمونها . لذلك تستمر جدلية الاختلاف بين الأطر القومية ، وإطار العروبة ، والإطار الاسلامى . وتبقى أطروحات كل طرف مختلفة ومتباينة عن الآخر ، وتظل الامة ممزقة ، لانها مختلفة فى معاركها مع الآخر ، بدلا من أن تتوحد فى مواجهة الآخر . وهذا ليس حالنا فقط ، بل هو حال معظم حركات الاستقلال والتحرر ، التي تصبح مع الوقت فرق تتناحر وتفتح الباب امام القوى الغربية لتكون المساوم الاقوى ، الذى يستقطب احد التيارات ، ثم يتحالف

معها ، فيصبح التيار الحاكم ، دون ان يظل قوة تدافع عن الاستقلال . واكثر من ذلك ، نتصور ان الاختلاف بين التيارات الوطنية ، هو اختلاف حول مضمون الحركة ، وهو اختلاف حول العلمانية التحديثية الغربية ، وهو ليس اختلافا بين العلمانية والدينية ، بل ان هذا التصور ومعركته هو احد أهم وسائل تفريقنا وتفكيك مجتمعنا ، واكمال تطهيرنا الحضارى . فالمعركة بين العلمانية والدينية ، تحمل فى طياتها معركة مع تراثنا الحضارى نفسه ، وحين نحاول الانتصار على مانسميه الفاشية الدينية ، سنجد اننا انتصرنا على تراثنا ايضا ، وبتعبير ادق انتحرنا ، ولن تنفع هنا سلامة النية ، وحسن القصد ، والرغبة الوطنية ، لان الخطر ليس استعمارا ، ولا هو عسكريا ، بل يكمن فى التغير التدريجى ، لافكارنا وقيمنا ومبادئنا .

هنا جوهر الخطر . فالقبطية تدفع اولا الى عزل الجماعة ثم الى اعادة ادماجها مع المجتمع ، على محك العلمانية والتحديث . فتصبح بذلك وسيلة ، ومكون ، فى ركب عملية التغريب الكبرى التى نتعرض لها . وهى ليست ايدىولوجية تهدف للتغريب ، بل هى سياق حضارى ، وخطاب يهدف الى حماية الجماعة ، ولكنه يؤدى فى النهاية الى عزل " المصرية " عن امتها العربية الاسلامية . ويعرضها اكثر لمخاطر الذوبان فى عملية التنميط العالمى الغربى .

ويضاف لذلك ، اهتمام الغرب بالورقة التفكيكية ، ونقصدها بها ورقة الاقليات ، فالغرب يضع مشكلة الاقليات على جميع الموائد ، ويقدم لها حلا حضاريا غربيا . فهو يستخدمها اذن ، لدفع الدول نحو قبول عملية التنميط الغربى ، ويعتبر احوال الاقلية معيار لمدى ما تحقق من تطبيق الشروط الغربية . فكلما كانت الدولة تعترف " بحقوق " الاقلية ، كلما كانت تسير على النهج الديمقراطى السليم ، وكلما كانت تتبع قواعد حقوق الانسان .

بهذا تصبح الجماعة القبطية عنصرا يدفع نحو العلمانية الغربية ، بجانب انها ورقة يستخدمها الغرب للضغط على الدولة حتى تنطبق العلمانية الغربية . وهذا لايعنى ان الجماعة القبطية هى عدو الامة ، ولكنها عنصر لم يستطع بعد ان يكتشف الامة ، ودوره فيها .

ولايمكننا ان نهمل اثر الاضطهاد فى العصور الاسلامية ، على الموقف القبطى ، بل لعل هذا الاضطهاد هو المخزون الجمعى لدى الاقباط ، الذى شكل منهم جماعة / امة . واذا كان التاريخ القبطى يحفل بفترات ازدهار للعلاقة بين المسيحيين والمسلمين ، فهو يحفل ايضا بفترات من الاضطهاد الاسلامى للمسيحيين ، ويحفل بمحاولات مسيحية لتسييد الجماعة / الامة وتعظيم دورها واثرها ، على الاغلبية المسلمة .



والمشكلة فى التاريخ ، اننا لانقرأه اصلا ، نهائنا على ان نفهمه . والمشكلة فى واقعنا المعاصر ، اننا لانواجه القضية اصلا ، ونترك عناصرها تتفاعل ، فتأتى مرة بالوحدة ، ومرة بالفتنة . ويبقى عنصر العلمانية / التحديث ، كمحرك اساسى لمشاهد الحاضر ، وربما المستقبل . فالتعاطف القبطى الشعبى لم يكن من نصيب عبد الناصر ، فلاشتراكىة من جانب ، والقومية من الجانب الاخر ، ظلت هاجس فى الوعى القبطى . والتعاطف مع السادات جاء مواكبا للانفتاح الاقتصادى والانفتاح على الغرب ، وانتهى مع بروز الفكرة الاسلامية فى خطابه . ثم عاد التلاحم اخيرا ، بعد حرب الخليج . والدخول مع عملية التغريب الواسعة . بل ان التلاحم زاد ، عندما تحولت معظم القوى من الحرب من أجل المستقبل ، الى الحرب مع التيار الاسلامى المسلح .

وهكذا تندمج القومية المصرية ، مع القبطية كلما كان المشروع تحديثيا علمانيا ، وتنفصل عنها ، كلما كان المشروع استقلاليا تحت مظلة عربية ، أو اسلامية . وهنا اصل المشكلة فى أمة الكنيسة . فالامة المصرية ، التى تعمل من اجل العلمانية والتحديث ، ليست امة بأى معنى من المعانى ، بل هى مجرد " طرف " فى نظام عالمى ، لم تنشئه ، وليس لها فيه اسهام ، وليست قوة مهيمنة فيه ، بل هى مجرد " تابع " .

وتلك ليست فقط مشكلة الكنيسة ، بل هى مشكلة البناء الفوقى للمجتمع ، مشكلة الدولة والنخبة ايضا . وهى مشكلة النخبة العلمانية المتغربة على وجه الخصوص . فالعلمانية الغربية ليست ضد الدولة الاسلامية ، بل هى ضد الحضارة العربية نفسها ، وهى ضدها لانها تختلف معها فى المضمون الحضارى وتختلف معها فى القيم .

أتصور ، فى ذلك ، ان " الدنيوية العربية " هى تيار بديل عن " الدينية الاسلامية " ، وكلاهما ينتمى للحضارة العربية الاسلامية . فالدنيوية تنتمى للاسلام كحضارة وقيم ، والدينية تنتمى له كعقيدة . فإذا كنا بصدد تيارات تختلف حول " الدينية " ، فأتصور انها تيارات تختلف حول دور " العقيدة الاسلامية " فى الحياة . ولكن لايجب أن تكون تيارات مختلفة حول " الحضارة الاسلامية " ، والتى يمكن أن نسميها " الحضارة العربية " بعدا عن حساسية اللفظ . بمعنى آخر ، أتصور ان التيار العلمانى المصرى والعربى ، يحمل الحضارة العربية ، ويقف ضد تطبيق العقيدة كنظام سياسى ، وليس ضد تطبيق القيم والمبادئ . اما ان يكون التيار العلمانى



حاملا للحضارة الغربية فى وجه الدولة الاسلاميه ، فهو بذلك يحارب الحضارة ، يحارب ذاتنا الحضارية ، بكل اسمائها وعناوينها ، مصريه كانت أم عربيه ، أم اسلاميه .

لذلك فالطرح القبطى ، إن اراد فى خطابه ، ان يقدم نفسه جزءا لا يتجزء ، من القومية المصريه ، فعليه ان يقدم الحضارة المصريه ، والامة المصريه ، لان يقدم طرحا يتزاوج مع التحديث والعلمانية ، التى تقود للتنميط الغربى .

وحتى لا يكون الحديث نظريا ، نؤكد ان المصريه والعربيه الاسلاميه ، هى اطار حضارى واحد ، والمصريه هى حالة من العربيه ، والعربيه حالة من الاسلاميه (٦) . وای طرح حضارى مصرى ، هو طرح عربى ، وهو طرح اسلامى . والتاريخ الاسلامى ، بل والحضارة الاسلاميه نفسها ، تعلمنا أن مراحلها واطروحاتها تتراوح بين التطبيق العقائدى ، وبين الطرح الدنيوى . والدنيوية ، هى حصر لمجال تأثير العقيدة ، لا مجال تأثير الحضارة . والاسلام ، عقيدته وحياة معا، وفى الحياة قيم ، وفيها حضارة .

فإذا كان الاختيار بين الدينيه والدنيويه ، هو اختيار بين حضارتنا وبين الغرب فى واقعنا الراهن ، فهو حسب تصورنا ، وحسب اطروحات علمانية كثيرة (٧) ، اختيار حول دور العقيدة فى الحياة ، وليس اختيارا حول الحضارة ، فما موقف الكنيسة ، اليوم ، وغداً ؟!

## حضارة الكنيسة

**إلى إشكالية الحضارة لدى الكنيسة الارثوذكسية المصريه ، أعقد مما نتصور .** فالكنيسة تقدم نفسها بإعتبارها حامى المسيحية الشرقية ، فى مواجهة المسيحية الغربية ، التى هى الكاثوليكية اساسا . ولكن العودة الى التاريخ ، تضيف لذلك بعدا هاما . فالصراع فى المجامع المسكونية ، وحتى مجمع خلقدونية فى القرن الخامس الميلادى ، كان صراعا بين مدارس كنسية ، منها مدرسة روما وانطاكيا والاسكندرية ، وكان صراعا سياسيا حول أى مدرسة هى التى تقود الكنيسة ، وكان فى الوقت نفسه صراعا حضاريا ، بين المدرسة الهيلينية الشرقية ( البيزنطية الشرقية ) والمدرسة الهيلينية الغربية ( الرومانية الغربية ) . وهو صراع يتواكب مع انفصال المملكة الرومانية ، الى شرقية وغربية (٨) . وكانت الاسكندرية منارة للعلم اليونانى ، فالهيلينية،

ثم أصبحت ضمن الاطار البيزنطى الشرقى . ولهذا فإن مجمع خلقدونية ، قسم الكنيسة الى ثلاثة أقسام رئيسية ، هى الارثوذكسية الشرقية ( ومنها روسيا ) والارثوذكسية الشرقية القديمة ( ومنها كنيسة الاسكندرية ) والكاثوليكية الرومانية ( وفيها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ) ( ٩ ) . والارثوذكس الشرقيين ، مثل روسيا ، خلقدونيين ، أى وافقوا على مقررات مجمع خلقدونية ، مثلهم فى ذلك ، مثل الكنيسة الكاثوليكية ، وظل بين الاثنين إختلافات أخرى . أما الكنيسة الأرثوذكسية فى الاسكندرية فقد رفضت مع غيرها مقررات خلقدونية . وقد دار الحوار فى هذا المجمع حول طبيعة المسيح .

وما يهمنا ، ان الكنائس الارثوذكسية الخلقدونية وغير الخلقدونية ، قد عقدت إتفاقاً لتجاوز خلاف خلقدونية ، والاعتراف بانهما على اتفاق ، وهو ما يعنى اعتراف كل كنيسة ، بمسيحية الكنيسة الاخرى ، وهو يتضمن الاعتراف المتبادل بالطقوس التى تقيمها كل كنيسة ، خاصة العماد والزواج . وهذا الاتفاق ، هو إعادة لجمع شمل الكنائس الشرقية ، التى تأتى من الميراث البيزنطى الشرقى ( أى الكنائس الشرقية ، والكنائس الشرقية القديمة ) .

فى هذا السياق ، فإن الكنيسة الارثوذكسية المصرية ، تحمل ميراثا تاريخيا يعود للمكون الحضارى الهيلينى الشرقى . ولكنها لا تمثل " حضارة مصرية مسيحية أصيلة " .

والسبب فى ذلك ، يرجع للقرون الاولى ، التى ظهر فيها المكون القبطى ، وهو مكون عبر عن نفسه فى الفن القبطى الشعبى ( ١٠ ) ، وعبر عن نفسه ايضا فى المسيحية المصرية الشرقية ( ١١ ) ، التى كانت اجتهادات ترتبط بالنموذج الشرقى الجنوبى للمسيحية ، أى النموذج غير الهيلينى . ودون الدخول فى تفاصيل صفحات التاريخ ، فإن ذلك المكون القبطى غير الهيلينى ، لم ينضج ، ولم يصبح تيارا مسيحيا ، بسبب محدودية الفترة الزمنية التى عاشها ، وكذلك بسبب تكاتف كل الكنائس ، بما فيها كنيسة الاسكندرية ضد المسيحية غير الهيلينية .

وتلك قضية شائكة ، وتحتاج لمعالجة خاصة ، فهى احد مناطق الخطر ، وضمن مساحة غير مسموح بدراستها ، أو ابواب لايجوز فتحها . ولكن من التاريخ ايضا ، نعرف ان بعض مكونات الاجتهاد المسيحى غير الهيلينى ، قد تم ادماجها فى كنيسة الاسكندرية ، اى اصبحت من الانجازات التى استقطبت داخل الميراث المسيحى البيزنطى الشرقى لهذه الكنيسة ، مما أضاف لها تميز خاص ، عن مجموعة الكنائس البيزنطية الشرقية الاخرى . ومن أهم تلك الانجازات ، كانت " الرهبنة " ، حسب تصورنا .

فما هي حضارة الكنيسة المصرية ، كنيسة الاسكندرية ؟ هي فى الواقع ، ذلك الميراث التفاعلى ، بين الحضارة البيزنطية الشرقية ، وبين المنجزات القبطية خارج الاطار المدرسى للاسكندرية . أى انها نتاج تفاعل " المدرسة اللاهوتية " مع الشعب المسيحى نفسه ، ومع السياق المصرى ، ومع البيئة الزراعية . فى ذلك التفاعل ، أصبح للكنيسة ميراثها الهيلينى الشرقى ، وميراثها المصرى الشعبى ، ومنها أصبح " للقبطية " وجودا .

لذلك أصبحت " القبطية " عنوان خطاب موجه للآخر المسيحى ، وموجه للآخر المصرى . فهي مسيحية ارتوذكسية ( هيلينية شرقية ) فى مواجهة المسيحية الهيلينية الغربية ، وهي ارتوذكسية مصرية مسيحية ، فى مواجهة العربية الاسلامية . هي اذن ذات ابعاد دينية وقومية معا ، وهي ايضا ليست ممثلا للحضارة المصرية الخالصة نسبيا ، نظرا لوجود المكون الهيلينى الشرقى ، الذى ينتمى للحضارة الغربية ، ولكن لجناحها الشرقى ( ونموذجه روسيا ) .

ذلك الخليط الحضارى ، يطرح تساؤل حول فكرة القبطية ، باعتبارها معبرا للمصرية ، لانها حالة دينية حضارية خاصة ، مما يجعلها ليست اطارا لكل مصرى ، وكذلك يجعل المصرية اطارا لايشملها كلما برز المكون العربى الاسلامى ، واطارا يشملها كلما برز المكون الفرعونى . ولكن ذلك على مستوى الخطاب السياسى فقط ، أما على المستوى الواقع ، فإن المشكلة أعقد من ذلك .

فالمكون المصرى فى القبطية ، هو مكون ذو تاريخ خاص ، بدأ من العناصر المصرية التى أضيفت على المسيحية الهيلينية الشرقية لمدرسة الاسكندرية ، واستمر من خلال التفاعل مع العربية الاسلامية ، كجماعة فى مواجهة اخرى . ثم ظهر التراث المسيحى العربى فى كل انحاء الامبراطورية العربية ، وهو تراث قاومه المسيحية المصرية ، ولم تقاومه مسيحية الشام . فظل فى الوجدان القبطى اشكالية العروبة ، أما الوجدان المسيحى فى الشام ، فاندمج أكثر مع عروبه . فالقبطية اذن ، تقوم على الانقطاع التاريخى ، وتقوم على الاعتماد على الاصل الاول ، فيما قبل دخول الاسلام ، أى على الميراث البيزنطى الشرقى . أما على المستوى الخاص ، فأن الانقطاع التاريخى حدث من خلال خلق الكنيسة لاستمرار تاريخى خاص داخلها ، يحافظ على الميراث الاول لمدرسة الاسكندرية ، وظل الشعب المسيحى ، هو المعبر الحقيقى والمحرك الاول ، لدخول العناصر المصرية اولا ، ثم العناصر الاسلامية العربية ثانيا . وظلت الكنيسة فى كل هذه الحالات تتأرجح بين ميراث الاسكندرية ، وبين الذوبان فى المحيط الحضارى الخارجى ، وظلت

فى النهاىة تخشى الذوبان ، وتعتمد الجمود الميراثى وسيلة للحفاظ على التراث ، ولكن لم يحدث حفاظا على التراث بهذا المعنى ، فكان الورق يحفظه ، اكثر من العقول .

وعلى الجانب الاخر ، سجد المصرية فى المكون القبطى ، ترتبط بحضارة المجتمع المصرى ، عبر اجزاء منه دخلت فى المكون الحضارى الكنسى . وترتبط بحضارة المجتمع ، من خلال الشعب نفسه ، لكنها تمثل حالة خاصة ، نمت فى ظروفها الخاصة . فاجتمع المصرى اليوم ، فرعونى بالتاريخ ، عربى اسلامى بالواقع . فعبر التاريخ يتم نقل الحضارة من جيل لآخر ، وتغير ، وتتطور ، ولكنها تظل محافظة على جوهر مستمر ، ويتركز الانقطاع فى الفروع ، دون الاصول . وهكذا فنحن لانعرف الفرعونية ، ولكنها توجد بداخلنا ، من خلال ما وصل لنا ، من حضارة عربية اسلامية ، وهى كذلك بالاسم ، نسبة الى اسم آخر مراحلها التاريخية . وبهذا المعنى ، لاتوجد حضارة مصرية ، ليست عربية ، ولا اسلامية . ولا يوجد احتمال ، حول احياء الفرعونية ، فالحضارة لا يتم احيائها ، بل تصل اليها من جيل لآخر ، وما وصل اليها هو الحضارة العربية الاسلامية ، وهو الشكل الاخير لميراثنا التاريخى ، الذى يبدأ بالضرورة بالحضارة الفرعونية العظيمة ، ولكن الذى يحمل معه ، بالضرورة ايضا ، الحضارة العربية الاسلامية العظمى ، التى تبرز فى وعينا ، بقدر اقترابها من حاضرتنا . والتى يراد لنا الان أن نقطع عنها قرونا ، فتصير ماضى بعيد ، فنكتشف بعد ذلك أن ماضينا القريب ليس منا ، بل ينتمى لغيرنا ، ذلك ما نسميه بالتطهير الحضارى .

بهذا ، فإن " القبطية " معبر للمصرية ، عندما تكون المصرية علمانية ، ولذلك فإن التغريب كسياق عام للمجتمع ، يربط القبطية بالمصرية ، كأمة تتوجه نحو الآخر ، والتغريب الذى يحقق ذلك ، يؤثر على المجتمع اكثر من تأثيره على الكنيسة ، التنى يمكنها أن تضع خط فاصل ، يفصل فى الواقع بين الميراث الهيلينى ، الشرقى والغربى ، ويتيح لها قدر من الاندماج مع الآخر مع بقاء الفاصل الذى يمنع التعميط الغربى الكامل .

ولكن صورة الواقع ، تنبئ بغير ذلك ، فمع اختلاف الدرجة والسرعة ، فإن الدخول فى النمط الغربى ، هو النتيجة النهائية . وما تصمد امامة المؤسسة ، من خلال ميراثها ، ليس الا اطار اللاهوت والعقيدة ، أما فى مجال الحياة ، فشعب هذه المؤسسة يفرض عليها واقعا آخر ، وهو التعميط الغربى ، الذى سينال الكل الكنيسة والمجتمع معا .

هنا جذور المشكلة ، فالامة القبطية مشروع لم يكتمل تاريخيا ، وظل ميراثها المؤسسة ، وجماعتها . والقومية المصرية ، ليست مشروعا حضاريا متكاملا ، مادامت طرحا غير عربى ، وغير اسلامى ، بل هى فى النهاية علمانية وتحديث على النمط الغربى . فهل الكنيسة مؤسسة بلا أمة ؟

## القبطية .... !

**فماذا عن الجماعة القبطية فى مصر ؟** منذ ثورة ١٩١٩ ، تظهر توجهات هذه الجماعة بشكل واضح . وعبر الزمن يختلف دور الكنيسة من مرحلة الى أخرى ، ليظهر واضحا منذ السبعينات من هذا القرن . والبداية تظهر توجه الجماعة القبطية نحو العلمانية والتحديث ، تحت شعار المصرية . ويظهر بذلك توجهها نحو الاستقلال السياسى ، دون الاستقلال الحضارى . ولانستطيع تبين محاولات جادة نحو الاستقلال الحضارى ، كقضية محورية ، سواء من الجماعة القبطية ، أو من الكنيسة ، كما ظهر فى المشرق العربى ، فيما عدا بعض الحالات الفردية ، مثل أطروحات أنور عبد الملك (١٢).

فى هذا السياق ، نكتشف أن الجماعة القبطية ، أقل دخولا فى معركة الحضارة ، رغم دخولها فى معركة الجماعة نفسها . فعلى الرغم من ممارستها لقضية الاستقلال السياسى ، وعدم ممارستها لقضية الاستقلال الحضارى ، الا انها ارتبطت بقضية الدفاع عن الجماعة . وفى زمن ثورة ١٩١٩ ، اى فى تلك الحقبة عندما ضعف تأثير الكنيسة ، كانت الجماعة تحاول من خلال قيادات الاقباط السيطرة على الكنيسة عن طريق المجلس الملى العام . اما منذ حقبة السادات ، فان الكنيسة بقيادات من جيل الرهبان ، تسيطر على الجماعة القبطية .

إن تعبير " الامة القبطية " الذى ظهر مع بدايات القرن الحالى ، بصورة واضحة ، ليس تعبيرا عن الرغبة فى الانشقاق على وعن المجتمع المصرى ، بقدر ماهو تعبيرا عن الحفاظ على الجماعة فى كل الظروف التى تمر بها . وكلما زاد الصراع بين الجماعة والمجتمع ، كلما زاد التأكيد على هوية الجماعة ، وكلما قل الصراع ، قل معه ذلك التأكيد .

والجماعة القبطية ، التى انحازت لتجربة الوفد ، وما فيها من علمانية وتحديث ، هى ايضا الجماعة التى تنحاز حاليا ، لتجربة الاصلاح الاقتصادى والانفتاح على الغرب والعلمانية ،



والسلام مع اسرائيل .. وغيرها . وهنا سنجد ان الجماعة تحتفظ بالقبطية عنوانا لها ، وتندمج تحت شعار المصرية من اجل التنمية والتحديث . ولكن دون وجود معركة استقلال سياسى ، وهى معركة لم تعد توجد ، بعدما أصبحت التنمية والتحديث طريق الى النظام الكونى الجديد ، رغم انه حتى الان نظام للتنميط الغربى العالمى ، أو نظام للتطهير الحضارى .

فهل تضحى الجماعة القبطية بالهوية المصرية ؟ وكيف تحافظ الجماعة على هويتها ؟ الواقع ان الجماعة القبطية لاتضحى بالهوية المصرية للمجتمع ككل ، ولكنها تختار بين البدائل المطروحة وترفض أى بديل لا يكون الا بديلا مصرية فقط ، دون أن يكون عربيا او اسلاميا . ولذلك فقد رفضت البدائل الاسلامية ، واختارت البديل المصرى ، قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فكانت اقرب الى الوفد ، دون مشاريع الجامعة الاسلامية ، فى الاحزاب الاخرى ، ومنها الحزب الوطنى . ولذلك ايضا ، ورغم وجود عدد من الاقباط فى حركات مختلفة منذ ثورة أحمد عرابى ، الا ان الالتحام الحقيقى للاقباط لم يتحقق الا مع ثورة ١٩ وحزب الوفد . وفى ذلك الوقت ، كانت مصر تتأرجح بين الفكرة الاسلامية ، والفكرة المصرية ، دون وجود للفكرة العربية . وارتبطت الفكرة الاسلامية بالميراث الحضارى ، اما المصرية فقد ارتبطت بالعلمانية والتحديث . وفيما بعد ثورة ٥٢ ، وظهر الفكرة العربية ، فإن الجماعة القبطية لم تلتحم بقوة ، الا بالنموذج العلمانى التحديثى . ظهر ذلك من خلال مشاركة بعض الاقباط فى الحركة الشيوعية ، ومشاركة بعضهم فى حركة عبد الناصر الاشتراكية ، ثم ظهر الاندماج الاقوى منذ فترة حكم السادات ، مع النموذج الرأسمالى الغربى . واذا تصور البعض ان فترة حكم السادات وما بعدها ، تمثل فترة اضطهاد للمسيحيين ، وانعزال لهم ، فهذا التصور حاطى . فمنذ حكم السادات شهدت الجماعة القبطية بروزا على الساحة ، تحقق فى الثمانينات للجماعة ، وفى السبعينات للكنيسة . اما احداث العنف ضد الاقباط ، فهى جزء من صراع تيارات المعارضة المسلحة مع النظام ، ومع نموذج الحياة المعاصرة فى مصر . بل اكثر من ذلك ، نتصور ان التحام الاقباط فى النموذج العلمانى الغربى ، هو احد الاسباب لتزايد العداء تجاههم من المعارضة المسلحة ، وسبب تلك التصورات المفترضة عن المؤامرة القبطية . أى ان الموقف القبطى ، جعل الكفاح من اجل الاستقلال الحضارى ، ايا كان تقييمنا لادائه ، يعتبر الاقباط ضمن القوى المعادية له ، لالمتحالفة معه .

اذن نتوقع ان تنضم الجماعة القبطية ، لعملية الاستقلال الحضارى ، تحت الشعار المصرى فقط ، عندما توجد هذه الحركة على الساحة المصرية ، وعندما لا تكون ذات ابعاد عربية واسلامية ، او تكون ذات ابعاد عربية مانعه للعنصر الاسلامى . وذلك فى الواقع ، مستحيل ، فإى حركة للاستقلال الحضارى ، بهذا المعنى الشامل ، ستكون مصرية وعربية واسلامية ، فايا كانت مسمياتها ، فتلک هى عناصرها ، لانها عناصر حضارتنا ، التى ان اردنا ان نقيمها من جديد ، فسنتقيم - فى الواقع - نهضة مصرية عربية اسلامية ، نهضة امتنا .

ويبقى السؤال الثانى ، عن كيفية محافظة الجماعة القبطية على هويتها فى مواجهة الاخر المصرى ، والاخر غير المصرى . فالجماعة القبطية ، هى احساس بالذات ، وهو احساس مصرى فى عمومته ، يتبلور بالاحساس بالمؤسسة الكنسية . فخط الدفاع هنا ، تجاه الاخر غير المصرى ، يكمن فى الميراث الهيلينى الشرقى ، مع نزعتة ، أو مميزاته المصرية . وهذا التراث تحميه الكنيسة ، من خلال احتفاظها بمنطوق لاهوتى عقيدى مميز ، حتى وان كان هذا المنطوق لا يتفاعل مع حياة الاقباط انفسهم ، اى لا يجعلهم هيلينيين مثلا ، ولكنه يظل خطابا عقائديا حمائيا ودفاعيا ، يتغير بتأثير التجربة الحياتية للاقباط انفسهم ، من خلال تهميش بعض اجزائه . ولكن يبقى اللاهوت الارثوذكسى ، خط دفاع ضد الاخر ، خاصة الاخر المسيحى . ورغم تقارب خطوط كثيرة على المستوى المسيحى ، الا ان العقيدة تظل سلاح المؤسسة ويأتيها الاختراق بعد ذلك من جانب الممارسة الحياتية أو من جانب الشعب القبطى نفسه ، ونمط حياته .

تلک الصورة تؤكد اننا بصدد مؤسسة ، فى هيكلها الخارجى لا تتغير ، وفى خطابها العقائدى ، لا تتغير ، لكنها وفى الداخل ، تندمج وتتوحد مع عناصر اخرى ، هى المصرية فى التاريخ الماضى ، والذى اعطاها لقب القبطية وميزها عن الكنائس الشرقية الاخرى ، ثم هى الغربية فى التاريخ الحديث ، من خلال تغير نمط حياة الاقباط انفسهم ، وبسبب أن النمط الغربى ، كان خلال هذا القرن ، ومازال ، هو السياق الذى يخرج الكنيسة والاقباط للحياة العامة ، سواء مع وجود معركة سياسية للاستقلال ( ثورة ١٩ ) او مع عدم وجودها ( منذ السبعينات ) .

ولذلك سنجد الكنيسة القبطية ، ذات تاريخ طويل فى معارك الاستقلال تجاه الطوائف المسيحية الاخرى ، وتجاه الغرب المسيحى ، وكنائسه . ولكن موقف الكنيسة يضعفه ان ميراثها البيزنطى الشرقى ، أصبح جامدا ، فهو لا يتفاعل مع الحياة ، وليس ميراثا يمكن ان يحقق لها

النهضة لانقطاعها عنه . بل اكثر من ذلك فإن هذا الميراث ، يتحول الى خطاب عقائدى تمييزى، ولكنه ليس فاعلا اجتماعيا .

وتبقى المشكلة واحدة ، بالنسبة للجماعة والكنيسة ، فهي متميزة بحكم توجهها ، ولكنها تتأرجح بين التميز الجامد المنعزل ، والانخراط المنفتح التغريبي . أما نهضة الجماعة والكنيسة ، تلك النهضة الحضارية ، فهي غير ممكنة اذا كانت نهضة قبطية ، أى للمزيج القبطى فى حد ذاته، لانها ستكون انفصالا بغير رجعة عن المجتمع المصرى ، وهي مستحيلة اذا كانت جزءا من نهضة حضارية ، لان الفرعونية لن تعود حية ، ولان العربية والاسلامية لن تذهب ميتة . فإذا كانت الجماعة / الكنيسة تقف فى مواجهة " العربية الاسلامية " ، خوفا على مسيحيتها ، فإنها تعاني ايضا من مشكلة العلمانية والتحديث ، ولكن فى هذه القضية يختلف موقف الجماعة عن موقف الكنيسة . فالجماعة لاتخشى العلمانية ، على الاقل فى بعض فئاتها ، بل ترى انها حماية لوجودها فى المجتمع . وهي فكرة ناتجة عن التغريب ، الذى صور العلمانية باعتبارها الحل الوحيد لحماية الاقلية الدينية ، رغم وجود حلول اخرى فى حضارتنا وتاريخنا ، بعضها قد يكون دنيوى عربى اسلامى ، وبعضها اسلامى دينى .

وعلمانية الجماعة القبطية ، هي بالنسبة لبعض فئات الجماعة ، حالة المجتمع ، دون ان تكون حالة الجماعة / الكنيسة . ولكنها ، لدى بعض الفئات الاخرى ، الاكثر تحديشا وتغريبا ، هي حالة للمجتمع ، ويجب ان تكون حالة للجماعة / الكنيسة . وهنا تعود العلمانية ، كسلاح موجه للكنيسة ، بعد ان كانت شعارا تعمل من خلاله الكنيسة . ولدى الفئة الاخيرة ، فإن تحديث الكنيسة وعلمانيتها ، ومحاربة نزعتها الكهنوتية ، هدف يجب العمل من اجله . ولان تلك الجماعة ، صغيرة وقليلة الاثر ، لذلك فان المشكلة بين الجماعة والكنيسة مازالت محدودة . ولان هذه الفئة المتغربة ، كثيرة بين اقباط المهجر ، لذلك فإن المشكلة بين الكنيسة وجماعة اقباط المهجر ، أكثر حدة .

أما عن التحديث فقد اصبح سائدا لدى الجماعة والكنيسة معا ، وهو بالنسبة للجماعة مجال تفوقها ، وفرصتها فى النهوض وتحقيق الطموح ، وهو بالنسبة للكنيسة وسيلتها ، كى تنافس المجتمع والدولة ، وتنافس الطوائف الاخرى ، والمسيحية الغربية ، أى انه وسيلتها حتى تظل فى ذلك المشروع التحديثى ، منتمية للعصر ، ولاتحارب بدعوى جمودها وتأخرها .

لهذا تغير وضع اقباط مصر منذ عهد السادات ، فقد فتح امامهم المجال خاصة فى العمل الخاص، وفتح المجال امام اتقان فنون العصر ، والتفوق المهني ، وهو مجال اثير لدى الجماعة القبطية . واصبح اقباط مصر ، قوة تحسب لعملية التحديث ، ومع ضياع معركة الاستقلال ، أصبحت الجماعة قوة تحسب لعملية الانضمام فى النمط الكونى العالمى . ولم تظهر بين الاقباط قوى تقاوم عمليات التنميط الغربى الحضارى ، الا الرموز التى تنتمى للفكر الشيعى او الاشتراكى او للفكر التنموى الرأسمالى المستقل ، وكلها اطروحات غربية ، يميزها الاهتمام بالاستقلال السياسى والاهتمام بالتحديث معا . ولكن ظهور تيار داخل الاقباط ، يعمل من اجل النهضة الحضارية ، اصبح اشكالية لايمكن تجاوزها . وهنا خطر كبير ، لان نجاح التنميط الغربى ، او الدخول فى نمط عالمى لاحضارى ، سيتواكب مع نمو الجماعة القبطية ودفع قوتها للامام ، اما الدخول فى نمط التعدد الحضارى سواء نمط التعاون او نمط الصراع الحضارى ، فسيبعده دخول الاقباط فى مأزق كبير ، لان نمو الذات الحضارية لامتنا فى مواجهة الاخرين ، تعاوننا او صراعنا ، سيحمل الاقباط ثمن اشتراكهم كجماعة وكمؤسسة فى عملية التنميط الحضارى ، بالطبع ، كما سيحمل غيرهم ، من مؤسسات ونخب المجتمع .

## **الكنيسة والتحديث**

**فى عمق تجربة الكنيسة الارثوذكسية ، الكثير من مشكلات المجتمع ، ونظامه السياسى ، وان كان فى تجربتها مساحة من حرية الحركة ، وحرية الاختيار ، دون صراع دولى . كما حدث ويحدث مع الدولة المصرية . فهل لنا ان نعيد التاريخ ، تاريخ النظام المصرى ، مع تاريخ الكنيسة القبطية الارثوذكسية ، لنرى حكمة التاريخ نفسه ؟**

إن إعادة المشاهد وصور التاريخ فى حالة الكنيسة ، تعفينا من الكثير من الاعتبارات التى نقتناها فى المشهد الثالث ، أى فى مشاهد النظام السياسى . وإن جاز لنا أن نعقد مقارنة ، فهى لاتعنى التطابق ، بقدر ماتعنى كشف التوجه العام لتاريخ الكفاح من أجل المستقبل ، والصراع من أجل البقاء ، والحرب من أجل الاستقلال .

فإذا كان محمد على ، هو بداية تلك المشاهد ، فإن البابا كيرلس الرابع ، ابو الاصلاح ، هو بدايتها فى تاريخ الكنيسة ، وبين القبلة نصف قرن أو أقل ، وبينهما ايضا ما بين الدولة /



الاجتماع من جانب و الكنيسة / الجماعة من جانب آخر ، من مسافة فى توقيت الصراع ، دون أن يكون بينهما من مسافة فى مضمون الصراع ، وهى مسافة تقل وتزيد ، ويحددها فى كل الاحوال سقوط نظام وقيام آخر ، بالنسبة للدولة ، أو تغير البابا بالنسبة للكنيسة ، ويقتضى فتحوى الصراع ومشاهد التاريخ هدفنا الاساسى .

فمع عهد البابا كيرلس الرابع ، بدأت الكنيسة عصر التحديث ، وبدأت عهدها مع انماط التحديث واشكالية الغرب . واذا كان التحديث فى عهد محمد على ، لم يتجاوز حدود بعض الانماط والاساليب الفنية ، فهو فى عهد البابا كيرلس الرابع لم يتجاوز هذا الحد . بل إن تجاوز هذا الحد ، ليس الا دالة لمرور الزمن ، فالاقتباس المرحلى ، هو فقط البداية ، والمراحل التالية لا يحددها الا عنصر الزمن فى حد ذاته ، فإحلال نمط حضارى ، بدلا من النمط الاصيل ، عملية تستوعب الكثير من الزمن ، ولاتنجح تماما ، ولايهدف لنجاحها الكامل ، الا فئة قليلة ، ولكن بجأحها شبه الكامل ، أو المؤثر بقوة ، تحدثه قوانين التفاعل ، ومعايير الاجتماع ، لارادة الافراد .

وفى صفحة التاريخ ، سنجد اوراق عن علاقة البابا كيرلس الرابع بالكنيسة الارثوذكسية الروسية ، وغيرها من الكنائس الغربية (١٣) . وهى صفحة من التاريخ اصابها عوامل التعرية ، فأصبحت صفراء ، مهلهلة الاطراف ، باهتة الحروف ، لا تجلها الا فى الخزائن ، اوراق تتوارثها الاجيال ، فهى - ببساطة - صفحة لم يعاد نشرها ، وليس مسموحا أن تعاد طباعتها .

وتلك صفحة من التاريخ البعيد ، وغيرها صفحات من التاريخ القريب ، وكلها تقدم الآن فى ثوب جديد ، فتاريخ الكنيسة ، كتاريخ الدولة ، تكتبه اللحظة الراهنة ، وتمسح من على جبينه ذكريات ، اذا ادركتها الامة ، ما بقيت فى ثباتها ، وما استطاع احد ان يقف امامها .

وتاريخ الكنيسة الارثوذكسية حافل بالصفحات المطوية تلك الصفحات التى دفع ثمنها كل من حاول اعادتها للحياة . وستظل الكنيسة تعيش عصرا يحركها ، دون ان يكون عصرا تحرره ، طالما ظل التاريخ ذلك الماضى المجهول . وأكثر من ذلك ، ستظل الكنيسة تدفع ثمن أخطاء تعاد مع مرور التاريخ ، لانها لم تتعلم من التاريخ ، لانها ببساطة لاتقرأه .

وفى مشهد البابا كيرلس الرابع ، أول حركات الاصلاح ، والتحديث ، وهى أول حالات الاتصال مع الكنيسة الغربية ، بتجربة الصدمة الحضارية ، مثلها مثل صدمة الاجتماع بعد الحملة الفرنسية . وهى صدمات تتوالى ، وان كانت بالنسبة للدولة نتيجة الاستعمار والهيمنة ، فهى بالنسبة للكنيسة نتيجة محاولات الاحتراق والتبشير والاستقطاب . واذا كان التاريخ قد دفع



الدولة المصرية من الحملة الفرنسية ، الى النظام العالمى تحت غطاء الامم المتحدة ، فإن تاريخ الكنيسة يدفعها من بداية الحملة الكاثوليكية فى بدايات القرن التاسع عشر ، حتى المسكونية المسيحية تحت غطاء المجلس العالمى للكنائس .

ومنذ عهد البابا كيرلس الرابع ، أصبح التحديث نقلا لبعض الوسائل والاساليب التحديثية الغربية ، ثم بعد ذلك سيصبح نقلا لبعض الافكار ، وان كنا نرى ان التغريب فى المجتمع والدولة والجماعة القبطية ، أكبر مما يحدث فى الكنيسة ، وهى لانها تأتى تالية تاريخياً ، فلا تجبرها العناصر الخارجية فقط على التغير ، ولكن العناصر الخارجية والداخلية معا ، أى يحركها التغريب القادم من قوى خارجية ، والقادم من المجتمع عن طريق الجماعة القبطية داخليا . وهو ما ظهر واضحا ، بعد ذلك ، فى حركة المجلس الملى بقيادة بطرس باشا غالى . ففيه محاولة واضحة لتحديث الكنيسة ، عن طريق القيادات القبطية ( الاراحنة ) . وهذه المحاولة كانت تفرض على الكنيسة تغييرا سريعا تجاه التحديث والتغريب ، وهى تذكرنا بالمشاهد التاريخية الكثيرة ، التى تكشف عن دور النخبة السياسية الاقتصادية . المتغربة ، فى فرض تغيرات على نمط الحياة من خلال ضغطها على الدولة .

لكن الكنيسة كانت مستعدة للتحديث ، بدرجة محدودة ، ولذلك أصبحت قصة العلاقة بين المجلس الملى القبطى ، والصفوة القبطية من جانب ، والكنيسة ورجال الكهنوت من جانب اخر ، قصة صراع حقيقى . وفى النهاية ، فإن التحديث كان يأتى من الكنيسة ورجالها ، أو من الاقباط المتحالفين مع رجال الكهنوت ( ١٤ ) ، فالامر ظل بيد رجال الكهنوت الارثوذكس . وأصبح التحديث رهنا بموافقتهم ، خاصة موقف البابا .

واذا كان البابا كيرلس الرابع ، مقارب تاريخى ، لمحمد على ، فإن حركة المجلس الملى بقيادة بطرس غالى ، كانت مقارب تاريخى ، لعهد اسماعيل . ولكن احداث التاريخ تختلف فى تفاصيلها ، نظرا لاختلاف طبيعة المعارك نفسها . ففي عهد البابا كيرلس الرابع ، واجهت الكنيسة الارثوذكسية الحملة التبشيرية البروتستانتية ، التى كانت من اهم واكبر الحملات ، تأثيراً وضراوة .

إن تلك الحملة التى بدأت بمحاولة غزو الكنيسة الارثوذكسية نفسها ، أنهت بإنشاء الكنيسة البروتستانتية المصرية ، اولا الكنيسة الانجيلية ، ثم فى مراحل تالية ، الكنائس البروتستانتية الاخرى . والصراع بين الكنيسة الارثوذكسية والحملات التبشيرية البروتستانتية ،

كان صراعا دينيا وحضاريا في آن واحد . اما الصراع الديني ، فقد شهد أعنف مقاومة من الكنيسة الارثوذكسية ، فالعقيدة بالنسبة للكنيسة ، هي مكونها الاساسي ، كما انها الحامي الرئيس لها . اما الصراع الحضاري ، فتحول الى تنافس حضارى . ففي عهد البابا كيرلس الرابع ، ومع بداية التبشير البروتستانتى ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت الكنيسة تتجه بخطى نحو التحديث ، الذى انجز منه بعضه، وقاومت قوى المحافظة داخل الكنيسة بعضه الآخر . وفى عهد البابا كيرلس الخامس ، ومع تزايد الحملة التبشيرية ، كان نجم حبيب جرجس (١٥) يلعب داخل الكنيسة ، بوصفه احد قياداتها الهامة ، واهم رموز التحديث داخل الكنيسة . وفى تلك المرحلة ، استمرت عملية تحديث الكنيسة من الداخل ، ومنافسة البروتستانت فى الاساليب والانماط ، والاختلاف معهم فى العقيدة لحد الصراع . وهنا ظهرت مدارس الاحد ، ومهما اختلفنا حول مصدر الفكرة ، فإن هذا النموذج قد ظهر قبل ذلك بفترات طويلة كجزء من عملية الاصلاح البروتستانتى فى الغرب (١٦) . ومن التبسيط المخل ، ان نقول ان مدارس الاحد هى فصول للتعليم الدينى، فهى وسيلة ، كان لها دور كبير فى صناعة المستقبل ، بل هى ايضا وسيلة تحديثية ، كان من نتائجها ادخال التحديث لعمق الكنيسة ، ولفكرها ، واخراج قيادات للتحديث ، كان لها أن تقود الكنيسة بعد ذلك .

ومدارس الاحد ، هى مؤسسة تعليمية تتبع الكنيسة ، وتربى الاجيال الجديدة على نمط الكنيسة . وهى فكرة استخدمتها الحركة البروتستانتية فى الغرب ، لتكسب ارضا جديدة لها ، فى مواجهتها مع الكنيسة الكاثوليكية . وهى تعنى اخراج الطفل من اى بيئة قد تعيق تكوينه على النموذج المرغوب من الكنيسة . لذلك فإن حملات التبشير البروتستانتى فى مصر كما فى غيرها ، استخدمت هذا الاسلوب فى مواجهة الكنائس المحلية ، كما استخدمته فى مواجهة الاديان الوثنية فى الدول التى لم تكن تدين بالاديان السماوية . وهو نفس الاسلوب الذى استخدمته الكنيسة الارثوذكسية فى مصر فى مواجهة حملات التبشير البروتستانتى (١٧) .

ومدارس الاحد ، تمثل بديل عن الاسرة ، أى انها تربى الطفل على نموذج يختلف عن نموذج الاسرة ، الا اذا كانت الاسرة نفسها على علاقة قوية بالكنيسة . لذلك ، فمدارس الاحد، هى استخدام لاسلوب يعتمد على المؤسسة فى مواجهة الافراد ، دون اعتراف بوجود تكوينات اجتماعية اخرى ، ودون وجود وسطاء اجتماعيين . وهى نفس الفكرة التى تستخدمها الدولة فى مواجهة الافراد ، لاجداث التنميط التحديثى المطلوب ، دون وجود عائق

من الجماعات او الأسرة ، التي هي اصغر الجماعات . وهو بهذا اسلوب استخدمته ، الدول الغربية ، ثم الدول السائرة على نمط التحديث ، ومنها مصر .

وهكذا كان حبيب جرجس ؛ بداية جديدة لعملية التغير والتحديث داخل الكنيسة الارثوذكسية المصرية . وهي بداية تواكبت مع فكرة النهضة كما جاءت على يد مفكرين كثيرين ، ومنهم الامام محمد عبده ، وهي ايضا تلك البداية التي سمحت بدرجة أعلى من التحديث ، كما حدث في المجتمع ايضا .

فبعد ذلك ، وقبل منتصف القرن العشرين ، يظهر القمص ابراهيم لوقا ، وهو ليس مجرد اسم ، بل هو رمز لاتجاه ، له دلالة كبيرة . فالقمص ابراهيم لوقا (١٨) ، بدأ عملية تحديث شاملة ، وكان على علاقة بالكنيسة الانجليكانية ( كنيسة إنجلترا ) .

ومن خلال تفاعله مع النمط الكنسي الغربي ، بدأ في ادخال العديد من الاصلاحات في كنيسته بمصر الجديدة ( كنيسة مارمرقس - كليوباترا ) . وهو اول من بدأ العلاقة مع مجلس الكنائس العالمي ، بحضوره الجمعية العامة الاولى في عام ١٩٤٨ . وعندئذ كان القمص ابراهيم لوقا ، حائن الكنيسة الذي يريد دمجها مع الكنيسة الانجليزانية . أما الان وعندما تشوه صفحات التاريخ ، فقد اصبح اول من اقام علاقة مع مجلس الكنائس العالمي ، واصبح للكنيسة الارثوذكسية تاريخ طويل للعلاقة ، يبدأ بالقمص ابراهيم لوقا ، ثم الانبا صموئيل ، فالعلاقة لم تبدأ - اذن - مع البابا شنودة الثالث .

هكذا يكتب تاريخ الكنيسة ، دون اعادة الاعتبار لمن دفع ثمن التحديث اولا . ويعاد التاريخ وتشوه ذاكرة الجماعة ، فتقبل المزيد من التحديث ، دون أن تراجع طريقها ، ودون أن تحذر من مرحلة التنميط الغربي الكامل .

وعندما جاء البابا كيرلس السادس ، كانت الكنيسة تموج بتيارات التحديث ، تيار المجلس الملي ، وتيار الرهبان الجدد ، الذي هو وليد لحركة حبيب جرجس التحديثية ، أما البابا كيرلس السادس ، فكان البابا المحافظ ، الذي أطلق العنان لقوى التحديث ، واختلف معها ، ولكنها كانت الاقوى ، وكان لها الغلبة في الشارع القبطي ، فبدأت مشروعها الاوسع للتحديث ، حتى يأتي البابا شنودة الثالث في ١٩٧١ ، ويجلس على الكرسي البابوي ، راهب عاش حياته ، وتشكلت صراعاته ، ما بين التحديث ، والحفاظة على تراث الكنيسة . فكان أول بابا ، يولد

فى رءم عملفة التءءفء؁ الءف أنءءء بعء ذلك معظم رهبان وقفاءاء الكنفسة من ءلال رءال الكهنوء؁ ومن القفاءاء القبطفة .

## المأزق البروءسءانئف

**فى الصفءاء السابفة؁** ركزنا على الكنفسة القبطفة الارءوءكسفة؁ والءماعة القبطفة. وسنءاول التعرض هنا؁ للكنفسة البروءسءانئفة؁ ءاصة الكنفسة الانءلففة . والواقع ان بعض عناصر القضية ءءشابك وءءءاءل؁ وان كانت الءالة فى النفاءة لها ءمفزا؁ بفن الارءوءكس والبروءسءانء والءمفز هنا بسبب " القبطفة " الءف ءمئل سفاق للءمفز الءفنف والقومف معا؁ وهو السفاق الذى لانءءه فى الءالة البروءسءانئفة .

فإءا كان الصراع بفن الكنفسة الارءوءكسفة؁ والءبشفر البروءسءانئف؁ قء ءار ءول العقفةء والءضارة؁ فإن الءبشفر نفسه قء ءار ءولهما افضا؁ فارسالفاء الءبشفر؁ ءاءء ومعا منظومة عقائفةء ءءفةء؁ ومنظومة ءضارفة ءءفةء افضا؁ وكلا المنظومءفن ءءا ء الضارة الغربفة . والبروءسءانئفة فى ءء ذاءها؁ ءرءع الى ءركة اصلاء كبرى؁ نابعة من ءط هامشف مسفءف؁ وءء عبر ءارفء المسفءفة؁ وهو ءفار الاطهار؁ أو ءفار الءطهر . فالبروءسءانئفة - اذن - ءركة اصلاء ءاءل الهفلفنة المسفءفة؁ وقء ءاءء من ءاءلها؁ على فء راهب أءسطففنف هو مارئن لوءر . ففى ءبفع من الهفلفنة المسفءفة؁ ومن الاءسطففنة ( نسبة للقفءفس أءسطففنس ) . وكما كان بفن ءركة الاصلاء والكنفسة الكاءولفكفة من صراع؁ هكءا كان بفنها وبفن الكنفسة الارءوءكسفة . اما عن الءالة البروءسءانئفة المصرفة؁ فعلفنا أن ءمفز بفن الءانب الءفنف؁ وذلك الءضارف .

فعلف الءانب الءفنف؁ ءمفزء ءركة الاصلاء؁ بالءركفز على الءطهر الفرفءف؁ والافمان الفرفءف؁ ففى نابعة من ءضارة فرفءفة؁ سبف لها فى ءءورها الهفلفنة؁ أن طبعء المسفءفة بطابع مقارب . ونءصور أن فكر الءطهر كان وراء نشر الفكر البروءسءانئف فى مصر؁ ءاصة وان الانتشار الءقفف لم فءء فى القاءرة؁ بل ءءء فى اسفوط؁ ءفء صعفء مصر؁ أول من افرز فكر الرهفنة؁ ءاءل الكنفسة الارءوءكسفة ( ١٩ ) . من هنا؁ ءاء عنصر الءقابل؁ الذى

مهد ارضية لانتشار البروتستانتية فى الصعيد ، ومنه الى باقى انحاء مصر ، فى الفترات الزمنية اللاحقة .

وتواكب هذا الانتشار ، مع الحالة التى وصلت لها الكنيسة الارثوذكسية نفسها . حيث كانت فى مرحلة الجمود والتأخر ، وتشرف على بداية مرحلة التحديث على يد البابا كيرلس الرابع ابو الاصلاح ( ٢٠ ) . فمهد ذلك لانتشار البروتستانتية ، وتواكب الصراع بين الكنيستين ، مع اندماج التحديث والتطهر فى الكنيسة البروتستانتية ، ومواجهة الكنيسة الارثوذكسية لذلك من خلال مزيد من التحديث . مما جعل الكنيسة المصرية ، فى ذلك الوقت تشهد بداية دخول أنماط تحديثية إلى ثوبها المسيحى .

وفى فترة لاحقة ، تبدأ مدارس الاحد فى الكنيستين ، والغريب أن بعض الكتاب من الطرفين ، يتنافسون على حق " الابداع " ، فكل كنيسة تؤكد انها صاحبة المبادرة فى نشر فكرة مدارس الاحد . رغم ان التاريخ يؤكد انها بدأت مع حركة الاصلاح البروتستانتى ، مع نهاية القرن السادس عشر . فالكنيسة الغربية البروتستانتية ، هى صاحبة فضل " الابداع " ، وعلينا أن نتنافس حول فضل " النقل " ، اذا كان النقل امر يدعو للتنافس ..

واذا كانت الكنيسة الارثوذكسية قد اتجهت الى التحديث منذ عهد البابا كيرلس الرابع ، كما اتجه نحوه المجتمع المصرى ، منذ عهد محمد على ، فالكنيسة البروتستانتية ولدت ومعها بذور التحديث ، أى بذور النمط الغربى . ومع ذلك فإن البدايات تفرق بين الجانب الدينى والجانب الحضارى ، كما ان النهايات تفرق ايضا .

فعلى الجانب الحضارى ، ظهر منذ بداية التبشير البروتستانتى ، نواة لجماعة غلب عليها الانتماء للطبقة العليا ، وتشابهت مع الصفوة القبطية صاحبة مشروع المجلس الملى ، وهذه الفئة الصغرى ، ومعظم رموزها من اسياط والقاهرة ، فى البداية ، تمثلت النموذج الدينى والحضارى معا ، وربما غلب عليها النموذج الحضارى ، وظهر فيها قدر كبير من التغريب ، بل ان بعض افرادها عملوا قناصلة للسفارات الاجنبية ، وارتبطوا بمصالح عمل مع الغرب ( ٢١ ) . وهو ما تواكب مع تداخل عمل الارساليات مع عمل السفارات والاستعمار ، وما ظهر من حماية من قوات الاحتلال للمرسلين الاجانب ، بوصفهم رعايا اجانب ، الامر الذى حمى عملية التبشير ، خاصة فى ذروة صراعها مع الكنيسة الارثوذكسية ، وكذلك فى صراعها مع الكنيسة والمسلمين معا ، بعد ذلك .



وانقسام البداية البروتستانتية ، الى تيارين ، له أهمية كبيرة فيما حدث بعد ذلك . فالتيار التطهري ، المتأثر بالرسالة الدينية ، شكل بعد ذلك تيار المحافظة البروتستانتى ، واقام الكنيسة الوطنية على هذا الاساس ، مع احتفاظه بالبذور التحديثية منذ البداية ، بل ان هذا التيار ، حجم - فى النهاية - من التأثير التغريبي للمرسلين ، كما انهى وجود التيار الآخر ، المتمثل فى الجماعة البروتستانتية المتغربة . فكما فشلت حركة المجلس الملى الارثوذكسى فى قيادة حركة التحديث فى الكنيسة الارثوذكسية ، كذلك فشلت أدوار الصفوة البروتستانتية فى قيادة حركة التحديث بها . وهكذا جاء التحديث فى النهاية ، من داخل الكنيسة ، فى الحالتين . وان كانت درجة نمو وتطور التحديث ، ودرجة سرعته تختلف ، فالكنيسة البروتستانتية أصبحت مؤهلة لدرجة أعلى من التحديث ، وكذلك درجة أعلى من الانخراط فى النمط الغربى .

## الأمية المسيحية

**إلى أين** المشاهد التاريخية السريعة للحالة البروتستانتية ، تنقلنا سريعا لموطن الازمة ، وقبل اكتمال التاريخ . فالتبشير البروتستانتى ، ومع مرور الزمن ، اخرج الجماعة البروتستانتية من فكرة القبطية ، ولكنه اسلمها فى النهاية ، الى فكرة الامية المسيحية . فالكنيسة البروتستانتية، ومنذ بدايتها ، ليس لديها مانع عقائدى ، يعرفها ويميزها عن الآخر المسيحى . لذلك أصبح توجه الكنيسة الامى ، علامة عبر تاريخها ، تظهر أولا فى شعورها بالرابط المسيحى الامى ، عبر الطوائف البروتستانتية فى العالم ، ثم تسلمها فى النهاية لمحاولات اختراقها وضمها الى عملية تنصير العالم ، التى تتواكب مع عملية تغريب العالم . واذا كانت الاصولية المسيحية تحالف مع الراسمالية المتطرفة ، فإن الليبرالية المسيحية تحالفت مع الفكرة الغربية الليبرالية ، أو مشروع الرفاهية لكل العالم . وتأثر كل تيار فى الواقع الراهن ، بصعود وهبوط القوى السياسية الغربية ، الليبرالية والمحافظة .

فهل استطاعت الكنيسة البروتستانتية الوطنية ، أن تخلق هوية لنفسها ١٩ إن الهوية المتفردة للكنيسة البروتستانتية فى مصر ، لم تظهر الا فى جناحها المحافظ (٢٢) ، ذلك الجناح الذى ينتمى تاريخيا الى شيوع التطهر ، كأحد أهم أسباب انتشار البروتستانتية .

ومن التطهر ، ظهر المزج بين التطهر الدينى ، والتقاليد المصرية المحافظة ، فأصبح الرابط بينهما هو التشدد . ومن ذلك الرباط ، كونت البروتستانتية المصرية هويتها الخاصة ، التى جعلتها تنفصل عن بعض تيارات البروتستانتية العالمية ، ومنها الكنيسة المشيخية الامريكية ، التى هى صاحبة الارساليات التى انشأت الكنيسة الانجيلية المصرية . وكذلك الحال ، بالنسبة للطوائف البروتستانتية الاخرى ، التى تميل للمحافظة ، وتتعلق بجذورها الغربية المسيحية ، أكثر من حاضري بعض الكنائس الغربية المؤسسة لها ، والتى اتجهت الان الى الليبرالية .

ولكن هذه النزعة المحافظة ، جعلت الكنيسة عرضه للاختراق الاصولى الغربى المعاصر ، الذى جاء على ارضية تنتمى له تاريخيا ، وتتلاءم معه فى تشددها .

ولكن التيار المحافظ البروتستانتي ، لم يقدم لنا رؤية حول انتماءه للمجتمع ، بل انه مع مزج التطهر البروتستانتي بالتقاليد المصرية المحافظة ، جعل محركات توجهاته ، تقتصر على محرك المحافظة ، فكلما كان المجتمع اقرب الى المحافظة ، كلما تكيف معه . وكلما كانت التيارات الغربية ، أقرب الى المحافظة البروتستانتية ، كلما كانت اطاره الاممى الواسع .

أما عن القومية المصرية ، والعربية ، والاسلامية ، فقد كان هذا التيار أقرب الى الانعزال ، أو العزل المقصود عن تلك الاشكاليات ، لذلك لم يتبلور بداخله خطاب سياسى ، ولم يحدد موقعه من الحياة ، وقضايا السياسة ، الا فيما يخص حكمه الاخلاقى على الحياة ، أى على " العالم " الذى ينعزل عنه . .

ولكن المستقبل كان يحمل معه ، تيارات جديدة ، تبدأ فى الظهور منذ النصف الاول من القرن العشرين ، وتظهر بصورة حادة بعد ذلك ، خاصة فى سبعينات القرن العشرين ، وتحمل معها تيار الاصولية المسيحية ، وتيار الليبرالية ( الإستنارة ) المسيحية . ومع الأول تظهر الأهمية المسيحية فى اشد صورها عنفا ، متجاوزة بذلك حدود الوطن نفسه من اجل عالم مسيحي غربى واحد . ومع الثانى ، يظهر التوجه نحو التحديث الشامل ، أو التنميط الكامل للحياة ، داخل النموذج العالمى " الغربى " .

ونذر الخطر تبدأ من حيث بداية التاريخ البروتستانتي . فالكل يتجه نحو النموذج الغربى ، والكنيسة مع هذا " الكل " ، ولكن الكنيسة الارثوذكسية تحتفظ بحاجز ، للاحضارة ، بل العقيدة الدينية ، فيصبح اعادة صنعها على النموذج الغربى أصعب ، أما الكنيسة البروتستانتية ، فإن العقيدة نفسها تساعد على اختراقها ، ولا يبقى لها كشعب ، الا ما لدى المصرى من تراث

اخلاقى يحاول احافظة عليه ، ولكنه يتعرض الى اشع عمليات التنميظ الاخلاقى ضراوة ، حتى بات جميع المصريين ، وبلا استثناء ، يكون على الاخلاق المهدة ، حتى النخب والمؤسسات القائدة لعملية التغريب ، تبكى ايضا على اخلاق الماضى ، ولم تفق من غفلتها بعد لتعلم ان عملية التغريب ، تحت دعاوى التحديث والتنمية والكونية ، هى التى أهدرت قيمنا واخلقنا .

فى هذا السياق ، فإن قدرة الكنيسة البروتستانتية على المقاومة تضعف سريعا . ففى تاريخها لاحتاج لادانة أول من شارك فى مجلس الكنائس العالمى ، وإن كان التيار المحافظ يدين ليبرالية المجلس الحالية . ومن تاريخها ايضا ، يأتى التحديث تدريجيا ، دون مقاومة ، الا فيما يخص الاخلاق فقط . وهنا فإن دور التيار المحافظ ، باعتباره مدافعا عن التطهر البروتستانتى ، والاخلاق المصرية معاً ، يتضاءل تدريجيا ، مع تزايد التحديث والتغريب معا للجناح الاصولى والجناح الليبرالى للكنيسة المصرية ، كما ان هذا الدور يتضاءل ايضا بسبب اندماج الجذر البروتستانتى بالتحديث والغرب ، منذ بدايته كحركة وافدة .

وهكذا اصبح ميراث الكنيسة البروتستانتية المصرية ، هو مزيج من التراث المصرى الاخلاقى، والتراث الغربى البروتستانتى . واصبحت مصريتها تأتى من شعبها أكثر مما تأتى من فكر المؤسسة . ولذلك كان لها أن تعيش من خلال تيارها المحافظ الذى أدمج المصرية والبروتستانتية معا ، على محك الاخلاق ، ولكن ما كان لها أن تعيش اذا قامت على أكتاف الفئة ، التى توحدت مع التغريب منذ بدايتها . وهنا تأتى المصرية من الشعب نفسه ، الذى هو مصرى بالضرورة ، وبالميلاد ، دون أن يأتى من مكون حضارى تراثى ، تمثله المؤسسة نفسها (٢٣) . وتوازى ذلك ، مع توجه الارساليات البروتستانتية الغربية ، نحو ترك الكنيسة المحلية تنمو مستقلة عن الكنيسة الغربية التى انشئت (٢٤) . وهو تحول تواكب مع انتقال الغرب من الاستعمار العسكرى ، الى الهيمنة ، لذلك تعود الكنيسة الغربية للتأثير مرة أخرى ، ولكن فى ثوب الهيمنة الفكرية ، وذلك مشهد آخر .

## المشروع السابع

### الأقلية القبطية ..... جماعة بلا مشروع

**وأينا في** التصور السابق ، كيف أصبح النموذج العلماني / التحديثي وعاء لصهر الجماعة المسيحية مع المجتمع ، وكأن المشروع الغربي هو مشروع المجتمع ككل . ويبقى شعار المصرية ، شعار أجوف ، أو عنوانا بلا مشروع ، أو أمة بلا حضارة . المشكلة هنا أن المشروع التحديثي ، أعطى عبر تجارب قرنين من الزمان ، مساحة للحركة والتفوق والظهور ، للجماعة المسيحية ، ونعنى بها مسيحي مصر ، بكل طوائفهم . بل أن توحد الاتجاه والتوجيهات ، يجعلنا نتكلم عن جماعة قبطية ، تضم كل مسيحي مصر ، ويبقى الفرق بين الارثوذكس وغيرهم في التاريخ ، والميراث التاريخي ، الذي هو مصري ممزوج بالمسيحية ، الهيلينية الشرقية بالنسبة للارثوذكس ، والهيلينية الغربية بالنسبة للكاثوليك ، والبروتستانتية الغربية بالنسبة للبروتستانت . وتظل مشكله الجميع ، هي عدم قدرة المسيحيين ، أو الكنيسة ، على إقامة نهضة حقيقية ، تتمثل حضارة المجتمع ككل ، وتوحد الجماعة / الامة . وتظل تجربة مسيحي الشام ، تجربة هامة في الازهان ، وتمثل النموذج الامثل لكل المسيحيين العرب ، وان كانت تجربة غير كاملة ، وقفت على الحدود بين العروبة والاسلام ، والاهم من ذلك انها جاءت داخل الوعاء العربي بدون الحضارة العربية نفسها ، فقد تغلب على هذه التجربة ، وعلى القومية العربية ، النموذج العلماني / التحديثي . اذن هي نماذج تختلف في الدرجة ، من السياق العربي ، حتى السياق المصري ، وتظل مشكلة كل المسيحيين العرب ، تكمن في الانتماء الحضاري للامة ، الذي هو انتماء يعوقه اندماج العروبة والاسلام ، كما يعوقه ايضا ذلك المكون الغربي الضارب في تيارات الفكر المسيحي ، نتيجة الانتصار التاريخي في القرون الاولى ، للمسيحية الهيلينية على المسيحية غير الهيلينية ، رغم أن الاخيرة هي الاصل ، ورغم أن الوعاء الحضاري الاصيل للمسيحية ، كان شرقيا ساميا ، مصريا وعربيا أكثر من كونه هيلينيا .

وحتى لا يتمادى فى التصورات حول الدين والحضارة ، نتصور أن الدين يأتى حاملا الوعاء الحضارى لمنشأه ، ثم فى الأديان التبشيرية العالمية ، أى المسيحية والاسلام ، تخرج الرسالة الدينية الى العالم ، فتندمج العقيدة ومبادئها الاساسية مع أنماط حضارية أخرى . فالرسالة الدينية عابرة للحضارات فى جوهرها . ولكن فى نصها تأتى حاملة الوعاء الحضارى الذى جاءت منه ، لذلك تصبح دين وحضارة بالنسبة للسياق الذى جاءت منه ، وتصبح دين لأى سياق آخر تصل اليه . وهو شأن المسيحية والاسلام ، وكلاهما ينتمى الى جذور تاريخية حضارية واحدة . ولكن الاسلام نصا ، حمل وعاء حضارياً واحداً ، أما المسيحية ومن خلال رسائل تلاميذ المسيح ، فحملت وعائين حضاريين ، الاول شرقى ذو جذور يهودية ، والثانى غربى ذو جذور هيلينية . وصراع الجامع الكنسية الاولى ، وقبل أن يتحول الصراع بين الهيلينية الشرقية والغربية ، كان الصراع بين الشرقية اليهودية والغربية الهيلينية ، وهو صراع بدأ بين تلاميذ المسيح أنفسهم . ولذلك قصة أخرى .

نعود لمشكلة الجماعة المسيحية ، التى لم تستطع اقامة جذور لنهضة مشتركة مع كل عناصر الامة العربية الاسلامية . وبات تعبير " الامة العربية الاسلامية " ، وبالطبع تعبير " الدولة الاسلامية " ، لا يحمل معه فى الذهن المسيحى ، سوى الأسلمة . وكأن الاسلام لا تعنى سوى الايمان بالعقيدة الاسلامية . بل أن هذا الامر أصبح أكثر انتشاراً فى المجتمعات العربية ، فأصبحت الاسلامية هى أسلمة بالنسبة للعلمانيين ، أسلمة للنظام السياسى ونمط الحياة . وهى كذلك ايضا بالنسبة للملحدين ، أسلمة للفرد نفسه .

ولكننا نتصور فى المقابل أن الفكرة العربية الاسلامية ، هى الوعاء الحضارى ، لذاتنا الحضارية ، وتاريخنا ، وحتى جغرافية وطننا . وأن الموقف من العقيدة غير الموقف من الحضارة ، وأن الاول اختيار يعنى الايمان الفردى بالعقيدة ، اما الثانى فهو مصير يعنى الايمان الحضارى بالميلاد . فلا يوجد " فرد " أو " جماعة " تنتمى بالميلاد للامة العربية ، دون أن تنتمى لها حضارياً كجزء أصيل منها ، بالميلاد والتنشئة الاجتماعية والحضارية . وحتى من يستطيع تغيير دينه ، فإنه لا يستطيع تغيير حضارته ، الا اذا اعاد عجلة الزمن ، وبدأ تاريخه فى أرض أخرى ، ووطن مختلف ، واسرة جديدة ، أى فى حياة أخرى تماما .

واشكالية التداخل بين المصرية والعروبة والاسلام ، أن الاسلام يحمل الوعاء الحضارى العربى ، والمصرية هى حالة خاصة من العروبة ، وجزء لا يتجزء منها ، ولكن هذا التداخل حول



الاختيار الحضارى ، من اختيار مصرى حتمى ، الى اختيار صراعى ، تدور حوله الصراعات ، فلا نصل بالجدل والصراع ، الا الى أمة مفككة .

تلك هى أزمة العلمانية ، وأزمة الجماعة المسيحية ، وأزمة القبطية . فالعقل المسيحى ، يتجه خارج إطار الفكرة العربية ، ويتوحد مع العلمانية ، ويجد سنده فى العلمانيين ، وتتوحد الامة ولكن بلا مشروع ، تتوحد كى تتغرب ، ولا تتوحد كى تنهض .

واذا كان الاندماج مع الغرب ، هو بالنسبة لبعض العلمانيين والنخبة والدولة من أجل التحديث ، وبالنسبة للبعض الاخر من العلمانيين مواجهة لفكرة الدولة الاسلامية ، فقد أصبح هذا الاندماج الحياتى ، هو حصن الامان للجماعة المسيحية . والمشكلة أن كل فئات المجتمع تملك البديل ، الذى قد تتحول له وهو النهضة الشاملة للامة ، بدلا من الدخول فى عملية التمييط الغربى ، وهوتحول سيحدث ، ان كان تصورنا عن عملية التطهير الحضارى ، ومدى سرعتها واقترابها ، صحيحا فعند هذا الحد ، سيشعر المجتمع ، انه يقترب من " الموت الحضارى " ، وعند ذلك تظهر شرارة النهضة الحضارية . وهنا ستواجه الكنيسة والجماعة المسيحية ، أزمة حادة ، ستدفعها الى العزلة الكاملة ، وعدم معارضة التيار النهضوى الناشئ ، وكذلك عدم المشاركة فيه ، ويفوتها لحظة تاريخية أخرى ، ليصبح الاندماج كاملا وللابد .

كما أن اندفاع الجماعة القبطية نحو الاندماج الحياتى مع الغرب ، واندفاع الجماعات المسيحية الاخرى ، نحو الاندماج الحياتى والدينى مع الغرب ، يلقى حول الجماعة ظلا من الشك ، من قبل التيارات الاسلامية ، وخاصة المسلحة . مما يجعل الجماعة المسيحية ، تدفع نحو العلمانية ، وتدفع الدولة ، ويتقابل دفعها للدولة مع دفع الغرب للدولة ، وهنا تتشابك خطوط تبدو انها مؤامرة ، وهى ليست مؤامرة ، بقدر ما هى اختيار البديل الغربى ، لدى الجماعة المسيحية والدولة ، وبالطبع لدى الغرب نفسه . ومرة أخرى يصبح النموذج الغربى ، موحدا للفرقاء ، ولكنه رهان على نجاح عملية نمذجة العالم ، على النمط الغربى ، ورهان على أن النموذج الغربى نفسه سيستمر وانه نهاية التاريخ ، وانه سيحقق الرفاهية للجميع .

وذلك الاندماج مع الغرب من قبل الجماعة القبطية ، يتوازى مع وعى الجماعة بأنها تسير فى امان لانها تسير مع قوى كثيرة فى المجتمع ، كذلك يتواكب مع وعيها بانه تمثل " الامة القبطية " ، بحدود الدين والطائفة والحضارة ، وانها بالتالى قابلة للاستمرار والحفاظ على هويتها الخاصة . ويزداد هذا الوعى خاصة لدى الكنيسة القبطية التى تتصور انها ستظل محتفظة

بتميزها، داخل السياق المصرى ، والسياق المسيحى العالمى ، لانها مصرية وارثوذكسية ومسيحية هيلينية شرقية . رغم ان آلة التنميط الغربى ، اذا نجحت فى القضاء على تميز امة العرب ، فأنها ستنتجج بالتالى فى القضاء على اى تميز آخر ، وتحقق بذلك سيادة الغرب ، وسيادة المسيحية الغربية ، وانتصار للهيلينية الكاثوليكية ، أو انتصار للبروتستانتية الغربية .

وهنا تظهر مشكلة الجماعات المسيحية غير الارثوذكسية ، فالإطار الاممى المسيحى يجذبها، وتبقى قدرتها على المقاومة، وقابليتها للتبعية أكثر ، ولذلك يمكن أن تنهزم سريعا فى عملية التنميط الحضارى الغربى، وتفقد مصريتها وتفقد مزيج التطهر البروتستانتى والاحلاق المصرية. مما يجعلها تبدو وكأنها تابع بالضرورة للغرب. وهى ليست الاجماع مسيحية مصرية، لم تستطع بنفسها أو خلال كنيستها، أن تحقق النهضة بمعناها الشامل، وهو انهاض المسيحية على جذور مصرية عربية كاملة، والاندماج الكامل مع الامة. واذا كانت الجماعة المسيحية عامة، تبتعد عن ذلك الاندماج فإن الامة ايضا ليست الاواقع يتفكك ولم تملك بعد مقومات النهوض. لعل مشهد حرب الخليج العربى ، يظل فى وجدان الامة ، بداية النهاية ، أم بداية النهضة ، فهو فى التحليل الاخير بداية لخطية الاختيار التاريخى . وعندما دخلت الدولة المصرية فى التحالف الأمريكى، المسمى دولى ، فى أكبر عملية للقرصنة والهيمنة على الامة العربية ، المسماة بالشرعية الدولية ، فى هذه اللحظة ، توالى برقيات التأيد من الكنائس المصرية ، ثم التهئة بعد ذلك بتحرير الكويت، ثم صمت كامل ، مع صمت الدولة ، تجاه عملية تدمير العراق .

وليس فى ذلك من دلالة ، سوى أنه تعبير عن دخول الجماعة المسيحية بكل ثقلها الى المشروع الغربى ، فالتأيد جاء مكتوبا من الكنيسة ، ومسموعا من الجماعة ، دون أى تحفظات فى أى مرحلة ، وحتى مرحلة تدمير العراق . بهذا وضعت الكنيسة نفسها مع الدولة وبعض النخب ، واختارت الرهان الاخير ، على أن يكون النمط الغربى ، هو نهاية التاريخ والايديولوجيا ، ومتمم حضارة البشرية ، وبعده لا توجد حضارات أخرى ، فهو نبى البشرية الاخير ، وبعده كلنا بشر بلا أنبياء .

إن الجماعة / الكنيسة بموقفها هذا ، تعلن عن دخولها فى عملية التنميط ، تحاول إعادة رسم وجودها من خلال تأمين نفسها ، باعتبارها جماعة مضطهدة تطالب بحقوقها فى السياق العلمانى ، ويحمى حقوقها تلك ، التحالف العلمانى ، والغرب ايضا . فالغرب يستخدم الورقة المسيحية بوصفه حامى الاقليات ، وله حق التدخل فى الشؤون الداخلية حماية للاقليات والمبادئ

السياسية العامة . والكنيسة الغربية ، تجدد لنفسها الدور تجاه الكنيسة المصرية ، كحاضنة لها ، ومؤيد ومناصر سياسى لها فى الازمات ، وحتى الكنيسة المحلية ، قد اكتشفت هذا الدور خاصة وانه كان دوراً مؤثراً ولكن فى حدود ، فى أزمة السادات والبابا شنودة (١)، وظهر أنه يمكن أن يكون دوراً مؤثراً فى المستقبل . ولكن ، اذا كان للغرب شروطا سياسية ، فإن للكنيسة شروطها السياسية ، خاصة بالنسبة للتيار المسيحى الليبرالى ، الذى يلعب على نفس ورقة الديمقراطية والليبرالية وحقوق الانسان . واذا كان الغرب السياسى الليبرالى ، ينادى بالانسان الاقتصادى المعلوماتى ، كنموذج دولى ، فإن الغرب المسيحى الليبرالى ، ينادى بالمسيحى المسكونى ( العالمى ) ، كنموذج دولى ، وفى النهاية فإن كلاهما ينشر القيم الليبرالية الغربية .

لهذا فإن الكنيسة عندما تفتح على الغرب ، تدخل فى عملية لها ثمن وكذلك لها عائد . وثمنها المزيد من التنازل عن أسوار التميز ، وهو ثمن فادح بالنسبة للكنيسة الارثوذكسية ، وهو مغامرة قد تنهى ماحققته الكنائس الاخرى من استقلال . أما العائد فهو التأييد والدعم الدوليين، معنويا وماديا . ولكن كل من الثمن والعائد ، مجرد عناصر التفاعل ، أما نتيجته النهائية ، فستكون التنميط الشامل على النموذج الغربى .

ولعل المجال الاجتماعى ، قد أصبح أهم مجالات " الصفقة " ، فمع دخول الكنيسة لمجال العمل الاجتماعى ، تصبح أكثر اغراقا فى التحديث ، ليس فقط لانه يوفر الاساليب المناسبة ، ولكن لان ذلك يتمشى مع اوضاع المجتمع، ويتمشى بالتالى مع المفهوم الاعم للعمل الاجتماعى، أى " التنمية " .

لهذا فإن الجهود المؤسسية المسيحية فى مجال العمل الاجتماعى - تصبح أهم العوامل التى تدفع نحو النموذج الغربى . وهوما نجده واضحا فى المؤسسات الاجتماعية المسيحية ، وفى الأنشطة الاجتماعية للكنيسة ، فهى أكثر الجوانب التى تظهر فيها أكبر درجة من التغريب . وحتى فى نموذج الكنيسة الارثوذكسية ، سنجد أن العمل الاجتماعى ، والذى بدأ بجهود الراحل الانبا صموئيل فى الستينات ، يمثل أكثر مجالات العمل الارثوذكسى ، التى خرجت من عباءة الميراث الارثوذكسى المتميز . وعندما نقارن العمل الاجتماعى لدى الارثوذكس والبروتستانت والكاثوليك ، سنجد أن الفرق الرئيسى فى اقتصر العمل الارثوذكسى على شعب الكنيسة الارثوذكسية فقط ، أما فى المجال البروتستانتى والكاثوليكي فيمتد ليشمل كل فئات المجتمع المصرى عامة مسلمين ومسيحيين .

ولهذا الفرق دلالة ، فالجماعة المسيحية غير القبطية تخرج للاندماج مع النموذج الغربى التحديثى ، دون أن يكون لديها " جدار " القبطية فى مواجهة المجتمع المصرى . وان كان هذا الفرق يختلف عندما نقارن عمل الكنيسة ، بعمل المؤسسات الاجتماعية ، فالأخيرة تتحرك نحو المجتمع ، والأولى تتحرك نحو شعبها ، باعتبارها مؤسسة / جماعة ، لا مؤسسة عامة فى المجتمع .

وعندما نصل الى النصف الثانى من القرن العشرين ، ستظهر لنا نماذج ورموز كثيرة للتحديث ، بل أن قيادة الكنيسة الارثوذكسية والبروتستانتية ، تصبح فى يد قيادات تحديثية ، مما يؤدى الى الاسراع فى عملية التحديث . وفى الوسط البروتستانتي تواجه القيادة تيار محافظ يرفض التحديث بهذه الدرجة والسرعة . وفى الكنيسة الارثوذكسية فهى مؤسسة واحدة ولا تحمل كثيرا صراع التيارات ، فى حين أن المؤسسة البروتستانتية هى مجموعة مؤسسات ، ليس لها رئاسة قابضة واحدة . لذلك سنجد أن التحديث والمحافظة كلاهما يندججان فى الكرسي البابوى نفسه ، فيأتى التحديث اسرع كثيرا من ذى قبل ، ولكن فى الوسائل والاساليب والعلاقات والموضوعات ، دون أن يكون تحديثا مباشرا لصلب الفكر نفسه . وتبقى الكنيسة الارثوذكسية ، أقل فى توجهها نحو التحديث ولكن درجة توجهها تزيد مع تغير الجالس على الكرسي البابوى ، ونتوقع لها فى مرحلة قادمة ، ان تشهد درجة عالية من التغير ، سوف تأثر جذريا على تكوينها " القبطى " واسوارها العقائدية .

بهذا فإن الكنيسة الارثوذكسية تستخدم آليات الجمود لحماية الذات ، وآليات التحديث للدخول فى النموذج العالمى . أما فى الكنيسة البروتستانتية ، فتأتى آليات للجمود من تيار ، وآليات التحديث من تيار آخر . ولهذا فإن الكنيسة الارثوذكسية ، ترتبط بعلاقة تعاون مع المجالس العالمية ، ومنها مجلس الكنائس العالمى ، على أسس سياسية اساسا ، ثم يأتى تأثير فكر المجلس تدريجيا . اما فى الكنيسة البروتستانتية ، فإن المجلس يجد تيار تابع له ، وتيار معارض له . وفى الكنيسة الارثوذكسية ، فإن أكبر تحول نحو التحديث قاده الراحل الانبا صموئيل ، الذى أقام علاقات قوية مع الغرب ، ومع مجلس الكنائس العالمى ، وقد وضع الاسس ، التى عارضها أنذاك الانبا شنودة ، واستمر فيها واكملها البابا شنودة ، والفرق ليس الا بين مرحلة وأخرى فى حياة الراهب / البابا شنودة الثالث . أما فى الكنيسة البروتستانتية ، فيظل اسم رئيس الطائفة البروتستانتية ، القس صموئيل حبيب ، رمزا لحركة التحديث ، وعلما للعمل الاجتماعى فى الوسط المسيحى .



ولكن تلك الآليات فى مجملها ، دفعت الكنيسة نحو التحديث ، وفى الوقت نفسه كان المجتمع يندفع نحو التحديث ايضا ، والجماعة المسيحية كذلك . ونتصور أن الجماعة فى النهاية ، هى الاساس البشرى ، الذى تحدث فيه التنمية . وهكذا نتصور أن الجماعة كانت معبر للتحديث من المجتمع الى الكنيسة ، ثم معبرا من الكنيسة للمجتمع . فهى اذن تدفع الكنيسة حينا ، وتدفعها الكنيسة احيانا . لذلك يمكننا أن نرى ملامح التغريب وهى تشتت فى الجسم البروتستانتي ، ثم تشتت فى الجسم الارثوذكسى ، وكثيرا ما كانت الكنيسة البروتستانتية عاملا منافساً يدفع الكنيسة الارثوذكسية لمزيد من التحديث . وهكذا يمكننا أن نتصور العوامل التى عجلت من عملية التغريب فى السنوات العشرين الماضية . والصورة الان فى الكنيسة الارثوذكسية تبدو هيكل شديد المحافظة ومظاهر وانماط تحديثية وغربية تخترق عظام هذا الهيكل . وفى هذا الشأن ، فإن خبرة الاحتكاك " بالخارج " الغربى ، وخبرة ممارسة النمط الغربى فى " الخارج " المصرى ، تكمل آليات تحديث الكنيسة ، والتى تسير بقوة الدفع الذاتى . وهى تكتسب قدرتها من إكتشاف الكنيسة للنمط الغربى ، بإعتباره طريق تحقيق الاندماج ، ووسيلة تحقيق الانجاز والطموح . بهذا يصبح أى دافع للحركة هو فى النهاية دافع نحو النموذج الغربى . ومع خبرة الاحتكاك بالغرب ، تنقل المفاهيم والخبرات ، ويتحقق قدر من النجاح والانجاز ، للقيادات والمؤسسات معا ، كما تتولد أموال غربية تدعم أنشطة الكنيسة ، مما يجعل الآلية مكتملة من حيث العائد فى مقابل الجهد ، وهى خبرات تسرب النمط الغربى تدريجيا الى جسم الكنيسة ، ومهما اشتدت المقاومة فى الكنيسة الارثوذكسية ، أو من الجناح المحافظ فى الكنيسة البروتستانتية ، فإن حركة التحديث بكل ما لها من عوامل دفع ، وسياق ملائم تستمر فى تغيير الهيكل وتحويل النموذج الحياتى للجماعة / الكنيسة .

وتلك كانت - ومازالت - لعبة المخافل والمؤسسات الغربية ، التى تعرف أن الطريق للكنيسة العالمية الواحدة ، تحت زعامة الغرب ، هو الوصول الى القيادات ، وتحويلهم الى قيادات تابعة فكريا ، ومؤمنة بالنموذج التحديثى . ويصبح هؤلاء القادة ، رموز للفكر المسيحى الليبرالى والمستنير ( فى حالة البروتستانتية ) ، أو رموزا للتحديث كوسيلة حياة ( فى الحالة الارثوذكسية ) .

وهم فى النهاية يقدمون تصورا يفترض فيه ، أنه " العصر " ، وأنه " المدينة الفاضلة " ، للبشرية ، والمسيحية ، ولكن الصورة / النموذج ، ليست الا نمطا غربيا يصلح فى الغرب ، وهو



نمط يتدهور حتى فى الغرب ، وهو فى صورته الواقعية يختلف عن صورته الفخرية المثالية ، وهو فى كل الحالات ليس منا ، وليس منقذا لنا .

إذا كانت الكنيسة الارثوذكسية هى المعقل ، الذى يحتوى بالجمود ، ولا يقدر على النهضة ، فهى أيضا المعقل الذى سلم الكثير من مفاتيحه ، لدرجة لاتصدق احيانا . فالكنيسة التى مازالت تتشدد بحربها ضد التبشير والارساليات ، فتحت ابوابها للمرسلين للعمل بداخلها . أما المرسلين من جانبهم ، فقد اقرروا حقها فى ان تكون ارثوذكسية ، وركزوا عملهم على انهاضها روحيا واجتماعيا ، وفتحها للمسكونية ( العالمية ) المسيحية (٢) ، وفتح ابوابها لتغيير الفكر عن دور الكنيسة ، ودور المرأة فى الكنيسة ، ودور الكنيسة فى التنمية . والمرسلون من خلفية أصولية ، عملوا - وما زالوا - نحو تغيير مضمون المنطوق العقيدى ، دون المنطوق نفسه . اما المرسلين من خلفية ليبرالية ، وهم عادة ليسوا مرسلين ، بقدر ما هم خبراء وممولين ، فإن عملهم تركز على تغيير المفاهيم الاجتماعية والحضارية . وفى النهاية فهم يحترمون التميز العقيدى الارثوذكسى ، ولكنهم فى الواقع يخترقون الكنيسة حتى النخاع (٣) . وكل هذا يحدث من باب " الانفتاح " ، والتحديث والمسكونية والحوار ، وغيرها من مسميات العصر . وبهذا أصبح أعداء الامس ، هم حلفاء اليوم ، وتعاونت الكنيسة الارثوذكسية مع مجلس الكنائس العالمى ، ممثلى الليبرالية المسيحية ، كما تعاونت مع مرسلين ينتمون للحركة الانجيلية الاصولية ، ومنهم من كتب أوراقا ، واصفا خبرته فى التعاون مع الكنيسة الارثوذكسية (٤) ، وكيفية " انهاضها وحياتها روحيا " دون اثاره حفيظتها العقائدية . وفى النهاية سجلت احصائيات الحركة الانجيلية الاصولية (٥) ، اعداد متزايدة للمنتمين للحركة داخل الكنيسة الارثوذكسية نفسها .

فماذا كسبت الكنيسة الارثوذكسية ؟ نعم .. البعد الدولى ، والنموذج التحديثى للانخراط مع المجتمع والعالم فى أن واحد . أما البعد الدولى فتشكل من خلال العلاقات مع الكنائس والمجالس المسيحية الغربية ، والتعاون مع العديد من القيادات والمرسلين الغربيين . وجاء أقباط المهجر ، ليضيفوا بعدا جديدا ، لتقل الكنيسة فى الغرب، وعندما يتواكب ذلك مع تأييد الانفتاح والاصلاح الاقتصادى والسلام ، تكتمل الصورة / الرهان ، حول النموذج الغربى . ويتواكب ذلك مع صعود العلاقة بين الكنيسة والدولة ، التى يبدو فيها الغرب وكأنه طرف العلاقة ، جاذبا كلاهما ، وحافظا للتوازن فى العلاقة بينهما ، من خلال مفهوم حماية الاقليات.

## العالم المسيحي

في الغرب هناك الان ، مسيحية اصولية ، ومسيحية ليبرالية . والاولى تحاول تنصير العالم ، اما الثانية فهي تحاول تغريب العالم . فالمسيحية الاصولية ، تمثل شكل تبشيري اقتحامي ، لا يرضى الا ان يكون العالم كله للمسيح ، والعالم كله لامريكا ، كنعان الجديدة ، أرض الموعد (٦) . فالاصولية ، تنشر الرأسمالية الغربية ، التي تقوم على الحرية الاقتصادية لاعلى الحرية السياسية . ونموذجها السياسي رونالد ريغان ، ونموذجها الديني جيرى فلور ، وبات روبرتسون . وهي حركة ، تحالف جناحها السياسي ، مع البابا يوحنا بولس الثاني ، الذي كان حليفا للريجانية ، وهو يمثل التشدد الكاثوليكي ، نحو كتلكة العالم . ولكن كل من الاصولية البروتستانتية والكاثوليكية المتشددة ، تتجه في النهاية للصراع مع الاخرى ، فلن يصير العالم كاثوليكيًا وبروتستانتيا اصوليا في أن واحد . والاصولية المسيحية ، تستخدم غالبا وجهها السافر ، ثم تظهر أوجه أخرى عندما تكون تحت الحصار ، كما يحدث لها في الدول الاسلامية . وهدفها النهائي لايقبل المساومة ، فهو أن يصير العالم مسيحيا انجيليا ( اصوليا ) ، وان يكون على النمط الرأسمالي المتطرف ، الذي توحدت معه ، وتكون القيادة لامريكا ، أى لدولة المركز في الاصولية المسيحية المعاصرة .

تلك الحركة ، بشكلها الحاد ، مثلها مثل الهيمنة المباشرة ، والامبريالية السافرة . ولذلك فهي تضع الخطط وتكسب الاتباع وتنشئ الفروع ، في محاولة لاختراق الكنائس المحلية ، ثم المجتمعات بأكملها . وهي تكن للاسلام عداوة باعتباره أحد أكبر العوائق نحو تنصير العالم . وهي ايضا تؤيد اسرائيل ، وتميل الى تأييد اسرائيل الكبرى ، ولا تقبل السلام ، الا من حيث هو وسيلة لفتح الباب امام الدولة الاسرائيلية ، كقوة أساسية في الشرق الاوسط . وكثير من الاصوليين يعتبرون السلام ، استسلاما ، فالهدف هو اسرائيل من النيل الى الفرات (٧) .

وتلك الحركة عندما تتعامل مع الكنيسة المصرية ، فهي تتعامل بوجه آخر ، وجه المؤسسة الدينية ، التي تهدف لمساعدة الكنائس من اجل الاحياء الديني والاجتماعي . واكثر هذه المؤسسات ، والاشد تطرفا ، لايتعامل مع الكنائس المصرية ، بل يحاول اختراقها ، أو اختراق الوطن العربي ، خاصة من خلال الجزء المحتل من أرض لبنان ، وتحت حماية القوات الاسرائيلية

والقوات اللبنانية المتحالفة معها ، حيث موقع واحدة من أهم إذاعاتهم الموجه للعالم العربى ، ثم تأتى قبرص باعتبارها مركز إدارة عملية الشرق الاوسط .

وذلك النموذج الاصولى ، يكشف فى النهاية عن اقتحاميته ، ويعمل على مستوى الافراد ، حتى يتمكن من الاختراق ، أو يعمل تحت قناع . وهو لذلك ليس النموذج الذى يمكن أن يعلن، ثم تتوحد معه الكنائس المصرية ، كما انه نموذج فى جوهره معادى لها ، ولا يقبل غير " مسيحيته " وكل ماعداها ليس مسيحية . انه النموذج الذى يعاديك فيدفعك لمعركة الاستقلال . ورغم اختراقه للكنائس المصرية ، الا ان درجة الاختراق ضعيفة وتحت أفق ، مما يجعل فكره يخترق الكنيسة ببطء ويثير دفاعها عن نفسها ، كلما زاد وانكشف . ورغم خداعه للكنيسة فى احيان كثيرة ، الا ان الكنيسة واجهته بالفعل فى احيان اخرى . وتبقى هذه القضية، مثل الامبريالية ، مجالا لمعركة الاستقلال ، وان كانت فكرة الاستقلال نفسها تضعف . ولكن الحقيقة ، أن الزمن الذى نعيشه ، جعل من " الاستقلال " ارادة واهية ، وجعل من الاصولية خطرا كامنا ، ينخر فى جسد الكنائس الارثوذكسية والبروتستانتية والكاثوليكية . والخطر الحقيقى ، سيأتى عندما نكون مع اسرائيل ، أعضاء فى سوق واحدة ، وعندما تفتح الابواب للغرب بدون ضابط ، وعندما لا يحكمنا شئ سوى آليات السوق ، وقيم السوق ، عندئذ يمكن أن تعمل هذه الحركات فى الشارع الكنسى ، وربما الشارع الاسلامى ، وقد تلقى مقاومة ، ولكن هل سيكون لدينا القدرة الكافية على المقاومة ؟ واذا كانت هذه الحركة تعمل الان وتخفى تأييدها لاسرائيل ، فهل ستحتاج لذلك بعد أن أصبحت الانظمة العربية نفسها تعترف بإسرائيل ؟!

## المدينة الفاضة

**يمثل الغرب** نموذج حضارى عام ، ومجموعة من التيارات الخارجة منه ، والمعبرة عنه . وقد تكلمنا عن الجناح الشيوعى والجناح الرأسمالى فى المنظومة الغربية ، وتكلمنا عن الجناح الأصولى المسيحى ، وبقي لنا والجناح الليبرالى المسيحى . وكى نقسرب منه أكثر ، نتصور اولا شكل التيارات الغربية ، بانها تمثل الطيف . فهى تتحرك من الرأسمالية الى الشيوعية ، ومن

تحجيم دور الدولة كمنتج الى تعظيم دورها ، ومن الحرية الاقتصادية الى العدالة الاجتماعية ... وهكذا . ولكن - وفي ذات الوقت - سنلاحظ ان التيارات الغربية تتحرك ايضا فى اتجاه آخر من التطرف الى الاعتدال . فنتكلم عن العدالة الاقتصادية فى المنظومة الرأسمالية ، وعن الحرية السياسية فى المنظومة الشيوعية . لذلك سنجد ان اوربا ، ذات الازدواجية الرأسمالية - الاشتراكية ، فى حياتها الحزبية ، تمثل نموذجا - فى بعض روافدها - للاعتدال الغربى . وذلك الاعتدال فى تصورنا هو جوهر النموذج الغربى الرشيد . لانه يتميز اكثر بالتوازن ، ويحتوى على عناصر التسوية ، ويحاول تجنب الكثير من الآثار السلبية للنموذج الغربى . ولذلك سنجد ان افكار مثل النظام العالمى ، والاشتراك فى الرأسمالية الاقتصادية ، توازن نزعات الاستعمار والامبريالية والهيمنة المباشرة . كذلك فإن الحفاظ على البيئة ، يتوازن مع فكرة استغلال الطبيعة لرفاهية الانسان . وتأتى مفاهيم الاشتراكية ، ودور الدولة ، والاعانات الاجتماعية ، والعمل الاجتماعى ، وتعظيم دور الدولة فى بعض الخدمات ، لتوازن الآثار السلبية للنمو الرأسمالى الاستغلالي .

تصورنا اذن ، ان النموذج الغربى يضم التقدم الى التكنولوجيا ، واستغلال المادة ، لتحقيق الرفاهية المادية للانسان ، كجوهر للمنظومة الغربية برمتها . ثم تأتى الرأسمالية بصورة فجأة ، وتقابلها الشيوعية كشكل للمدينة الفاضلة الغربية ، وهو شكل سرعان ما تظهر عيوبه ، ثم بعد ذلك ينهار ، وتظل فكرة المدينة الفاضلة الغربية ، لتظهر كقطب ثانى ، للطرف الغربى الرأسمالى ، غير الرشيد . وهكذا فإن الغرب يحافظ نسبيا على الازدواجية ، ولكنها لم تعد ازدواجية المعسكرات ، دولة ضد دولة ، ولكنها أصبحت ازدواجية السياسة داخل كل دولة ، بين نموذج غربى متطرف ، ونموذج آخر رشيد . وتصبح اوربا بذلك ، النموذج الاكثر تعبيرا عن تفاعل هذه الثنائية ، كما انها تصبح الاكثر تمثيلا للنمط الرشيد . خاصة فى فرنسا والمانيا ، وتبقى امريكا معبرة عن سيادة التطرف الرأسمالى ، والذي تمثله فى أوربا إنجلترا .

فيما سبق ، محاولة لكشف النموذج الغربى ، الاكثر اعتدالا ومثالية ، وذلك لان هذا النموذج ، هو القابل للتسويق فى العالم ، فهو نموذج التحديث والتنمية والحداثة والتقدم ، أى انه النموذج الذى يحاول تجسيد جملة المفاهيم الايجابية للحضارة الغربية ، حضارة الآلة المادية . وهنا تكمن خطورة النموذج / الحالة ، فى انه الاكثر بريقا والاشد جذبا . بل أكثر من ذلك ، فهذه الصورة هى المحك الحقيقى لنضالنا ، فإذا تصورناها بإعتبارها نموذج عالمى ، كان علينا ان



نتقدم من خلالها ، ونحاول ان نجد لنا مكان فيها . واذا تصورناها باعتبارها نموذج مختلف عنا فى " القيم " ، وبالتالى معادى " لقيمنا " ، كان علينا ان نكافح حتى نحقق نموذجنا ، ورغم قوة تأثير هذه الصورة / النموذج الغربى .

والاكثر أهمية ، انه بعد انتهاء الحرب الباردة ، وغياب الثنائية القديمة ، وظهور الثنائية الجديدة ، اصبح النموذج الغربى الرشيد ، هو المعد للسيطرة والسيادة على الغرب ، وعلى العالم . ولذلك اسبابه الواضحة ، التى تكمن فى انتشار سلبيات الرأسمالية ، من البطالة ، والعنف ، والجريمة ، وفساد البيئة ، وتزايد الظلم الاجتماعى ... وغيرها . وبصدد تلك القضايا يقدم النموذج الرشيد نفسه ، كمدخل لحل هذه المشكلات ، وتجاوز أزمة الحضارة الغربية .

لهذا نتصور ، ان المستقبل رهن بنجاح هذه المرحلة ، اولا فى السيادة على العالم الغربى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ثم السيادة على العالم . كذلك فإن النموذج الرشيد ، يمثل ما نسمعه عن الشرعية الدولية ، والحكومة العالمية ، ودور الامم المتحدة ، وحقوق الانسان ، والديمقراطية ، والحفاظ على البيئة . كما انه يمثل ثورة المعلومات ، وتصور الانسان المعلوماتى ، فى مقابل تصور الانسان الاقتصادى السابق .

إن كل تلك الاحداثيات ، تجعل النموذج الرشيد هو تحدى المستقبل ، لهم ولنا . وهو فى الواقع ، أهم صورة تعرضنا لها فى الصفحات السابقة ، صورة نهاية التاريخ ، ورفاهية العالم ، والانتصار الأخير للبشرية . وفى هذا المجال ، يظهر مجلس الكنائس العالمى ، باعتباره الممثل الاول للنموذج الرشيد ، والبناء المثالى الغربى ، والاهم انه من أول أنبياء هذا العهد وتلك المرحلة . ولذلك فإن التوقيت الراهن ، هو أفضل لحظة لفهم المجلس ودوره ورسالته .

لعل البداية بالماضى ، حتى نفهم الجذور اولا . فالمجلس يعود فى التاريخ القريب الى المؤتمر الدولى للارسلات التبشيرية فى أدنبرة ١٩١٠ (٨) . حيث ظهر توجه قوى نحو التنسيق الدولى ، وقد تبلور ذلك فى ثلاثة اتجاهات ، الاول حول التبشير ، والثانى حول الحياة والعمل ، والثالث حول الايمان والعقيدة . وبعد ذلك التاريخ ، اتجه كل تيار للعمل المنفرد ، وتشكل فى ١٩٤٨ مجلس الكنائس العالمى من التيار الثانى والثالث ، ثم انضم التيار الاول للمجلس فى ١٩٦١ . ومنذ السبعينات شكلت التيارات الاصولية التبشيرية مجالسها واجهزتها العالمية ، واصبحت تعادى المجلس ، بعد أن اصبح ممثلا لليبرالية المسيحية .



واذا كانت الخمسينات قد شهدت ، اهتماما امريكيًا بالجلوس ، تمثل فى دعمه ماديا ، فإن الصورة تغيرت منذ السبعينات . ففي المرحلة الاولى ، اعتبر المجلس بمثابة حائط صد أمام الشيوعية ، ولذلك نال دعما ماديا أمريكيا ، تواكب مع المكارثية والحملة ضد الشيوعية . لكن الستينات شهدت تغيرا جذريا فى مجلس الكنائس العالمى ، حتى باتت مقررات الجمعية العامة فى ١٩٤٨ وكأنها جزء من التاريخ ، لا الحاضر . ففي تلك الفترة انضمت كنائس عديدة للمجلس ، كان من أهمها الكنائس الارثوذكسية وكنائس دول العالم الثالث . وفى نفس هذه الحقبة ، شهدت الكنائس البروتستانتية تحولا هاما ، وهى المؤسسة للمجلس . ففي الستينات تحولت الكنائس البروتستانتية الاساسية ، اللوثرية والمشيخية (جون كلفن) والتطهرية (جون وسيلى) نحو الليبرالية ، بل ونحو العلمانية (٩) وظهرت أكبر حركة فى التاريخ البروتستانتي للتلاحم بين الدولة والكنيسة ، وعلى أسس الدولة نفسها ، اى الاسس العلمانية . والعلمانية لاتعنى فصل الدولة عن الكنيسة ، بقدر ما تعنى إقامة الحياة على اسس دنيوية ، من المثل العليا ، والتطبيقات العلمية .

والكنيسة المشيخية الامريكية ، ذات التاريخ الطويل فى التبشير ، ومؤسسة الكنيسة الانجيلية المصرية ، تحولت فى هذه الفترة الى الليبرالية العلمانية . وهى الكنيسة التى كان لها الاسهام المتميز فى صياغة وقيام مجلس الكنائس العالمى . وعلى الجانب الآخر ، فقد التحمت الكنيسة اللوثرية الالمانية بالدولة ، وأصبحت جزء لا يتجزء من المشروع العلمانى .

ان تلك التغيرات ، لم تكن بلا اثر على المجلس . بل كانت السبب فى تحوله الجذرى عن واقعه فى الخمسينات . فتحول الكنائس البروتستانتية الامريكية الاساسية الى الليبرالية ، تتبعه بعد ذلك ، خاصة فى السبعينات ، تحول جماهير هذه الكنائس الى الطوائف الاشد محافظة وتطرفا . وأصبحت الكنائس الرئيسية فى أمريكا ، هى كنائس الاقلية ، وتبع ذلك تعرضها لنقص حاد فى قدراتها المالية ، وهى كانت قبل ذلك الممول الرئيسى للمجلس .

والتحول الليبرالى فى الكنائس الامريكية المؤسسة للمجلس ، ثم تحول المجلس نفسه نحو الليبرالية ، جعله أقرب الى الكنائس الاوربية العلمانية ، وتحول تمويله بالتالى من الثقل الامريكى ، الى الثقل الاوروبى ، خاصة الالمانى (١٠) . والكنائس الالمانية ، لها اموال مخصصة من الدولة نفسها ، ومن الضرائب ، لان الدولة لاتنفصل عن الكنيسة فى الدستور الالمانى . ولكنها منفصلة عن الكنيسة فى الدستور الامريكى ، ولذلك فإن اموال الكنيسة الامريكية ، تأتى من جماهيرها.

ورغم ان أمريكا تشهد مستوى مرتفع للتدين المسيحي ، والمانيا تشهد انخفاضا ملحوظا وحادا في عدد المترددين على الكنيسة ( ٤٠ ٪ في أمريكا ، وحوالي ٥ ٪ في المانيا ) .

من هنا نستطيع تصور انتقال الثقل من امريكا الى المانيا ، وتوجه المجلس للتعبير عن الليبرالية العلمانية ، وبأموال اوربية ، المانية اصلا ، ثم من دول شمال اوربا ثانية . ومعظمها يأتي من دول ترتبط الكنيسة والدولة معا في الدستور . بهذا يصبح المصدر الحقيقي للمال ، المانيا ، ويصبح ايضا ناتجا عن التحالف الكنسي مع العلمانية .

ولكن الامر لا يقف عند حدود الكنيسة . ففي امريكا تحولت الكنائس الى الليبرالية العلمانية، وتحولت ايضا الى معارضة النظام الامريكي المتطرف في راسماليته ، والذي يلقي التأييد من الاصولية المسيحية ، خاصة منذ السبعينات ، أما في المانيا ، فالدولة متحالفة مع الكنيسة الليبرالية العلمانية ، وكلاهما يتجه نحو الراسمالية الرشيدة ، أي النموذج الرأسمالي الليبرالي ، والمدعم بالاشتراكية الديمقراطية ، وذلك في مواجهة السياسة الرأسمالية المحافظة المتطرفة ، والتي تكشف عن نفسها في السياسات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك في السياسات الخارجية ، وتميل الى خفض الضرائب على الاثرياء ، وتقليل الدعم عن الفقراء، واطلاق قوى السوق (داخليا) ، والى فرض الهيمنة ، والتدخل العسكري ، وتغيير نظم الحكم ( خارجيا ) .

اذن فان التحول من المسيحية المحافظة ، الى الليبرالية ، تبعه ايضا تحول في المنظور السياسي، من المحافظة الى الليبرالية ، وتحول مصدر الدعم من دولة محافظة غربية ( امريكا ) الى دولة ليبرالية غربية ( المانية ) . تواكب ذلك كله ، مع دخول الكنيسة الارثوذكسية وكنائس العالم الثالث الى مجلس الكنائس العالمي . وبذلك شهدت الستينات معظم التحولات الكبرى ، وشهدت الجمعية العامة الرابعة في ١٩٦٨ ، بداية ظهور التوجهات الجديدة للمجلس . ولكن تلك التوجهات ، بدأت تأخذ طريقها تدريجيا الى حيز التنفيذ ، واستغرق ذلك مرحلة كبيرة من الجمعية الخامسة في ١٩٧٥ حتى الجمعية السادسة في ١٩٨٣ ( ١١ ) . ومنذ ذلك التاريخ أصبح المجلس ممثلا للنموذج الغربي الرشيد ، أي الليبرالية السياسية ، والاشتراكية الديمقراطية .

وتلك التحولات ، أثرت على الموقف السياسي لمجلس الكنائس العالمي ، الذي أصبح يمثل المعارضة الغربية ( ١٢ ) . ولذلك فإنه ، خاصة في الثمانينات ، هاجم سياسة أمريكا بعنف ملحوظ ، وتساهل الى حد ما مع سياسات الاتحاد السوفيتي ، ولذلك اتهم من قبل الاصولية الامريكية ، بالعمالة لجهاز المخابرات الروسي ( K . G . B . ) ( ١٣ ) . وأصبح المجلس تدريجيا

أميل للسياسات الاوربية ( الالمانية - الفرنسية ) ، وجاء طرحه معبرا عن الحلم الغربى الاوربى ،  
أو المدينة الفاضلة الغربية ، لذلك سنجد أن موقف المجلس تماثل فى الواقع اليسار الاوربى ،  
وحركة الخضر ، واطروحات الاشتراكية الديمقراطية ، ويدور طرح المجلس حول ، العلم ،  
والتقدم ، والاستخدام الرشيد للبيئة ، وحقوق الاقليات ، والطفل ، والمرأة ، والتنمية ( ١٤ ) ،  
كذلك فإن المجلس رفع شعار الحوار ( ١٥ ) ، مع الاديان والايديولوجيات والاديان الوثنية ،  
ذلك الشعار الذى أصبح الان من ملامح العصر . كذلك فإن المجلس نادى بالحفاظ على  
الحضارات المحلية ، وأكد دور الكنائس المحلية .

وفى المجال السياسى ( ١٦ ) ، فإن للمجلس دور كبير فى تأييد حركة النضال الافريقى  
بجنوب افريقيا ضد العنصرية ، كم أيد لاهوت التحرير والحركات الماركسية فى أمريكا  
اللاتينية ، ومنها حركات الساندنستا فى نيكارجوا . وهاجم المجلس دور امريكا فى امريكا  
اللاتينية ، ودورها مع ثوار الكونترا ، ودورها فى أفغانستان ، وفى حرب الخليج ( ١٧ ) ... الخ .  
أما فى موقفه من اسرائيل ، فقد نادى المجلس بالسلام والتفاوض ، وحق دولة اسرائيل فى  
الوجود ، وحق تقرير المصير ، والانسحاب فى الارض المحتلة ( ١٨ ) . وفى ذلك قدم المجلس  
رؤية تقرب كثيرا جدا مما يحدث الان ، بعد اتفاقية السلام المصرى - الاسرائيلى ، واتفاق غزة  
اريجا اولاً . كما ان المجلس اذان غزو لبنان فى ١٩٨٢ ( ١٩ ) وطالب بانسحاب اسرائيل .

بهذا طرح المجلس ، رؤية لتيار غربى رشيد ، هو أوربى أكثر منه أمريكى ، وهو المانى فى  
توجهاته . وايضا طرح المجلس ، وكان سابقا ، الصورة التى تتشكل الان فى العالم الغربى ،  
والتي يتشكل الغرب من خلالها ، ليبدأ مرحلة جديدة ، هى مرحلة ما بعد الصناعة ، أو ما بعد  
التحديث .

والاهم من ذلك أن رؤية المجلس حول العالم ، والكونية ، والحوار فى عالم متعدد ،  
والشرعية الدولية ، وحماية الاقليات ، ومحاربة العنصرية ، كذلك محاربة اتهام الصهيونية  
بالعنصرية ، ودوره المؤثر فى أروقة الامم المتحدة ، كل هذا شكل فى النهاية ، صورة جيدة عن  
الكونية الجديدة ، والنموذج الانسانى العالمى . مما يدفعنا لتصور وجود دور للمجلس كمختبر  
أولى للأفكار والتصورات التى ستشكل الغرب فى المستقبل ، وذلك من خلال نشاطه الثقافى  
والفكرى المكثف .

وقد شهد المجلس جدلاً فعالاً حول مشكلة الشمال والجنوب ، وحول قضية التغريب ، وحق الحضارات الأخرى . ولكن كل تلك القضايا دارت حول رفض النموذج الأمريكى ، دون أن تكون إعادة صياغة للنموذج الغربى نفسه . والمشكلة هنا ، أن مجلس الكنائس العالمى ، ليس مجرد تجمع للمتعددين ، بقدر ما هو جهاز من الخبراء ، له توجهاته المحددة ، تلك التوجهات التى عارضها الأعضاء أنفسهم فاتهم بأنه متحيز للغرب من دول الجنوب ، وأنه علمانى يتعد عن المسيحية من الكنائس الأرثوذكسية . وظل الكيان الأرثوذكسى خاصة ، يعارض الكثير من مقررات المجلس ، رغم استمراره فى عضويته ، فالمجلس يمثل الكيان الدولى الأكبر الذى تتحرك من خلاله الكنائس الأرثوذكسية . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تنضم للمجلس ، لأنها رأت أنها فى حد ذاتها كيان دولى أكبر حجماً من المجلس ، ولا يجوز لها أن تكون مجرد عضو .

فماذا عن دور المجلس ؟ لقد جاء تعاطف المجلس مع الجنوب من خلال ليبراليته ويساريته ، ومن ثم عداؤه لأمريكا ، أو النموذج الرأسمالى المتطرف . ولذلك فإن المجلس يعادى كل أشكال القهر والاستعمار والهيمنة المباشرة . ولكنه يقدم نموذج الليبرالية السلمية ، وجملة المفاهيم حول حقوق الأقليات والمرأة والطفل ، وعن التنمية والتقدم الرشيد ، وهذا النموذج هو الإطار الأشمل لعمل المجلس ، وهو المنظومة القيمية التى ينشرها المجلس عبر الكنائس المحلية الأعضاء ، وعبر المجال السياسى الدولى .

وفى مواجهة هجوم المجلس ، على النموذج الغربى المتطرف ، تميز بإصراره على النموذج الليبرالى السلمى ، كمشروع مسكونى ( كونى ) للكنيسة ، وللعالم أيضاً ، طارحاً بذلك نموذج عالمى للبشرية . وذلك النموذج ، كان أساس الحوار بين الطوائف المسيحية ، وبين المسيحية والإسلام ، وبينها وبين الماركسية ، وكذلك مع الأديان الوثنية . إن المسكونية ، هى مفتاح هام فى حياة المجلس ، فهى تعنى الإطار القيمى العالمى للكنيسة ، وهو يمثل المطروح حالياً عن الإطار العالمى للبشرية . وهو فى النهاية مشروع غربى ، لم يتحقق بعد ، بهذه المثالية ، حتى فى الغرب نفسه .

وتأخذ قضية تفكيك المجتمع أهمية قصوى فى المنظومة الغربية ، وفى منظومة المجلس . فالحديث عن الشباب والطفل والمرأة والأقليات العرقية ، كفئات منفصلة ، وكمجموعات من الأفراد لا يربط بينهم إلا الخصائص السيكولوجية / البيولوجية ، ذلك التقسيم ، يعد فى حد ذاته ، هدماً لآى تكوين اجتماعى / جماعى ، وتحويله إلى تكوين اقتصادى / فردى . وهو عنصر



هام فى المنظومة الغربية ، وكذلك فى عمل المجلس ، الذى نستطيع ان نقول انه يعمل على تحرير المرأة والطفل والشباب والاقلية العرقية ، ولكن السؤال تحريرهم من ماذا ؟ والاجابة واضحة ، تحريرهم من النماذج الحضارية الاجتماعية ، التى اهدرت حقوقهم . وفى ذلك ، تفكيك لهذه النماذج ، المعبرة فى الواقع ، عن نماذج حضارية مختلفة عن النموذج الحضارى الغربى .

لهذا اصبحت قضية الاقليات / الحقوق ، من اشد المداخل فى تأثيرها ، لانها تفيد تشكيل المجتمعات على اسس اجتماعية جديدة ، وتفتح الباب لتكوين جماعات أو مجموعات تنتمى للمنظومة الغربية ، وتصبح هذه المجموعات هى الوكيل الغربى المحلى ، الذى يعمل على نشر المنظومة الغربية ، وتفكيك المجتمع . فمثلا سنجد ان تحويل الاسرة ، ككيان محورى فى منظومات حضارية معينة ، الى رجل وامرأة وطفل وشاب ، وكل منهم ينتمى الى مجموعة يرتبط بها برابط نفسى / جسمانى ، هو تفكيك للرباط الاجتماعى ، واحلال اسس جديدة للحياة ، هى اسس نفسية جسمانية ، وهذه الاسس ذات الطبيعة المادية ، هى الاساس الفلسفى الحقيقى لتحويل الانسان من كائن اجتماعى ، الى كائن اقتصادى ، فما يبدأ بالبيولوجيا ينتهى بالاقتصاد ، مروراً بالسيكولوجيا . لذلك يظل علم النفس ، وعلم الاقتصاد ، هما الاساس الحقيقى ، لالية خلق الانسان العالمى ، الاقتصادى المعلوماتى ، على اسس غربية ، أو هما اساس عملية اعادة " تربية العالم " ، أو عملية التطهير الحضارى للعالم .

ولعل موقف المجلس من اسرائيل ، يمثل نموذجاً اخر للمنظومة السلمية للمجلس . فهو لايعطى اعتباراً للحقوق الاصلية ، ويتجاوز فكرة العدل ، فيتوجه لتنظيم الحقوق بين المعتدى والمعتدى عليه فى صياغة سلمية ، دون اعتبار للحق الاصيل لاعادة الدولة الفلسطينية للوجود . ولكن ما فعله المجلس ، فى بياناته عبر تاريخ الصراع ، تفعله الان الانظمة العربية ، بعد انضمامها السعيد للمنظومة العالمية .

وعلى مستوى الحوار بين الاديان ، يؤيد المجلس الحرية الدينية ، ويقبل التعدد ، ويقبل الاديان السماوية ، ويعترف بنبي الاسلام ( ٢٠ ) . ولذلك فهو يواجه حرب شديدة من الاصولية المسيحية . وهو فى هذا ، يقدم رؤية علمانية للدين ، لاتقف عند البناء العقائدى ولكن تتجاوزه الى عالمية القيم المشتركة فى المنظومة الليبرالية السلمية . وليس الحوار مجرد نشاط للمجلس ، بل هو أهم أدواته ، خاصة عندما نتكلم عن الحوارات واوراق العمل ، وليس فقط عن الحوار بين المختلفين . ان صناعة قادة الفكر ، هى اهم منجزات المجلس ، الذى اصبحت له وكلاء فكريين



على مستوى الكنائس المحلية ، عبر ارجاء العالم . فصناعة القائد ، هى أهم وظائف المحافل الدولية ، التى تقدم المعلومات والافكار ، مدعومة بما تقدمه من فرص للنجاح والتعلم ، والنشاط الدولى ، والدعم المعنوى والمادى ، وتصبح بذلك معملا للافكار ، التى يصدرها الى القادة ، وهم يقومون بتسويقها فى بلادهم ، وكنائسهم المحلية .

وهنا تظهر اهمية التمويل المادى ، من المجلس ، والكنيسة والدولة الالمانية ، وبعض الدول الاوربية . فهذه الاموال ، هى الدعم الرئيسى ، للنموذج الليبرالى السلمى ، ولعلمنة العالم ، ولاعادة تنميط العالم من خلال التنمية . وهى اموال تأخذ طريقها للدول عديدة ومنها مصر ، وتجد طريقها الى الكنائس المصرية ، والمؤسسات المسيحية المصرية . والاهم انها تجد طريقها الى الكنيسة الارثوذكسية ، المعادى الاول للغرب المسيحى حسب الخطاب المعلن . حيث يقوم المجلس بتنظيم تمويل سنوى ، من مصادر المانية واوربية ، لدعم جهود الكنيسة فى التنمية .مبلغ يصل الى ٢ مليون دولار سنويا ، دعما لجهود اسقفية الخدمات (٢١) . وقيمة المبلغ ليست هى مرتبط بالفرس ، فهناك غيره الكثير ، للكنيسة الارثوذكسية وغيرها من الكنائس والمؤسسات . ولكن الاهم ، ان تلك الاموال تحمل معها الافكار ، وشروطها لاتزيد عن تطبيق الفكرة ، وهى التنمية بالضرورة ، والتحديث فى النهاية ، ونشر نموذج القيم الغربية كغاية اخيرة .

واذا كانت التنمية تعنى تطوير المجتمع للافضل ، فيجب أن تكون شعارنا جميعا . ومثلها مثل الديمقراطية ، وحقوق الانسان ، وكلها مفاهيم تحمل قيما سامية . لكنها ليست مفاهيم مطلقة او مجردة ، بل متميزة حضاريا ، وتحمل القيم فى معيار محدد ، وبأساليب خاصة . فالتنمية - مثلا - تعنى الرفاهية ، ونمط الحياة الغربى ، والاستهلاك ، واستخدام الاشياء والمادة للسعادة . ولا تعنى - مثلا - التضامن الاجتماعى ، والتماسك ، والانتاجية ، ومهارة العمل وتنظيم المجتمع ، و المصلحة الجماعية ، والسعادة كمعنى دون أن تكون فى النهاية استخدام لمادة ..... وهكذا.

التنمية بهذا المعنى ، ليست كلمة عربية مشتقة من النمو ، وتعنى اسراع النمو الموجه والمقصود ، ولكنها معنى متميز ،ليس فيه الا التنمية الاقتصادية ، والنمو المادى ، وتحقيق نموذج الآلة / الرفاهية ، دون نموذج الجماعة / الرضاء على سبيل المثال .

ويبقى السؤال . هل المجلس يمثل المسيحية ، وهل هو مشروع مسيحى مسكونى اممى ؟ الواقع انه مشروع عالمى ، اممى مسكونى ، وهو علمانى قبل أن يكون مسيحى ، وهو غربى

حصرا ، ومتحيز اصلا . وهو نتاج للتحالف الغربى ، العلمانى المسيحى . وهو فى النهاية ، سيقى اداة سلمية ، فى عملية تطهيرنا حضاريا .



## المشهد الثامن

### الأمة .... محاولة للإيمان

نعم ، هي محاولة للإيمان بالامة ، وحضارتها ، وتاريخها ، محاولة تنبع من إحساس قوى بأننا ننهار ، وان الامة ستصير ذكرى ، والحضارة ستتحول الى المتحف ، ولن يبقى لنا الكثير ، حتى بكاء الاطلال . انه اقتناع اكيد بأن الطريق الذى نسلكه ليس هو الافضل ، وان النموذج الغربى ، ليس نموذجا للبشرية جمعاء ، بل هو نموذج الغرب وللغرب .. وهو ايضا اقتناع بان الايديولوجية لم تنتهى ، وان التاريخ لم ينتهى ، وان ما يحدث الان ليس الا غطرسة قوة ، لحضارة بلغت اوج مجدها ، وان المستقبل هو عالم جديد ، ومرحلة جديدة من حياة البشرية ، ويبقى علينا لأن نجد مكانا فى المستقبل ، بل ان نصنع لانفسنا مكانا .

نعم ، هي محاولة للإيمان بالامة ، ورد على اشكالية الاصابة والمعاصرة ، التى اخذت منا الكثير ، الماضى والحاضر ، ولم يبق لنا الا ان نتجاوزها . فليس بين الاصابة والمعاصرة تزاوج ، وليس بين الحضارة العربية وتلك الغربية تزاوج . ولكن العصر يعنى بالنسبة لنا ، انهاض الحضارة ، حتى تعود لها سيادتها وفاعليتها ، فى عصر جديد لها . انها باختصار دعوة لمعاصرة الاصابة ، دعوة لاعادة ما انقطع من تاريخنا الحضارى ، وابداع حضارتنا فى ثوب جديد لا يلاءم " العصر " ، بل يلاءمنا ويتجاوز العصر ، ويصنع مستقبلنا .

إن حضارتنا فى النهاية ، هي قيمنا ومبادئنا ، وهي تفضيلاتنا واختيارتنا ، وهي بذلك المعيار الذى نقيس عليه الاشياء . فنحدد اختيارنا ، ونحكم تعلمنا من الاخرين ، ونعيد صياغة كل ما أنتجت البشرية ، ليحقق وظيفة جديدة ، حسب معيارنا ، وهدفنا ، واحتياجنا .

وليس فى ذلك جديد . فكل الحضارات فعلت ذلك ، والحضارة الغربية تعلمت من الحضارة العربية السابقة عليها ، ولكن حسب معيارها ، فأخذت منها واعادة صياغة وتشكيل ما أخذت . وخرج المنتج النهائى ، يختلف عما سبقه ، خرج عصر جديد فى حضارة البشر .

فهل نستطيع أن نكون بداية عصر جديد ، بعد انجازنا الفرعوني ، وانجازنا العربي الاسلامي ؟  
أم ان التاريخ قد أغلق ابوابه على البشرية . واصبحت الحضارة الغربية ، خاتمة الحضارات !!؟  
علينا أن نتعلم من الحضارة الغربية ، وعلينا أن نعيد احياء قيمنا ، ثم نبدع حضارتنا من  
جديد ، وفي ثوب جديد ، ذلك هو الهدف . وهو كذلك ، لاننا نرى انه الطريق الوحيد ، وان  
وجودنا رهن بنهضة الامة ، واحياء الحضارة العربية ، وانه لن يتحقق لنا مستقبل من خلال  
التبعية للنموذج الغربي . فالتقليد ليس هو الطريق ، ونخلفنا وتأخرنا ليس مبرر الاستسلام  
للوواقع، بل الدافع الذي يدفعنا نحو المستقبل .

اننا نحتاج للنهضة ، اى لقيمنا ترسم لنا تصورا جديدا عن الحياة ، يدفعنا للمستقبل .  
والنهضة هي عقل الامة ، وقيادة الامة ، وجماهير الامة . تتحرك معا من أجل تحقيق تصورها عن  
الحياة ، واعادة افراز قيمها في اشكال جديدة ، وتقديم نموذجها في الحياة ، انجازا للبشرية ،  
تتعلم منه ، وتستفيد منه ، دون ان يفرض عليها .

ولن يكون لنا ذلك ، الا بعقل ينهض ، وقيادة تحرك الجماهير ، ونظام سياسى ، يتبنى  
الحلم / المستقبل ، ويعبئ الجماهير نحو العمل . فهل لنا ذلك ؟ لن يكون لنا ذلك ، إلا إذا  
تحررنا من النموذج المفروض علينا ، وخرجنا من أسر منظومة القيم الغربية ، واستعدنا منظومة  
القيم العربية . لن يتحقق ذلك ، الا بارادة وطنية ، تحمل الامة معها ، نحو المستقبل ، وتنظر الى  
الخروج من الازمة ، وتغيير احوالنا كهدف ، دون ان تظل قوى المجتمع اسيرة تحقيق الانجازات  
ومصالح وقتية ، واسيرة ازماتها نفسها ، لاتعمل الا من اجل البحث عن الحلول الجاهزة ، فلا  
تجد الا النموذج الغربى ، جاهزا ، ومفروضا علينا ، ومدفوع ثمن تطبيقه .

فهل القضية هي رفض الغرب ، وكل ما هو غربى ؟ لا ، ان القضية ببساطة هي رفض  
الحياة على نمط قيم لا تخرج منا ، ولا تعبر عنا ، ولا تحقق لنا الحياة والسعادة والرخاء . ان مصر  
قبلت العروبة والاسلام ، لانها جاءت بقيم تماثل قيمها ، ولولا ذلك لظلت مصر غير عربية ،  
ولما أسلمت كلها . فكلما كان الوافد علينا من قيمنا ، فهو منا ، وكلما كان بقيم ليست منا ،  
فهو ليس منا . ان القيم هي مفتاح الحياة ، معيار الخير والشر ، معيار السعادة والحزن ، معيار  
الافضل والاسوء ، الابيض والاسود ، ولايمكن لنا أن نعيش بعقل غير عقلنا ، وبقلب غير قلبنا .  
لايمكن لنا أن نسعد فى النهاية ، بنموذج الالة / الرفاهية ، ولا اتصور اننا سعدنا به . ألا نصحو  
كل يوم على بكاء الاطلال ، اطلال الاسرة والحياة الاجتماعية ، والاحترام بين الناس ، واطلال



الشهامة والرجولة ، والتضامن والتماسك !! وألا يعصرنا الالم من نماذج العنف والجريمة ،  
وتجاوز كل حدود القيم ، من الابن الذى يقتل ابيه ، والشاب الذى يقتل من اجل الادمان ،  
والطفيلية وتسلق جثث البشر من أجل المال ، وانهيار الاخلاق والقيم !!

اننا نبكى الاطلال ، اطلال قيمنا وحياتنا ، اطلال حضارتنا ، ولكننا نجري وراء النموذج  
الغربي ، وتريد من تغريتنا ، وتريد حضارتنا موتا ، ثم نعود للبكاء على كل ما ضاع . أليس فى  
ذلك تناقض أساسى ، بين تصورنا عن المستقبل على النمط الحديث ، وتصورنا للحياة على نمط  
قيمنا ! اننا لن نستطيع تحقيق النموذج الغربى ، وتحقيق قيمنا معا ، وعلينا ان نضحى ، فبأى  
شئ نضحى !؟

والسؤال الاهم ، هل لم يعد لنا أمل فى الحياة ؟ ولم تعد لدينا القدرة على ان نحلم ،  
ونبدع ، ونتخيل مستقبل جديد ، ثم ننهض ونحقق حضارتنا وحلمنا ومستقبلنا وبعرقنا وايدينا ؟  
لا تصور اننا بعد من الاموات ، وان كنا نغالب الموت ، ولا تصور ان الكلمات ليست الا النزق  
الاخير ، بل هى النبض الذى فىنا ، حتى وان خفت ضرباته .

هى اذن محاولة للامان ، بالامة وحضارتها ، وهى دعوة لتيار الاستقلال الوطنى ، كى  
يأخذ دوره من جديد ، ليس فقط من أجل الاستقلال السياسى ، ولكن من اجل الاستقلال  
الحضارى الشامل . وهى ليست دعوة للاستقلال المزوج بالجمود والتراجع والتخلف ،  
فاستقلال الجمود ، والعودة الحاملة للماضى ، ليست الا مرحلة للدفاع عن النفس ، أو هى  
مرحلة اولية لليقظة ، ان لم تتحول الى استقلال ايجابى مبدع ، يتجاوز أسوار الجمود والماضى ،  
سوف تصبح ضعف جديد داخلنا ، يسلمنا فى النهاية للآلة التى تعيد تنميطنا وتأدينا وتربيتنا .  
بل اننى اتصور ، ان النزعة للجمود ، والعودة للماضى ، أضرت القضية ، وفسدت الحلم .  
وجعلت الاستقلال رهينا للتخلف ، ويبدو معاديا للزمن . ولا اتصور من الجمود ، الا التمسك  
بالقيم التى نحيا بها ، ولا أتصور فى العودة للماضى ، الا لاكتشاف ذاتنا ، وعناصر خبرتنا  
وحضارتنا ، ويبقى ان نحمل القيم والتراث معا ، فى صياغة جديدة تعبر عنا فى هذا الزمن ،  
وتستشرف مستقبلنا فى الزمن القادم ، وتعطينا قوة فى مواجهة مفردات العصر ، واشكالياته ،  
وازماته .

ولكن تيار الاستقلال والجمود من جانب ، ورفضنا للعودة لأسوار الماضى والتأخر من  
جانب اخر ليس مبررا كى نلقى بأنفسنا فى احضان النموذج الغربى . وبمعنى أدق ، فإن صوت

طلقات الرصاص ، من المعارضة المسلحة ، يجب أن يوقفنا للنهوض ، ونضم الجيل الحائر إلينا لنكافح من أجل المستقبل . ولكن ان يخيفنا صوت الرصاص ، فلا نجد ما نحتذى به الا الغرب ، فاننا بذلك نضحى بأنفسنا مرتين ، الاولى عندما تركنا احوالنا تتدهور ، حتى صار العنف لغة بيننا ، والثانية عندما نبيع المستقبل من أجل حماية الحاضر .

ان الخطر يأتي من داخلنا ، ومن خارجنا ، وهو فى جملة دليل على خروجنا العنيف من نظامنا وقيمنا ، حتى صرنا مجتمع مفكك وضعيف ، لا يستطيع الاستمرار ، الا بالدعم والمنح والقروض ، ولا يستطيع التفكير الا باستيراد الافكار ، ولا يستطيع الانتاج الا باستيراد الآلات . وعلى عقل الامة دور كبير ، كى يتجاوز اشكالية الاصاله والمعاصرة ، التى اسهم فيها زكى نجيب محمود (١) باسهام بارز ، ومن اسهامه نلمح انه اراد الحفاظ على دور العقل والعلم ، وأراد الحفاظ على ميراثنا الحضارى . ولسنا نرغب فى غير ذلك ولكن العقل والعلم ، ليس العصر والغرب تحديدا ، ولكن فى مجال العقل والعلم ، لنا أن نتعلم الكثير من الغرب ، ونصيغ بعد ذلك عقلنا وعلمنا . وليست حضارتنا على عداوة مع العقل والعلم ، وفى كل حضارة غيبات وخرافات ، بل ان كل علم يبدأ من صيغ فلسفية ، من عقيدة ، يثبتها الايمان لا العلم ، ثم يتحرك العلم فى داخلها ليؤكد لها ويوظفها لخدمة الحياة .

وسنجد فى تراثنا الكثير ، لنقف عنده ، ولعل طه حسين وقفة هامة فى تاريخنا . فقد تصور ، وتصورنا ، ان التقدم هو الغرب ، وهو الثقافة الغربية . ولكن طه حسين قدم لنا الآخر ، ولم يستطع تجاوزه ، واضاف لعقلنا علما ، ولم يستطع ان يبدع لنا علمنا . والرواد ، ادوا دورهم ، وفتحوا لنا كل النوافذ والمنافذ ، وبقي علينا ان نكمل المسيرة ، وان ننضج بالقدر الكافى الذى يساعدنا على ان ننهض . فلكل زمن ادواره ، ولننظر للحاضر حتى نعرف .

اننا اليوم لا نتعلم من الغرب ، ولا نفهمه ، ولا نحاول فهم تراثنا فى ضوء ما يقدمه ، ولا نناقش - حتى - مدى ملاءمته لنا ، بل فقط ننقل كل افكاره وتنافس فيمن ينقل الفكرة أولا . فإذا كان الرواد لم يحملوا مشعل النهضة ، فقد هيموا لنا الطريق لذلك . ولكل منهم اسهامه ، والبعض تمادى فى التأثير بالغرب ، والبعض ظل مهموما بالتراث منشغلا بالبحار الغرب . ومن هنا يأتي دورنا .

ونضيف لذلك تجربة القومية العربية ، والناصرية ، التى تركت لنا تراثا فى الصمود ، وخبرة طويلة فى الكفاح . ولكن المشكلة كائنة فى انحصار العمل من اجل الاستقلال السياسى ، دون

العمل من أجل الاستقلال الحضارى . لقد كان للزمن دوره , فقد ساد بيننا أن التحديث عملية تتواكب مع تراثنا ، ولا تلقى بنا فى أسوار التبعية . وإتضح أن التحديث طريقنا للتطهير الحضارى ، والتبعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وتجارب الماضى ، هى مخزون الخبرة ، الذى يجب ان يحركنا فى المستقبل .

وحديث الامة ، يقربنا من منطقة الاشواك ، التى هى التيار الاسلامى . ولا اتصور التيار الاسلامى ، الا فصيلاً من فصائل الوطنية فى مصر والعالم العربى ، كما فى غيرها . وهو قصة نضال ، ميزها التمسك الشديد بالثراث ، واضعفها الى حد خطير الجمود والتمسك بالماضى واللجوء للعنف . ومصير التيار الاسلامى ، تحدده أزماتة الداخلية ، أكثر من الخارجية . فلقد أصبح الاسلام عنوانا لحركات الاستقلال ، واصبح له الشارع السياسى على اتساع عالمنا العربى . ولكن بعض فصائل التيار الاسلامى ، قدمت نموذجاً للحياة ، جامدا ومتراجعا ومتأخرا ، لا يستوعب الحاضر ، ولا يماثل الماضى . فجاء جمودها دفاعا سلبيا عن التراث دون أن تقدم الجديد . ثم جاء العنف كى يلطخ الثوب الاسلامى بدماء تدينه ، وتسأله عن السبب ، وعن النتيجة ، فقد جاءت دماء مهذرة ، وليست دماء فى ساحة النضال من أجل نهضة الامة . ولكن فصائل الحركة الوطنية ايضا ، جعلت من التيار الاسلامى مشكلتها ، ومن الجمود والعنف قضيتها ، ونسيت الفرق بين المعارك الداخلية وتلك الخارجية ، وان الهروب من الجمود والعنف ، ليس بالإرتقاء فى أحضان النموذج الغربى ، الذى يودى فى تصورنا إلى التماذى فى الجمود والعنف معا . وبذلك نجھض - بانفسنا - احتمالات النهضة . ونترك الساحة الخارجية ، للمعارك الداخلية ، ونحارب انفسنا ، بدلا من الكفاح من اجل الخروج من أسر الآخرين . ان النموذج الغربى يشقنا الى صفوف تتناحر ، حتى تقضى على بعضها ، وتفتح المجال امام سيادة الغرب ، دولا ونموذجاً للحياة . علينا ان نبحث عن ما يجمعنا ، ويخرجنا من الاستسلام المهزوم ، كذلك من استقلال الجمود والعنف .

## النموذج ....

**إنها مداولة للامان ،** يان النموذج العربى هو طريقنا للمستقبل ، وان النموذج الغربى ليس الا طريقنا الى الهزيمة . وهى رفض لنموذج الانسان الاقتصادى ، ورغبة فى احياء نموذج

الجماعة الاجتماعية . والرفض ليس تعبيرا غوغائيا ، او صوتا عاليا ، لكنه نتاج واقع ، أصبح فيه النموذج الغربى ، هو مصدر الحياة والتشريع والسياسات والنظم ، وكل حركة المجتمع .  
واذا كنا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، قد عشنا وفود العناصر الغربية كعوامل مساعدة لنهضة الامة ، وتطوير تراثها ، فاننا ومع نهاية القرن العشرين ، نشهد تغيرا كاملا ، تحولت فيه عناصر التراث الى عوامل مساعدة تمصر وتعرب النموذج الغربى ، حتى يسهل قبوله وانتشاره .

وذلك النموذج ، والصراع حوله ، ليس اشكالية ثقافية أو علمية ، وليس موضوعا للنخب ، أو الحكام ، فنحن بصدد نموذج حياة ، عن الحياة نفسها ، عن سلوك ملايين المصريين ، وعن احوالهم وظروفهم . وهو فى النهاية حديث عن مستقبل ملايين العرب ، وعن مصير أمة العرب .  
وعندما نتكلم عن نموذج الحياة ، فنحن نتكلم عن الرؤية ، وعن المضمون الحضارى والثقافى ، وعن اختياراتنا تجاه المستقبل . وهنا علينا ان ندرك ان التميز بين النموذج العربى ، وذلك الغربى ، ليس تميزا بين تيار وطنى وآخر عميل . والكتاب ليس عن العمالة ، بل عن الوكالة ، وهو عن انتاج الافكار او استيرادها . وفى كل الحالات نحن امام تيارات وطنية ، يحدد اختيارها ظروفها واحوالها وتصوراتها . فقد تكلمنا عن من يشير بالنموذج الغربى ، باعتباره الحل ، أى لانه يؤمن ان مستقبلنا رهن بالنموذج الغربى ، وهو لذلك - فرد أو جماعة أو مؤسسة - يعبر عن تيار وطنى ، نتصور انه اخطأ الاختيار . اما العمالة ، فلم تكن موضوعا ، أما العملاء ، فهم فى النهاية قلة ، يفرزهم التاريخ ، وي طرحهم خارجه ، لذلك لم يكن حديثا عنهم ، أو معهم .

واذا كانت الكلمات ، حول التيار الذى يختار النموذج الغربى ، وذلك الذى يختار النموذج العربى ، فقد كان محك ومقياس الجدل ، هو فى عدة اوضاع راهنة ، منها تزايد تبعية قرارنا السياسى للشروط الغربية ، وتفشى أمراض المجتمع الغربى بيننا ، بدرجة أقل مما يحدث فى الغرب ، ولكننا لانحتملها . كذلك فقد كان مقيارنا ، فى ان لكل شعب حضارته ، ولا يمكن ان نقبس الحضارات ، ثم نحاكىها ، فننجح ونحقق الافضل لنا . تلك وغيرها كانت معيار لاختيار النموذج العربى ، ورفض الغربى .

واصبح من الضرورى لنا ان نحرر المسألة العلمية ، حتى نستطيع أن نحكم على النماذج وعلى القضية المستقبلية برمتها . فالمعيار العلمى متحيز للبيئة التى أفرز فيها . فهو " معيار " وهو .

بالتالى أداة قياس منسوبة الى " قيمة " ، والقيم هي التعبير الامثل عن جوهر الحضارة . والمعيار العلمى ، هو الاسس المحددة للتفكير العلمى ، التى تحدد اختيار الظاهرة ، واختيار الجانب المعنى بالدراسة ، والادوات والمفاهيم ، وغيرها . وهو فى النهاية المحدد لوظيفة العلم ، الذى يتحرك بوصفه مؤسسة اجتماعية لتحقيق وظيفة اجتماعية هامة ، وهى تقنين وسائل المعرفة " داخل " المجتمع ، من اجل تحديد أفضل وسائل لتحقيق قيمه .

لهذا فإن الموضوعية فى العلم ، هى تقنين الطرائق والوسائل التى تكفل الوصول الى نفس النتائج عند استخدام نفس المعايير . والمعايير هنا تحدد نظرية العلم ومسلماته، وتنتج من خلال حضارته ، بل وتتغير كلما تغيرت حضارة المجتمع من مرحلة الى أخرى . فالموضوعية اذن هى اسلوب لتجاوز الفروق الفردية الذاتية داخل سياق الحضارة الواحدة، وليست تجاوزاً للفروق الحضارية . لانه لايمكن توليد نظرية علمية كونية ، خارج سياق الحضارة . وذلك لاننا لانستطيع أن " نبدع " علما بدون مؤسسة وعلماء ، لهم علاقة بالحضارة والمجتمع والدولة .

لذلك نتصور ان العمل العلمى على المستوى العالمى ، لن يكون الا نموذجاً يقوم على التفاعل بين النماذج الحضارية المتعددة ، أى انه تفاعل بين اكثر من " علم " وأكثر من " معيار " علمى . والمقارنة بين النتائج من خلال دمجها مع العلم المعيارى الذى انتجها ، هى مقارنة بين الحضارات فى النهاية ، ومقارنة بين الافراد والجماعات ، من حيث هم مغبرون وممثلون للحضارات .

ولهذا ، نتصور الكونية الانسانية ، والمستقبل العالمى ، فى شكل جديد ، ليس فى شكل تدويل النموذج الغربى ، أو أممية الانسان الاقتصادى باعتبارها المشروع الغربى الراهن ، ولكن فى نموذج التعدد الحضارى ، شرطاً اساسياً للتعایش لابين أقوى وأضعفاء داخل نموذج موحد قياسى ، ولكن بين نماذج متعددة ، لكل منها قيمة خاصة ، ويظل التنافس رهنا بقدره كل حضارة على الانجاز .

واذا كان التعدد الحضارى ، ينذر بالصراع الحضارى ، فذلك بسبب وجود نماذج شديدة القوة ، وتفرض سيطرتها على النماذج الاخرى ، والصراع الحضارى سوف يكون النتيجة الطبيعية لفرض النموذج الغربى على البشرية ، لان البشرية لم تمت ولم تصل الى نهاية التاريخ . لذلك فإن آليات المستقبل ، ومع ظهور نماذج حضارية جديدة ، يمكن أن تدفع الى الحرب الباردة بين الحضارات ، وان كانت الرشادة تدفع الى نموذج تعدد الحضارات ، والتعاون بين



الحضارات ، فإذا قبل المجتمع الدولى بشروط التميز الذاتى ، والتفاعل التبادلى بين النماذج ، فى ذلك الحين سوف يهيئ المناخ لنظام التعدد الحضارى ، بدلا من الصراع الحضارى وتصبح الشرعية الدولية ، قواعد ضبط حركة النماذج ، فى اطار التفاعل التبادلى ، والاختيار الحضارى الحر ، ومنعا لحركة التنميط العالمى ، أو حركة التطهير الحضارى .

والقضية ليست قضية عربية ، بل هى قضية العالم غير الغربى كله . ولنا فى النموذج الاسيوى مثال ، فالنمور الاسيوية ، مثل اليابان ، حققت النموذج الغربى ، ولكن فى تقنيات النمو الاقتصادى فقط ، دون نمط الحياة نفسه . فهى تجربة تماثل تجربة محمد على فى حياتنا المصرية ، أكثر من تجاربنا الاخرى . أى انها توقفت عند مستوى التطوير الفنى لآليات الانتاج الصناعى . وقد كان لهذه التجارب الفرصة للنمو ، لانها لم تمثل تهديدا للنموذج الغربى ، ولانها كانت جزءا من آليات الحرب الباردة ، كحليف اسىوى لامريكا ، يهدد روسيا . وكذلك لان الخوف الغربى من النموذج الاسيوى ، لم يكن مثل خوفهم من النموذج العربى الاسلامى ، الذى يمثل فى الذاكرة تهديدا للغرب منذ الفتوحات الاسلامية فى اراضى اسيا واوربا . ومازال الغرب على موقفه من الحذر الشديد تجاه النموذج العربى الاسلامى .

لكن تجربة " النمور " تحمل جوانبا هامة جدا ، فالتقدم جاء على يد شعوب حافظت على تراثها وحضارتها وهويتها . ولكن " التقدم " نفسه أصبح بابا يودى الى تحطيم تلك القوة الداخلية ، كما انه لم يكن نهضة شاملة لقوى الحضارة . وفى نفس الوقت فإن الغرب لا يبدى ارتياحاً ، تجاه دخول هذه النمور الى السوق العالمى ، مع احتفاظها بحضارتها ، ومعاداتها للنموذج الغربى . وشعوب هذه الدول ، تستسلم حيناً للنموذج الغربى ، أو تستسلم فئات منها ، أما الاغلبية فمازالت تحلم بنهضة حضارتها ، واستمرار قيمها ، وجعل التقدم الصناعى ، مجرد وسيلة انتاجية ، وسلاح فى الحرب مع القوة العظمى .

والامر على ما يبدو ، ينذر بصراع حضارى شديد ، داخل هذه النمور نفسها ، وبينها وبين الغرب . لذلك فإن تجربة النمور ، لم تعد صالحة لنا ، بمعنى ان امتلاك اداة الانتاج الاقتصادى ، وبالتالي امتلاك السلاح الاقتصادى ، ليس متاحا لنا ، بعد ترهل أوضاعنا الحضارية ، وبسبب اهتمام الغرب باعادة تنميط النموذج العربى الاسلامى داخل النموذج الغربى .

## المستقبل ...

**أتصور** أو سلاح المستقبل ، ليس الاقتصاد ، بل هو الحضارة ، وهو القيم . فالحضارة الغربية الان تفتقد للمعنى ، والإنسان الاقتصادى تحول الى آله تحطم الطبيعة والإنسان معا . ولهذا فإن تدهور القيم الحادث على مستوى العالم المنمط ، أصبح يهدد حياة البشر أنفسهم ، ويهدد حتى الدول الغربية نفسها . .

لهذا فإن عصر السلاح انتهى ، وعهد الاقتصاد يوشك على الانتهاء ، لندخل فى مرحلة الصعود الحضارى ، الذى يجب أن نكون أحد رموزه ، ومن رواده . والمستقبل يحمل لنا ، أما انتصار الحضارة الغربية ، واقامة الكونية الغربية ، وتنميط العالم ، وتطهيره من النماذج الحضارية الاخرى ، أو يحمل لنا ، قيام الحضارات وصعودها ، والذى قد يدفع نحو الصراع الحضارى ، أو التعدد التعاونى الحضارى .

واذا انتصر النموذج الغربى ، فلن يكون نموذجا أحادى القطب ، أى بقيادة امريكا فقط ، بل سيكون متعدد الاقطاب ( أمريكا ، أوروبا بزعامة ألمانيا ، النمر بزعامة اليابان ، والصين ، وربما أوروبا الشرقية بزعامة روسيا ) . وسيتحقق ذلك اذا تم تنميط العالم تماما ، خاصة أسيا النموذج الحضارى الفتى الذى يخوض معركته الان .

## أخير نذكر ...

**هناك رهان المستقبل** ، فهل نكون قوة داخل النموذج الغربى الكونى ، أم قوة حضارية داخل نموذج التعدد الحضارى الكونى ؟ أم سنظل فى عهود الظلام ، حتى مطلع مفترق طرق جديدة ؟ باختصار ؛ هل ستكون نهضتنا فى المرحلة التاريخية القادمة للبشرية ، أم علينا انتظار مرحلة تالية لها ؟

السؤال اذن عن دورنا فى المستقبل ، وعن اختيارنا ، فهل سنكافح داخل النموذج الغربى ، على أمل أن يكون الحل ، ونجد فيه مستقبل الامة العربية ؟ لا اتصور أن هذا هو الاختيار ، فالنموذج الغربى نفسه قد لا يعيش طويلا ، والدخول فيه ، يؤدى الى زيادة التابعين ، فالقيادة فيه غربية ، هى قيادة للدول التى لها حق ابداع النموذج .

أما نحن فعلىنا أن نختار بين النهضة أو التحول إلى مجرد كم من البشر ، تتحكم فيهم آليات السوق الموجهة من الغرب ، و المنظمة في منطقتنا على يد إسرائيل . فرمما يكون اليوم ، هو اللحظة المناسبة لتعيد تقييم واقعنا ، كي نبدأ كفاحاً حقيقياً من أجل نهضة أمة العرب . فليحكم المستقبل تصوراتنا وكفاحنا ، قبل أن يحاكمنا المستقبل ، ويحكم علينا بالفشل .

## القول والامر

### المقدمة

- (١) حول الصراع بين الاجيال ، يمكن الرجوع الى تجربة ذاتية للكاتب ، تعد نموذجا للصراع بين احلام الجيل الجديد وهمومه ، وبين المؤسسات التي تمثل الجيل الحاكم ، وتحاول الحفاظ على الوضع الراهن ، ايا كانت عيوبه . ( رفيق حبيب . إغتيال جيل : الكنيسة وعودة محاكم التفتيش " تجربة ذاتية " . القاهرة : يافا للدراسات والابحاث ١٩٩٢ )
- (٢) قدم جمال حمدان جهد أصيل ، في دراسة شخصية المجتمع المصري ، من خلال تفاعل الزمن ( التاريخ ) مع المكان ( الجغرافيا ) ، محددا بذلك الاطار الحاكم لنشوء المجتمع وتطوره ، والعناصر الاساسية التي تصنع المستقبل . وبذلك حدد الأساس الموضوعي للحضارة ، في مواجهة الحضارات الاخرى ، وحدد ايضا المساحة التي نتحرك فيها كأمة ، والعناصر التي تحقق لنا النهضة ( جمال حمدان ، شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان . ٤ أجزاء . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٠ - ١٩٨٤ ) .

### المشهد الاول

- (١) نعني باللحظة التاريخية ، الفترة بين سيادة " قالب " وظهور " قالب " جديد ، أى مرحلة التغير الحضارى . وهى تلك الفترات التي تنقضى بين انتهاء حالة ، وقيام حالة أخرى ، وتشهد هذه الفترات ، الثورات والنهضات الفكرية والعلمية والاجتماعية والسياسية . وعن مفهوم التغير الثورى فى العلم كنموذج أنظر ( توماس كون . بنية الثورات العلمية . الكويت : عالم المعرفة ١٩٩٢ )
- (٢) يمكن أن نلمح الصعود العربى ، منذ القرن التاسع تقريبا ، كبداية للحضارة العربية ، والتي استمرت حتى نهاية الحملات الصليبية . فكانت الحروب الصليبية هى بداية نهاية الصعود العربى ، وبداية الصعود الغربى الحديث ، وذلك فى القرن السادس عشر ، الذى شهد بدايات الحضارة الغربية ، والتي تعلمت من الحضارة العربية الاسلامية ، وشهد كذلك دخول العرب فى عصر الانغلاق والتأخر ، والذى استمر حتى صدمة الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر ، وبعدها بدأ عصر الصراع مع الغرب ، واشكالية التأخر العربى . انظر عن فترة البداية / النهاية ( عزيز سوريال عطية . الحروب الصليبية : وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٩٠ ) .
- (٣) حول أحد الرؤى عن اشكاليات الفكر العربى فى علاقته مع التحدى الغربى انظر ( محمد عابد الجابرى . اشكاليات الفكر العربى المعاصر . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٩ ) .
- (٤) نستخدم كلمة حضارة بديلا عن كلمة ثقافة ، باعتبارها تعبيراً أكثر شمولاً لمجمل العناصر المميزة للمجتمع . أى باعتبارها الاطار الشامل للقيم والمبادئ والافكار ، وللعادات والتقاليد ، ونظم العلاقات ، ومفاهيم التصنيف ، ونعتبر القيم بمثابة جوهر الحضارة .
- (٥) حول الانقطاع الحضارى ، وتحديث النظم على النمط الغربى ، واقامة دول عربية على نموذج النظام الغربى السياسى ، أنظر : ( طارق البشرى . منهج النظر فى السياسية



- المعاصرة لبلدان العالم الاسلامى. مالطة: مركز دراسات العالم الاسلامى (١٩٩١).
- (٦) حول خطة الاصلاح الاقتصادى ، والمعروفة ببرنامج صندوق النقد الدولى للتنشيط والتكيف الاقتصادى ، وأثرها على المجتمع ، أنظر : ( رمزى زكى . الليبرالية المستبدة . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٣ ) .
- (٧) تعد المؤشرات العلمية ، خاصة الاقتصادية ، من أخطر المفاهيم التى تؤثر على مستقبلنا ، حيث يفترض فيها انها مؤشرات عالمية وموضوعية معا . والحقيقة انها مؤشرات تدل على نموذج واحد ، والتقدم فيها يعنى التقدم فى تطبيق هذا النموذج ، وهو النموذج الرأسمالى الغربى ، ولا يعنى ذلك تحقيق " تقدم " المجتمع أو الامة ، بمعايير المجتمع نفسه .
- (٨) يمكن للمتابع لمقالات السيد ياسين فى الاهرام تحت اوراق ثقافية ( ديسمبر ١٩٩٣ ويناير ١٩٩٤ ) أن يلاحظ تلك الاشكالية ، بين واقع هيمنة يرفض ضمنا ، وواقع معاشية الواقع ، والخروج للمستقبل وفيه تقبل الهيمنة ضمنا ، وكذلك يلاحظ اشكالية رفض الهيمنة مع ما قد يودى له ذلك من انتصار للتيار الاسلامى ، وبذلك يأتى قبول الهيمنة كأنه قبول للعصر ، وفيه ايضا رفض للتيار الاسلامى .
- (٩) يلاحظ ذلك مثلا ، فى مشكلة الديمقراطية وعلاقتها بالفكر الاسلامى ، فنجد فهمى هويدى يقدم دراسة عن تلك العلاقة مؤكدا أن الاسلام والديمقراطية يجتمعان ، ولا بد لهما من ذلك . وهنا تظهر اشكالية عدم القدرة على رفض المفهوم " الغربى " وتقديم مفهوم آخر قد يحمل بعض ملامح الاول ، ولكن من خلال تحقيق القيم فى صورتها الاصلية . أى أن المشكلة هنا أن رفض المفهوم الغربى ، لايعنى الا التخلف والتأخر ، ومن ثم رفض المجتمع للمفكر نفسه ، وللفكرة برمتها ، بعد أن أصبح المعيار الغربى ، معيارا عالميا فى نظر بعض فئات النخبة فى المجتمع ( فهمى هويدى . الاسلام والديمقراطية . القاهرة : الاهرام ، ١٩٩٣ ) .
- (١٠) انظر على سبيل المثال ، كتابات حازم الببلاوى . الذى يعد أحد أهم منظرى الحقبة الليبرالية الموعودة ، تجد فيها تبشيرا بالليبرالية ، والنموذج الغربى . ولكن ليس من موقع من يمثل المنظر الفكرى للنظام الحاكم ، ولكن من موقع من يضع تصوره ، ويقس مدى ملائمة النظام معه ، ومدى بعده عنه . وهكذا تبقى مساحة فاصلة ، تجعل النجاح فى صف النظرية ، والفشل من نصيب النظام . أنظر مثلا ( حازم الببلاوى . التغير من أجل الاستقرار . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٢ ) .
- (١١) حول الدور السياسى للجماعات الهامشية انظر ( محمد نور فرحات . المجتمع والشريعة والقانون . القاهرة . كتاب الهلال ، ١٩٨٦ ) .
- (١٢) يقدم جلال أمين رؤية جديدة لامكانية الابداع الحضارى والتقدم ، من خلال تأثر ذلك بصعود طبقات جديدة ، وتزايد معدل الحراك الاجتماعى الاقتصادى . وهى فكرة أساسية فى التصور الذى تطرحه صفحات هذا الكتاب ، انظر ( جلال أمين نحو تفسير جديد لازمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر . القاهرة : مديولى ١٩٨٩ ) .
- (١٣) تحتل " الكلمة " و " المفهوم " أهمية متزايدة فى الدراسات المعاصرة . باعتبارها وسيلة لفهم الحالة الراهنة والسياسات السائدة . أنظر على سبيل المثال ( ناعوم شومكى . الارهاب الدولى : الاسطورة والواقع . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٠ )
- (١٤) انظر ( فهمى هويدى ، الاسلام والديمقراطية . مرجع سبق ذكره )
- (١٥) تأمل نموذج الزعيم الشعبى ، المتميز بالشهامة والرجولة والشجاعة . والذى جسده



- عادل إمام فى العديء من الافلام ، وكيف يلقى هذا النموذج اقبالا جماهيريا واسعا ( فيلم المنسى على سبيل المثال ) .
- (١٦) انظر : ( توماس كون . بنية الثورة العلمية ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٧) انظر على سبيل المثال ، دراسة هامة لعلم النفس ، توضح كيف انه علم لاتارىخى اولا اجتماعى ، وانه يهدف فى النهاية الى تأصيل الرأسمالية الفردية ( Sarason , S.B. Psychology misdirected . New York : The Free press , 1981 )
- (١٨) انظر بعض محاولات اكتشاف العلم العربى، فى حالة علم الاجتماع ( نحو علم اجتماع عربى : علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية . ١٩٨٦ ) .
- (١٩) يعد كتاب تغريب العالم لسيرج لاتوش من الاعمال الهامة الكلاسيكية فى هذا الموضوع ( القاهرة : دار العالم الثالث . ١٩٩٢ ) .
- (٢٠) انظر كتابنا حول الاحتجاج الدينى والصراع الطبقي . وفيه نموذج لفكرة تسيد نمط الصراع والطبقات على العالم المعاصر ، وما أدى له من دخول فى عصر الاحياء الدينى العالمى . كذلك فيه بعض ملامح خصوصية الحالة المصرية . ولكن الرؤية التى يقدمها الكتاب ، تفتقر الى دراسة وجود نمط حضارى داخلى ، يفرض عليه نمط حضارى خارجى ، ومايؤدى له ذلك من أشكال تعبر عن صدام النمطين معا ، وما يعنيه ذلك من وجود تنميط للمجتمع المصرى، له بعض الافرازات الخاصة به. التى تتداخل مع افرازات رفض عمليه التنميط نفسها ( رفيق حبيب . الاحتجاج الدينى والصراع الطبقي فى مصر . القاهرة : سينا للنشر : ١٩٩٠ )
- (٢١) تمثل اليابان حالة تنافس الغرب ، وتتبعه فى أن واحد . ومازال المستقبل مجهولا بالنسبة لليابان ، التى قد تمثل نموذجا كاملا ، ينافس ويصارع النموذج الغربى ، وقد تتجرف بالكامل لعمليه التنميط الغربى .

## المشهد الثانى

- (١) عن دورة الحضارة عبر تاريخ البشرية انظر العمل الرائع لجمال حمدان ( استراتيجية الاستعمار والتحرير . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣ ) .
- (٢) انظر ( جلال أمين، نحو تفسير جديد لازمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر، مرجع سبق ذكره ) .
- (٣) يضع الفن توفلر تصوره عن المستقبل ، باعتباره مرحلة حضارية عالمية جديدة ، ويتجاهل بذلك أن قيام حضارة جديدة ، يعنى سقوط الحضارة الحالية ، وان الحضارة الجديدة ليست مجرد حاصل جمع متطور للحضارة السابقة عليها ، وان تاريخ البشرية ليس جبريا . بقدر ماهو تفاعل دينامى متغير ، لايسير فى خط مستقيم ، بل فى دوائر ( Toffler , A. Power Shift . New York : Bantam , 1990 ) .
- (٤) عن القومية الاقتصادية انظر ( سيرج لاتوش، تغريب العالم، مرجع سبق ذكره ) .
- (٥) عن فكرة المركز والاطراف لسمير أمين ، انظر ترجمة للفكرة على الواقع العربى ( سمير أمين . أزمة المجتمع العربى ، القاهرة : دار المستقبل العربى ١٩٨٥ ) .
- (٦) حول احد نماذج العنصرية ، والتى ظهرت فى دراسات تؤكد تخلف ذكاء الشعوب ، فى مقابل تفوق ذكاء الرجل الابيض انظر : ( Evans , B., R. Waites , B. IQ )

- ( and mental testing . London : Macmillan , 1981 ) .
- (٧) انظر : فؤاد مرسى . الرأسمالية تجدد نفسها . الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٩٠ ) ، وفيه دراسة شاملة لعملية تدويل الرأسمالية ، ودخولها فى مرحلة جديدة ، تلك المرحلة التى نتصور انها بداية تدويل نمط الحياة الغربى ، وبداية التطهير الحضارى .
- (٨) انظر : ( فهمى هويدى . فرنسا تشكو من الهيمنة الثقافية . الاهرام ، ١١/٢٣/ ١٩٩٣ ) .
- (٩) انظر : ( فرانسيس فوكوياما . نهاية التاريخ وخاتم البشر . القاهرة : الاهرام ، ١٩٩٣ ) .
- (١٠) ان الحركات العنصرية والنازية الجديدة ، هى تعبير واضح على رفض الاممية الغربية ، وتمرد على تدويل النظام الرأسمالى ، وعودة للقومية الاقتصادية ذات الحدود المميزة بالحماية الجمركية ، وضد تحرير التجارة بالتالى . وهى حركات تخرج من الغرب نفسه ، وتعبر عن أزمة حضارته ، وربما سقوط هذه الحضارة .
- (١١) من نماذج الحوار بين الاديان ، والخصوصية الحضارية ، كمفاهيم يروج لها مجلس الكنائس العالمى ، كما سنرى فى المشهد السابع من هذا الكتاب . والفكرة فى مجملها تقبل وجود القيم الانسانية ، وهى قيم الحضارة الغربية ، فى اثواب واشكال متعددة .
- (١٢) عن دورة حياة الشعوب زمنيا انظر : ( جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٣) انظر جمال حمدان (المرجع السابق) وايضا (شخصية مصر ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٤) فى النموذج الاسيوى للتنمية الاقتصادية ، سنجد تفاعل عنصر التغريب ، مع عنصر التمسك بالذات الحضارية ، ولعل الاخير هو احد مكونات تقدم هذه الدول ، ولكن دخولها فى التدويل الرأسمالى ، يفتح حدودها ، لتنميط حضارتها وقيمها على النمط الغربى . وذلك الصراع سوف يكون له أهمية فى المستقبل ، فقد يعنى هزيمة هذه الدول حضاريا ، أو ظهور نموذج حضارى جديد .
- (١٥) حول التماثل بين الشيوعية والرأسمالية كنموذج للحياة انظر ( Mendoza , M.G., & Napoli , V. Systems of society : An introduction to social science . Lexington : Heath , 1986 ) .
- (١٦) انظر ( عزيز سوريال عطية ، الحروب الصليبية ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٧) عن الازدواجية فى مواجهة الغرب انظر ( محمد عابد الجابرى ، اشكاليات الفكر العربى المعاصر ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٨) عن التنميط الموحد كسمة للحضارة الغربية انظر ( راجى عنايت . العالم سنة ٢٠٠٠ : مستقبل جديد للبشر . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٧ / ط ٢ ) وفيه ترجمة لافكار الفن توفلر ، وعرض لفكرة أن الغرب يخرج الان لحضارة جديدة ، ستكون حضارة للعالم . ونتصور أن التغير فى التنميط مثلا ، هو انتقال من التنميط المهنى ، الى تنميط الحياة وقيمها . وهى المرحلة النهائية للحضارة الغربية ، وليست حضارة جديدة ، كما نعتقد .
- (١٩) انظر ( الفن توفلر ، تغير القوة ، مرجع سبق ذكره ) .
- (٢٠) نتصور أن من اسباب سقوط الشيوعية . عدم قدرتها على تحقيق الحلم الغربى ، وسقوطها فى المناقسة ، من أجل الرفاهية والتسلية ، وكذلك الحرية الفردية باعتبارها أحد عناصر الاستهلاك من أجل الرفاهية غير المحدودة .

### المشهد الثالث

- (١) ( جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، مرجع سبق ذكره ) .
- (٢) عن تجربة محمد على ، وعملية النقل للمهارة الفنية فقط، بدون النظم نفسها انظر ( طارق البشرى . مستقبل الحوار الاسلامى العلمانى . منبر الحوار ، ٢٠، ١٩٩١، ٧ - ٤٨ ) .
- (٣) يمكننا ان ندرك هنا اشكالية المؤسسة ، التى ترى فى صفوة الجماهير ، ونخبها ، منافس قوى لها ، دون أن تدرك معنى زعامة الامة ، والتحالف مع نخبة الامة ، وما يعنيه ذلك من قوة وقدرات تعبوية قوية . كذلك ، فإن تلاحم المؤسسة مع الامة ، يقوم للنهضة ، ويجعل المؤسسة ممثلاً عن الامة ، وتصبح قوتها بحجم قوة الجماهير نفسها . ولكن عندما تقيم المؤسسة حاجزا بينها وبين نخبة الامة ، والامة نفسها ، تؤدى بذلك الى اضاءة فرص النهضة ، وتبقى المؤسسة فى المعركة ، حتى تتألف الهزيمة . وحول موقف محمد على من النخبة المصرية ( البرجوازية المصرية ) انظر : ( سمير امين . أزمة المجتمع العربى . القاهرة : دار المستقبل العربى ، ١٩٨٥ ) .
- (٤) لايمكن ان نغفل أن محمد على ، حول الازهر ، صاحب التاريخ الطويل فى الكفاح ، والذى كان له دور فى وصول محمد على للسلطة ، حوله الى مؤسسة تتبع الدولة ، بدلا من أن يكون مؤسسة تتزعّم الجماهير . وبذلك " أمم " حركة الجماهير لتأمين وجوده فى السلطة ، واختزال واقع الامة ، الى العلاقة الفاترة بين المؤسسة والشعب ، وهى تلك الحالة التى استمرت بعد ذلك ، وحتى الان .
- (٥) ان هذه الفترة شهدت تحدينا ، ونموا لطبقات المجتمع المصرى ، وصعودا لصفوة مصرية ، وكلها علامات يمكن ان ندركها بشكل ايجابى ، باعتبارها مكونات للنهضة ، انظر : ( انور عبد الملك . نهضة مصر . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٣ ) . ولكن من منظور اخر ، علينا ان نعى من التاريخ ، ان حركة المجتمع وحراكة ، نحو التقدم والتحديث ، ارتبطا بالغرب وفكره ، يخلق فى النهاية حالة الاستعداد للاستعمار أو الهيمنة ، وأن المجتمع كان مدخلا فى مراحل تاريخية كثيرة ، لفرض الهيمنة الغربية ، والفكرة الغربية .
- (٦) عن ارتباط مصر بالفكرة الاسلامية، وعدم ظهور الفكرة العربية الا مع عهد عبد الناصر انظر: ( مصطفى الفقى . تجديد الفكر القومى . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٤ ) .
- (٧) انظر : ( رفيق جبيب ، التطور النفسى للشخصية المصرية . رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة عين شمس كلية الاداب ، ١٩٨٨ ) .
- (٨) انظر : ( مصطفى الفقى . تجديد الفكر القومى ، مرجع سبق ذكره ) .
- (٩) انظر ( عصمت سيف الدولة ، هل كان عبد الناصر ديكتاتورا ؟ بيروت : دار المسيرة ، ١٩٨٣ ) .
- (١٠) انظر المرجع السابق .
- (١١) حول دور المؤسسة والشعب فى الثورات انظر ( طارق البشرى ، الحوار الاسلامى العلمانى ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٢) عن طبيعة حركة يوليو انظر : ( طارق البشرى . الديمقراطية وثورة ٢٣ يوليو . بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨٧ ) .
- (١٣) حول التنمية المستقلة انظر مجموعة الدراسات القيمة فى ( التنمية المستقلة فى الوطن العربى . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية . ١٩٨٧ ) .
- (١٤) حول تجربة عبد الناصر ، ونشوء القومية العربية انظر ( Amin , S. The Arab



### المشهد الرابع

- (١) انظر : ( محمد حسنين هيكل . خريف الغضب . بيروت : شركة المطبوعات للنوزيع والنشر ١٩٨٥ ) .
- (٢) عن العلاقة بين مبادرة السلام وانتفاضة ١٩٧٧ انظر : ( مصطفى الفقى . الاسلام فى عالم متغير . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ ) .
- (٣) ظهرت أزمة الشعور بأكتوبر والسلام والسادات فى كتابات يوسف ادريس ومحمد حسنين هيكل وغيرهم . انظر : ( اسماعيل فهمى . التفاوض من أجل السلام . القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٥ ) و ( محمد ابراهيم كامل . السلام الضائع فى كامب ديفيد . القاهرة : كتاب الاهالى ١٩٨٧ ) .
- (٤) انظر : ( جلال أمين . الدولة الرخوة فى مصر . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٩٣ ) .
- (٥) يلاحظ أن فكرة تدمير العالم ، ونشر الحضارة الغربية ، يعبر عنها الجناح الليبرالى المعتدل فى الغرب ، وهو حتى الان الجناح الحاكم . أما جناح اليمين المتطرف النازى ، فيرى ان الليبرالية والديمقراطية ، ليست الامنجزات غربية ، لا يملكها ، ولن يطبقها ، الا الغرب ، وبقية العالم ، ليسوا الا برابرة همجيين يجب على الغرب ان يحمى نفسه منهم . انظر ( حازم الببلاوى . عن الديمقراطية الليبرالية . قضايا ومشاكل . القاهرة : دار الشروق ١٩٩٣ ) .
- (٦) يلاحظ ان الغرب ينظر للحضارات الاخرى ، نظرة السائح الذى يستمتع بمشاهدة أطلال الماضى ، فالحضارات الاخرى بالنسبة للغرب ، هى " ماضى " البشرية .
- (٧) عن المظلة العربية للتحالف انظر " ( محمد حسنين هيكل . حرب الخليج : أوام القوة والنصر . القاهرة : الاهرام ، ١٩٩٠ ) .
- (٨) انظر : ( البنك الدولى . تقرير عن التنمية فى العالم ١٩٩٣ . الاهرام ، ١٩٩٣ ) .
- (٩) صاحب هذا التعبير فهمى هويدى . واستخدمه لوصف القضية الفلسطينية بعد اتفاق غزة اريحا ، ومقارنة ما حدث ، بالتاريخ ، فالقضية تحولت فى هذا الاتفاق الى صفقة .

### المشهد الخامس

- (١) عن الفئات الرأسمالية المرتبطة بالغرب انظر : ( سمير أمين ، الامة العربية ، مرجع سبق ذكره ) .
- (٢) قامت عناصر اليساريين ، والقوميين ، والناصريين ، والاسلاميين ، وغيرهم ، بأدوار طليعية هامة فى المجتمع المصرى والعربى . ولكن حديثنا ينصب هنا على ظهور فئة ، تمثل نخبة تقود الامة بأسرها فى حركة نهضة .
- (٣) ان تلك المرحلة ( النصف الاول من القرن العشرين ) تعد مرحلة لها بريقها ، وهى مرحلة لازمة فى التاريخ ، ولازمة للنهضة ، ولكن لا يمكن اعاتها ، أو الاستمرار فيها ، بل علينا تجاوزها .
- (٤) حول اختراق المجتمع العلمى انظر : ( رفعت سيد احمد . وصف مصر بالعبرى . القاهرة : سينا للنشر ، ١٩٨٩ ) و ( رفعت سيد أحمد . علماء وجواسيس . لندن : رياض الرئيس ، ١٩٩٠ ) .

- (٥) تعبير التراجع لاسفل استخدمه جمال حمدان فى شخصية مصر ( مرجع سبق ذكره ) واعاد استخدامه محمد حسنين هيكل فى ( أكتوبر : السلاح والسياسة . القاهرة : الاهرام ، ١٩٩٤ ) .
- (٦) انظر : ( جلال امين ، نحو تفسير جديد ، مرجع سبق ذكره ) .
- (٧) انظر : ( التقرير الاستراتيجى العربى . القاهرة : الاهرام ١٩٩١ ) .
- (٨) يمكن للقارئ الرجوع الى كتابات حازم الببلاوى ، وسعيد النجار ، ومحمود وهبة ، باعتبارهم نماذج لعملية التنظير للتحويل الليبرالى . وكذلك يمكن الرجوع لرد جلال امين على سعيد النجار ( العربى ، ١٩٩٤/١/٣ ) بوصفه محاولة من الطليعة اليسارية الناصرية ، لصدد عملية التحويل الغربى .
- (٩) فى حديث تليفزيونى قبل انتخابات الفترة الثالثة ، عبر حسنى مبارك عن رفضه للديمقراطية التى تسمح بتدخل اصحاب المصالح والنفوذ ، والتحالفات العابرة للحدود ، لشراء الاصوات ، والفوز بمن يمثلهم فى كرسى الحكم . وهو رفض يعبر عن شكوك المؤسسة الحاكمة فى الديمقراطية الليبرالية ، بمعناها الغربى الحقيقى ، ومصير هذه المؤسسة فى حالة التطبيق الفعلى لهذا النظام الغربى . وهنا تأخذ المؤسسة ، ورئيسها موقف المدافع عن الصالح الوطنى ، تجاه الاطماع الخارجية ، رغم ان المؤسسة نفسها تمرر مصالح الغرب . وفى ذلك تصور ، ان المؤسسة ، أو الجهاز الادارى ، هى القادرة على تنظيم تلك العلاقة ، بين الوطن والغرب ، فى حدود مرسومة ، أما الجماعات الاخرى ، فانها ستفتح الباب امام سيطرة الغرب . وهنا تبدو المؤسسة مع التحديث ، ولكنها ضد جزء هام من المنظومة القيمية الغربية .
- (١٠) يلاحظ أن عاطف صدقى درس النموذج الاشتراكى فى الجامعة ، وطبق النموذج الرأسمالى فى الحكم . وهذا الانتقال السهل بين النماذج يؤكد ان جوهر حركة النخبة ( الخبراء ) ، هو تحقيق التحديث أو التنمية ، بغض النظر عن النموذج اشتراكى ام رأسمالى . ويتضح من دور عاطف صدقى وجماعته ، أن روح الاستقلال ، كقضية وطنية ، لم تعد الحافز الاساسى ، امام الخبراء ، الذين تعلموا فى الغرب ، ويطبقوا نموذجه الان فى مصر .
- (١١) يلاحظ أن التغريب فى حالة ضعف الدولة يأخذ طريقه عن طريق المجتمع نفسه ، كما فى عهد الخديوى اسماعيل ، والذى اسلم مصر للاحتلال ، وكذلك فى النصف الاول من القرن العشرين ، وانتهى الامر بثورة ١٩٥٢ ، فكيف سينتهى بنا الامر هذه المرة ، هل بالاحتلال المعنوى الشامل ، أم بالثورة ؟!

## المشهد السادس

- (١) انظر : ( تطور الفكر القومى العربى بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦ ) وكذلك ( مصطفى الفقى ، تحديد الفكر القومى . مرجع سبق ذكره ) .
- (٢) حول اشكالية العلاقة بين العروبة والاسلام انظر : ( عصمت سيف الدولة عن العروبة والاسلام . القاهرة : مركز دراسات الوحدة العربية ودار المستقبل العربى ، ١٩٨٦ ) وكذلك ( القومية العربية والاسلام . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨١ ) .
- (٣) عن التلاحم بين العروبة والاسلام انظر : ( أنور عبد الملك . ربح الشرق . القاهرة : دار المستقبل العربى ، ١٩٨٣ ) .



- (٤) انظر : ( أديب نجيب سلامة . الانجيليون والعمل القومي . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٩٣ ) .
- (٥) ( مصطفى الفقى ، مرجع سبق ذكره ) .
- (٦) انظر : ( رفيق حبيب ، التطور النفسى للشخصية المصرية ، مرجع سبق ذكره ) .
- (٧) نتصور ان من الاطروحات العلمانية ، التى تتبع من الحضارة العربية الاسلامية ، دون الحضارة الغربية ، مؤكدة ذاتنا الحضارية ، كتابات جلال أمين ، وجمال حمدان ، وحامد عمار ، ومصطفى الفقى ، وغيرهم كثير اذا تكلمنا عن الكتاب العرب ايضا .
- (٨) حول المدرسة الرومانية الشرقية والغربية ، ومقارنتها بالشرق الاسلامى انظر : ( برتران بادى . الدولتان : السلطة والمجتمع فى الغرب وفى بلاد الاسلام . القاهرة : دار الفكر ، ١٩٩٣ ) .
- (٩) حول المدارس المسيحية حتى المجتمع الخلقونى انظر : ( Gonzalez J.L.A history of christian thought.vol.i.Nashvill:Abingdon, 1970 ) وايضا ( حنا جرجس الخضرى . تاريخ الفكر المسيحى . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨١ ، ١٩٨٦ ، ١٩٩١ {ثلاثة أجزاء} ) .
- (١٠) ( رفيق حبيب ، التطور النفسى للشخصية المصرية ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١١) حول نشأة الكنيسة الارثوذكسية ، بكيانها البيزنطى ، وظهور اجتهادات واسهامات قبطية محلية انظر : ( رفيق حبيب ومحمد عفيفى . تاريخ الكنيسة المصرية . القاهرة : الدار العربية ، ١٩٩٤ ) .
- (١٢) انظر : ( أنور عبد الملك ، ربح الشرق ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٣) انظر : ( ميخائيل شاروبيم . الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث (ج٤) . القاهرة : المطبعة الكبرى الاميرية ، ١٩١٠ ) وكذلك ( صموئيل تاوضروس {القمص} . باباوات الكرسي الاسكندري ١٨٠٩-١٩٧١ . القاهرة " بدون ناشر ، ١٩٧٧ ) وايضا ( جرجس فيلوثاؤس عوض . حياة بعد موت . القاهرة : مطابع التوفيق ١٩١١ ) و ( زاهر رياض . قداسة البابا كيرلس الرابع . مجلة مدارس الاحد ، ٢ ، ١٩٦١ ) . ويلاحظ أن البابا كيرلس الرابع كان منفتحا على الاحتكاك بالآخرين ، وعلى الافكار الجديدة ، وهذا غير ان نصفه بالعمالة ، فهذا تجاوز لحقائق التاريخ ، رغم الغموض حوله ، وحول موته . لذلك فهو نموذج للتحديث والانفتاح على الاداء المعاصره ، وهو ماظهر فى اهتمامه بالتعليم ، واهتمامه بتعليم البنات ، وتعليم اللغة الاجنبية ، كذلك تواكب ذلك مع اهتمامه بتعليم اللغة القبطية فى محاولة للحفاظ على حدود " الذات " ، حسب تصورنا .
- (١٤) مثل نموذج حبيب باشا المصرى انظر : ( رفيق حبيب . الاحياء الدينى : ملف اجتماعى للتيارات المسيحية والاسلامية فى مصر . القاهرة : الدارالعربية : ١٩٩١ ) .
- (١٥) عن حبيب جرجس انظر : ( رفيق حبيب ، الاحتجاج الدينى والصراع الطبقي ) وكذلك ( الاحياء الدينى . سبق ذكرهما ) .
- (١٦) ( رفيق حبيب ، الاحياء الدينى ، سبق ذكره ) .
- (١٧) المرجع السابق .
- (١٨) عن القمص ابراهيم لوقا انظر : ( المرجع السابق ) .
- (١٩) انظر ( حبيب وعفيفى ، تاريخ الكنيسة المصرية ، مرجع سبق ذكره ) .

- (٢٠) بدأ التبشير البروتستانتي في منتصف القرن التاسع عشر . وكان التبشير الكاثوليكي قد بدأ منذ بداية القرن التاسع عشر ، وفي اعقاب الحملة الفرنسية .
- (٢١) انظر ( المرجع السابق ) .
- (٢٢) انظر ( رفيق حبيب ، الاحياء الديني ، مرجع سبق ذكره )
- (٢٣) لم تستطع الكنيسة البروتستانتية في مصر ، " ابداع " فكر لاهوتي يعبر عنها ، اى لم تقدم فكر " مصري " ، بل ظلت مرتبطة بالميراث اللاهوتي الغربى ، حتى التيار المحافظ ، لم يقدم فكرا ، بل قدم ممارسات ، تتعارض مع الحرية الغربية المعاصرة ، مثلما تعارض هذه الحرية العديد من التيارات المسيحية في الغرب ، فأصبح في النهاية أسير الميراث الغربى المحافظ .
- (٢٤) انظر ( حبيب وعفيفي ، تاريخ الكنيسة المصرية ، مرجع سبق ذكره ) .

### المشهد السابع

- (١) في كواليس مجلس الكنائس العالمى ، تسمع أحاديث حول دور الامين العام للمجلس في ذلك الوقت للتوسط لدى السادات ، عن طريق احد الرؤساء الغربيين ، حتى لا تتفاقم أزمة البابا شنودة ، ولا تصل لحد المحاكمة .
- (٢) من اوراق غير منشورة لمرسلين عملوا في الكنيسة الارثوذكسية في مصر .
- (٣) من اوراق " المائدة المستديرة " الخاصة بجلسات المشاورات بين مجلس الكنائس العالمى والممولين الغربيين ، وبين اسقفية الخدمات بالكنيسة الارثوذكسية ، وفيها نمط فكرى تنموى ، على المحركات العالمية ( الغربية ) .
- (٤) اوراق غير منشورة ، وتوجد لدى المؤلف .
- (٥) حول إختراق الاصولية المسيحية للكنيسة الارثوذكسية انظر : ( Jahnstone, P : Operation World. England : STL, 1986 ) .
- (٦) انظر : ( رفيق حبيب . المسيحية والحرب : قصة الاصولية الصهيونية الامريكية والصراع على الشرق الاسلامى . القاهرة : يافا ، ١٩٩١ ) .
- (٧) ( المرجع السابق ) .
- (٨) حول تاريخ المجلس انظر :

Hooft, W.A.V. The genesis and formation of the world council of churches. Geneva : WCC, 1982.

Commemorating Amsterdam 1948 : 40 years of the world council of churches. Ecumenical Review, 40 ( 4-3 ) , 1988 .

- (٩) انظر ( رفيق حبيب ، المسيحية والحرب ، مرجع سبق ذكره ) .
- (١٠) من ميزانية مجلس الكنائس العالمى ، وهى منشورة ومتداولة .
- (١١) انظر هامش رقم (٨) .
- (١٢) انظر عن المواقف السياسية للمجلس ، بيانات لجنة الكنيسة والشئون الدولية ، والتي تصدر في مجلدات تحت اسم " The Churches in International Affairs " وتصدر عن مجلس الكنائس العالمى - جنيف - على سبيل المثال تقارير ١٩٧٠ - ١٩٧٣ ، طبعة ١٩٧٤ . وتقارير ١٩٧٩ - ١٩٨٢ ، طبعة ١٩٨٣ . وتقارير ١٩٨٣ - ١٩٨٦ ، وطبعة ١٩٨٧ .



(١٣) أنظر ( Lefever. Nairobi to vanconver : The World council of churches and The World, 1975 - 87 . Washington D.C. : Ethics and Public Policy Center, 1987 )

(١٤) أنظر :

Stock, K.(Ed). Hope in the desert : The churches united response to human need, 1944 - 1984. Geneva : WCC, 1986.

Church and Society: Ecumenical prespectives. The Ecumenical Review, 37 (1) , 1985.

(١٥) أنظر على سبيل المثال :

Samartha, S.J. Courage for dialogue. Geneva :wcc , 1981.

Christion - Muslim Dialogue. Geneva: wcc, 1973.

Van der Bent, A.J. christian response in a world of crisis . ( أنظر ) ( Geneva : wcc, 1986 )

(١٧) مقررات وبيانات الجمعية العمومية السابقة في كانبرا بأستراليا / ١٩٩١ .

(١٨) مجموعة بيانات المجلس حول الصراع الاسرائيلي - العربي ، أوراق عمل ، ١٩٨٣ .

(١٩) أنظر : ( CCIA : Backgrovd information , Invasion of lebanon .

Geneva : WCC, 1982 ) .

(٢٠) أنظر ( مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الاديان . مجلس الكنائس العالمي :

قسم الحوار مع الاديان الحية . بيروت : مجلس كنائس الشرق الاوسط ، ١٩٨٨ ) .

(٢١) أنظر تقرير الدائرة المستديرة الصادر عن أسقفية الخدمات ، غير المنشور . وكذلك

الخطاب الاخباري الصادر عن مكتب الشرق الاوسط بمجلس الكنائس العالمي ،

محدود التوزيع .

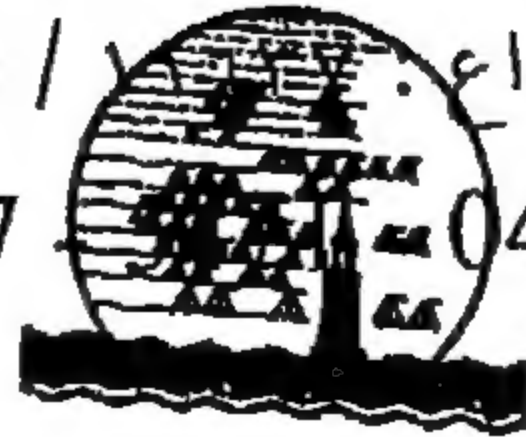
## المشهد الثامن

(١) يعد كتاب زكي نجيب محمود " تجديد الفكر العربي " انطلاقة حقيقية في دراسة

اشكالية الاصالة والمعاصرة . وهو في نفس الوقت دليل على مازق الازدواجية

الثقافية ، الذي لم نتخلص منه حتى الان .

رقم الإيداع : ٩٤ / ١٠٤  
الترقيم الدولي : 4 - 04  
I.S.BN. 977



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)  
Bibliotheca Alexandrina



## هذا الكتاب

بعد أن يهدى المؤلف كتابه للدكتور جمال حمدان "راهب العلم الذى مات فعرفنا أنه الحى ونحن الأموات.. الذى علمنا أن الجسد يموت و الضمير خالد....." ، يعرض فى كتابه بعد المقدمة عدة مشاهد تبدأ بالمشهد الأول ... أرض المعركة لينتهى بالمشهد الثامن .. محاولة للإيمان ،

والمؤلف بهذا الاستعراض يحاول وضع إصبعه على مصادر آلام الأمة سواء جاءت من داخلها أو من خارجها وهى آلام بلغت من العمق للدرجة التى تساءل فيها بعضنا عن "إمتى يعلنون وفاة العرب".

بهذا الكتاب يستكمل المؤلف الخط الذى بدأه فى دراسة المجتمع المصرى و العربى عموما ، ونحن نرجو بإصداره أن نضع ضوءا يساعد قارئه لمعرفة ما جرى .. ما يجرى .. وإلى أين نسير.

## المؤلف:

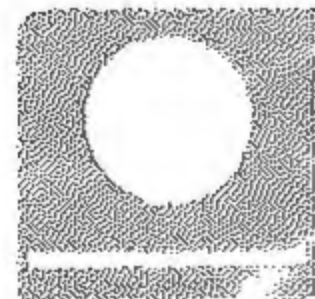
خريج جامعة القاهرة ١٩٨٢ شعبة علم نفس ، وحصل على الدكتوراة من جامعة عين شمس ١٩٨٨ فى علم النفس. من مؤلفاته السابقة " المسيحية السياسية فى مصر " ١٩٩٠ ، " الاحتجاج الدينى و الصراع الطبقي فى مصر " ١٩٩٠ ، " الإحياء الدينى " ١٩٩١ . يركز اهتماماته أساسا فى مجال قضايا الفكر الاجتماعى و دور الدين فى المجتمع ، وقضايا الصراع الحضارى.

التوزيع بدولة الإمارات ودول الخليج

مكتبة الثقافة الجديدة

أبو ظبى ص. ب : ٣٥٧٠

ت : ٣٢٥٣٩٩



تليفون : ٢٥٦٢٢٦٨

ص . ب . ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب

١٣ أ شارع إسلام - حمامات القبة - القاهرة